سلسلة شروحات الشيخ

(٨)

شرح ثلاثة الأصول

تصنيف شيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي

المتوفى سنة (١٢٠٦) رحمه الله تعالى

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. صالح بن عبد العزيز بن عثمان سندي

أستاذ العقيدة بالجامعة الإسلامية

والمدرس بالمسجد النبوي

الشيخ لم يراجع التفريغ

النسخة الأولى

شرح ثلاثة الأصول

شرح

ثلاثة الأصول

سلسلة شروحات الشيخ

(٨)

شرح ثلاثة الأصول

تصنيف شيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي

المتوفى سنة (١٢٠٦) رحمه الله تعالى

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. صالح بن عبد العزيز بن عثمان سندي

أستاذ العقيدة بالجامعة الإسلامية
والمدرس بالمسجد النبوي

الشيخ لم يراجع التفريغ

النسخة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم



المُقَـدِّمَة

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اعلم -رحمك الله -أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل:

الشَّرح

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مفضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله؛ صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فنستعين بالله ﷻ ونسأله التيسير والقَبول في مدارسة هذه الرسالة القيّمة النفيسة، ألا وهي رسالة الأصول الثلاثة، هذه الرسالة ألفها الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي؛ المتوفىٰ سنة: (١٢٠٦هـ) من هجرة النبي ﷺ.

هذه الرسالة رسالة وجيزة في كلماتها وأسطرها، لكنَّها نفيسة في معانيها وفي العلوم التي احتوت عليها، هذه الرسالة كان أهل العلم ولا يزالون يوصون بها

غاية الوصية؛ لأن ما تضمنته هذه الرسالة من العلم الواجب الذي لا يُعذر الإنسان في تكاسله عن التعلم لهذه الرسالة وما فيها من العلوم، فالعلم الذي فيها من القدْر الواجب لابد من تعلمه، وكان الناس إلىٰ وقتٍ قريب يحتفون بهذه الرسالة احتفاءً كبيرًا، بل ويحفظونها، ويتدارسونها في كل وقت، الصغار والكبار، والرجال والنساء، وأثمر هذا بتوفيق الله رسوخًا في التوحيد، وبُعْدًا عن أسباب القدح فيه؛ وذلك أن هذه الرسالة تُعلّم أصل التوحيد بالدليل، فشتان بين من يبني اعتقاده علىٰ العلم والدليل، ومن يكون إيمانه ودينه إنما هو دين المَرْبىٰ والمنشأ والعادة، شتان بين هذا وهذا، المعتقد المبني علىٰ أدلة راسخة من الكتاب والسنة ليس كاعتقادٍ إنما بُنِيَ علىٰ تقليد الناس، يقول ما سمع الناس يقولونه، شتان بين هذا وهذا، العلم الأول علمٌ يُؤدي إلىٰ الثبات بتوفيق الله إذا هبت رياح الشبه المزعزعة للإيمان ، أما الثاني فما أسرع سقوطه أمام هذه العواصف والله المستعان.

فالوصية لك يا طالب العلم، بل الوصية لك يا أيها المسلم ويا أيتها المسلمة: هي العناية بهذه الرسالة؛ اقرأها وتأملها وإن استطعت فاحفظها وحاول أن تتفهم ما رمت إليه وما دلت عليه.

بدأ المؤلف رحمه الله هذه الرسالة بالبسملة، وهذا قد جرىٰ فيه المؤلف رحمه الله علىٰ ما جاء في كتاب الله سبحانه وتعالى، فإنه مفتتح بالبسملة، وإذا قال: بسم الله الرحمن الرحيم فإنه يكون مستعينًا بالله؛ متبركًا بذكر اسمه جل وعلا، وبذكر أسمائه سبحانه وتعالى تتنزل البركات والرحمات والخيرات، وكذلك الشأن في سنة النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه كان يفتتح رسائله

بالبسملة كما في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في الكتاب الذي أرسله النبي ﷺ إلىٰ هرقل، وقد ذكر ابن حجر رحمه الله في «فتح الباري» أن عمل المصنفين قد استقر علىٰ افتتاح الكتب بالبسملة، فالمؤلف رحمه الله جرىٰ هاهنا علىٰ سَنَنِ أهل العلم.

هذه الرسالة قلْتُ: إن اسمها الأصول الثلاثة، وتُسمىٰ أيضًا ثلاثة الأصول، والمؤلف رحمه الله سماها تارة بهذه التسمية، وتارة بهذه التسمية، فالأمر في التسمية علىٰ كلِّ حال يسير.

هذه الرسالة اشتملت علىٰ مقدمة وعلىٰ صلب الموضوع وعلىٰ خاتمة.

أما المقدمة فاشتملت على ثلاثة أمور:

أولًا: الأمر بالعلم بأربع مسائل.

ثم وهو الأمر الثاني: الأمر بالعلم بثلاثِ مسائل.

ثم ذكر خاتمة تُبين بإيجاز ما الحنيفية التي هي ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

ثم بعد ذلك شرع في شرح وبيان الأصول الثلاثة التي يجب علىٰ كل مسلم ومسلمة تعلمها، وهذه الأصول الثلاثة هي: معرفة الله، ومعرفة رسوله ﷺ، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

ثم بعد ذلك ختم هذه الرسالة بخاتمة تكلم فيها عن شيء مما يتعلق بالبعث وأمور الآخرة، وكذلك أشار إشارة تتعلق بالكفر بالطاغوت، هذه هي الرسالة علىٰ وجه الإجمال.

بدأ ﵀ بقوله: (**اعلم رحمك الله**) والعلماء يذكرون هذه الكلمة (اعلم)للتنبيه، يريدون أن تتنبه يا طالب العلم ويا أيها القارئ والمتعلم هذه الرسالة أن تتنبه إلىٰ أن ما سيأتي أمرٌ مهمٌ ينبغي أن تتنبه له.

(**اعلم رحمك الله**) دعا المؤلف ﵀ لقارئ هذه الرسالة ومتعلمها بالرحمة، وهذا فيه من التلطف بطالب العلم الشيء الذي لا يخفىٰ، وفيه أيضًا بيان أهمية الرحمة في العلم، وأن العلم مبناه علىٰ الرحمة، وعلىٰ أن العلاقة بين العالم والمتعلم قائمة علىٰ أساس الرحمة، وهذه الأمور التي ذكرها المؤلف ﵀ هي أمورٌ أربعة يجب علىٰ كل مسلم أن يتعلمها.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

اعلم -رحمك الله- أنه يجب علينا تعلم أربعِ مسائل:

الأولىٰ: العلم، هو معرفة الله ومعرفة نبيه ﷺ ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

الشَّرح

قال المؤلف رحمه الله، هذه الأمور الأربعة أولها: العلم، يعني: يجب أن تعلم وجوبَ العلمِ، فالعلمُ مما يجب أن تقوم به، لابد من أن تجتهد في تحصيله هذا قدْرٌ لابد منه، وما هو هذا القدْر الذي يجب علينا أن نُحصله من العلم، بينه المؤلف رحمه الله بقوله: (**وهو معرفة الله ومعرفة رسوله ﷺ ومعرفة دين الإسلام بالأدلة**)، وهذه الأمور الثلاثة التي بين المؤلف رحمه الله وجوب العلم بها هي الأصول الثلاثة التي سيشرحها علىٰ وجه التفصيل فيما سيأتي إن شاء الله من هذه الرسالة.

قال: (**العلم، وهو معرفة الله**) هاهنا يبحثُ أهل العلمِ مسألةَ الفرق بين العلم والمعرفة، ومن العلماء من يرىٰ أن هاتين الكلمتين مترادفتان، فالعلم هو المعرفة والمعرفةُ هي العلم، والمؤلف رحمه الله عبر أو فسر العلم بالمعرفة، وقد يُفهم من هذا أنه يرىٰ الترادف بين هاتين الكلمتين، وذهب كثيرٌ من أهل العلم إلىٰ التفريق بين العلم والمعرفة، واختلفوا اختلافًا طويلًا في هذا الفرق بين هاتين الكلمتين، العسكري في «فروقه» ذهب إلىٰ أن المعرفة أخصُّ من العلم، فالمعرفةُ علمٌ بتفاصيل الشيء، وأما العلم فأعمُّ من ذلك: هي العلمُ بالشيء

جملةً وتفصيلًا، وهذا قد تعقبه فيه ابن القيم ﵀ في «مدارج السالكين»، وقد بسط هذه المسألة وذكر جملة من الفروق.

مما ذكره ﵀: أن المعرفةَ هي العلمُ بالذات، وأما العلمُ فإنه العلمُ بالأحوال، ولذا تقولُ: عرفتُ زيدًا، وعلمتُهُ صادقًا، فالمعرفةُ تعلقت بالذات، والعلم تعلق بالحال.

ومما ذكر أيضًا: أن المعرفةَ تُقابِلُ الإنكار، والعلمُ يُقابِلُ الجهل في فروقٍ عدة ذكرها ﵀.

المقصود هو علىٰ كلِّ وجهٍ وعلىٰ أي حال أن القدر الواجب الذي يجب علينا جميعًا تعلمه من العلم هو ما أشار إليه المؤلف ﵀: معرفة الله، ومعرفة رسوله ﷺ، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

المؤلف ﵀ بدأ أولًا بالعلم قبل أي شيءٍ آخر؛ وذا لأن العلم هو الأساس الذي يُبنىٰ عليه كل شيء، والعلمُ فيه أبحاثٌ شتىٰ ومسائلُ عدة، **لكن يُهمنا هنا أن نقف عند مسألتين من جملة هذه المسائل:**

أولًا: ما هو العلمُ الذي جاء الثناء عليه والأمر به ومدح أهله في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ؟ ثم ما فضيلة هذا العلم، وما هي الأجورُ المترتبةُ علىٰ تحصيله؟

أولًا: اعلم يا رعاك الله أن العلم إذا أُطْلِقَ في مقام الثناء أو الحث أو مدحِ أهلهِ فإنما هو العلم الشرعي، وهذا يجرُّنا إلىٰ القول بأن العلم ينقسمُ إلىٰ قسمين:

العلم من حيثُ موضوعهُ ينقسم إلى قسمين:

١) علم شرعي.

٢) علم دنيوي.

والعلم الشرعي ينقسمُ إلى قسمين:

١) علمٍ شرعيٍ واجب.

٢) علمٍ شرعي مستحب.

أما العلمُ الشرعي الواجب فضابطه: هو كلُّ ما قام به الدين الواجب فالعلم به واجب، لأن القاعدة الشرعية المقررة: ما لا يتمُّ الواجبُ إلا به فهو واجب.

إذن: إذا كان الله ﷻ أوجب عليك أمورًا أن تعتقدها فالعلمُ بها واجب، لأنك لا يمكنُ أن تُحصِّلَ هذا الاعتقاد إلا بالعلم، إذا كان الله ﷻ قد أوجب عليك أمورًا للعمل بها فإن العلم بها أضحىٰ واجبًا؛ لأنك لا يمكنُ أن تعملَ بما تجهل، إذا أمرك الله ﷻ بالصلاة، إذا أمرك الله ﷻ بالصيام، بالزكاة، بالحج.. إلىٰ غير ذلك، **إذن:** هذا القدر الذي أوجبه الله ﷻ لابد من العلم به حتىٰ تتمكن من القيام بما أمر الله ﷺ به، ما لا يتِمُّ الواجبُ إلا بِهِ فهو واجب.

أما العلم المستحب أو القسم الثاني وهو العلم المستحب، فهو ما قام به الدين المستحب، فالعلمُ به مستحب، ثمةَ أمورٌ دون الواجبات من دين الله ﷻ وشرعه، هذه العلم بها مستحب، ولكن انتبه! العلم بها مستحبٌ في حقِّ الأفراد، وأما في حقِّ مجموعِ الأمة فإن ذلك فرضُ كفاية، بمعنىٰ: يجبُ أن يكون في الأمة

من تحصل بهم الكفاية في الحفاظ علىٰ هذا العلم، لِمَ؟ لأن هذا سببٌ للحفاظِ علىٰ الدين، الدينُ يجبُ أن يبقىٰ كما هو بواجبهِ ومستحبهِ، واجبٌ علىٰ أهلِ هذه الملة أن يُحافظوا علىٰ هذا الدين، وبالتالي كان الحفاظُ علىٰ العلم المستحب من القدْرِ الذي حُكْمُهُ الوجوبُ الكفائي، وبالتالي وجَبَ أن يكون في الأمة من تحصل بهم الكفاية في تحصيل هذا العلم، وبالتالي يبقىٰ في الأمةِ ولا يندثر، لا يجوزُ أن يندثرَ شيءٌ من هذا الدين، لا يجوزُ أن يضْمَحِلَّ شيءٌ من هذا الدين، ولو كان قدرًا مستحبًا، مما لا خلافَ فيه بين أهل العلم.

إذن: نحن نقولُ العلم المستحب في حقي وحقك وحقِ كلِّ فردٍ من حيثُ هو فرد، لكن في مجموع الأمة يجب أن يكون فيهم من يعلم ذلك، فإذا حصلت الكفاية بهم كان العلمُ بالنسبة لغيرهم قدْرًا مستحبًا.

القسم الثاني: هو العلم الدنيوي، وهذا يشمل كلَّ العلمِ الأخرىٰ المتعلقة بالصناعات وبمعايش الناس، وبأسباب تحصيل تلك المعايش، وهي علومٌ كثيرة تَنِدُّ عن الحصر، وهذه العلوم تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: هو العلم الدنيوي الواجب، وهذا هو العلم الذي تعلقت به مصلحة هذه الأمة من حيث معاشها أو سلامتها، فالعلم الذي يحصل به معاش الناس من حيثُ صحتهم في أبدانهم، من حيث توفر أسباب الحياة وعمارة الأرض بالنسبة لأمةِ الإسلام هذا قدرٌ واجب؛ حتىٰ تستقرَّ أحوالُ الناسِ في دنياهم، فلا يمكن قيامُ الدين إلا باستقرار الدنيا، أما لو كان حال الدنيا مضطربًا فإن ذلك لا شك أنه سيعود بالاضطرابِ علىٰ أمرِ الدين، والله ﷻ خلقنا لإقامةِ

هذا الدين، فكان تحصيلُ هذه العلوم التي يحتاجها الناس فيما يتعلق بأبدانهم كالطبِّ وكتحصيل أسباب الاقتصاد الشرعي، أو العلوم العسكرية أو ما شاكلَ ذلك مما به صلاحهم في معاشهم، أو ما به سلامتهم وقوتهم وهيبتهم أمام أعدائهم؛ هذا القدرُ لا شك أنه أمرٌ واجب، حتىٰ تستقِرَّ أحوالُ الناسِ في دينهم، ولكن تنبه يا رعاك اللهُ أن الوجوبَ الذي يذكرهُ العلماءُ هاهنا هو من الوجوب الكفائي، بمعنىٰ: لابد أن يكون في الأمة من يكون محصلًا لهذه الصناعات، وهذه العلوم تحصل بهم الكفاية، ثم بعد ذلك القدرُ الذي يزيد علىٰ ذلك يرجع إلىٰ حكم الإباحة، وهو القسم الثاني.

القسم الثاني: هو العلوم التي هي في أصلها نافعة مباحة لا محذور فيها، وكان تعلمها قدرًا زائدًا علىٰ حدِّ الوجوب الذي ذكرناه قبل قليل، يعني: الذي تشتد حاجة الأمةِ إليه، هذا القدرُ هو من العلوم المباحة، وإذا اقترن مع ذلك نيةٌ صالحة بالنسبة للمتعلم فإنه مثابٌ علىٰ ذلك، إذا نوىٰ في تعلمهِ هذه العلوم سواءً كان ذلك متعلقًا بطبٍ أو نجارةٍ أو عسكرية أو اقتصادٍ.. أو ما إلىٰ ذلك؛ نوىٰ بذلك نفع المسلمين وتحصيل الخير لأهلِ الإسلام ودفعِ أذىٰ أعدائه، فإن الإنسانَ مأجورٌ علىٰ ذلك بلا ريب.

القسم الثالث: العلوم المحرمة، وهذه العلوم إما أن تكون محرمةً في موضوعها، أو أنها وسيلةٌ للوقوع في المحرم، إذا كان موضوع العلم محرمًا كالسحر والكهانة والموسيقىٰ.. وما إلىٰ ذلك، فلا شك أن العلم بذلك محرم؛ لأن الشريعةَ كما تُحرمُ الشيءَ فإنها تُحرمُ أسبابَهُ ووسائله، وأدلةُ هذا كثيرةٌ في

الشريعة، أو أن يكون العلمُ في أصلهِ مباحًا، لكنه ذريعة ووسيلة للوصولِ إلىٰ ما حرم الله ﷻ، وبالتالي فيكون التعلمُ هاهنا تعلمًا محرمًا.

إذن: هذا هو تأصيلُ المسألةِ من حيثُ العلم.

نعودُ الآن إلىٰ ما ابتدأ الحديثُ به، ما العلم الذي جاء الحثُّ عليه والثناءُ علىٰ أهله، والأمر بتحصيلهِ ، لا شك أنه العلم الشرعي، العلم بربنا ﷻ من حيثُ أسماؤه وصفاتُهُ ونعوتُ جلالهِ وأفعالهُ، أو من حيثُ حقوقهُ علىٰ عباده، وحقُّ الله ﷻ أن يُعبدَ وحدَهُ لا شريك له، ومن حيث العلمُ بحدودِ ما أنزل علىٰ رسله عليهم الصلاة والسلام، هذا هو العلم الشرعي، فإذا نظرت في كتاب الله ﷻ فوجدتَ المدحَ والثناءَ والحثَّ علىٰ العلم فاعلم أنه هذا العلم، هو الذي أراد الله ﷻ في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ﴾ [فاطر:٢٨]، هو العلمُ الذي جاءَ في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾ [الزمر:٩]، هو العلم الذي مدحَ الله ﷻ أهله في قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:١٨].

إذن: هذه النصوص وما ماثلها إنما يُراد بها العلم الشرعي، وليس ما سواه، والدليل علىٰ هذا أن النبي ﷺ قال فيما خرَّجَ الترمذيُّ في «جامعه» بإسنادٍ حسن من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، في حديثٍ معلومٍ مشهورٍ عندكم: «من سلكَ طريقًا يلتمسُ فيه علمًا، سهل الله له به طريقًا إلىٰ الجنة»، الشاهدُ من هذا الحديث أن النبي ﷺ قال: «وإن العلماءَ ورثةُ الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذَ به فقد أخذَ بحظٍ وافر».

لاحظ يا رعاك الله أن (ال) في قوله ﷺ: «العلم» (ال) العهدية التي يُراد بها العلمُ المعهودُ في النصوص، في كتابه الله وسنة رسوله ﷺ؛ وذاك ولا شك إنما هو العلم الشرعي، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما ورثوا في الأمة الصناعات، ما ورثوا في الأمة العلوم الدنيوية، إنما ورثوا العلمَ الشرعي، ورثوا العلم بالله ﷻ، وورثوا العلمَ بدين الله ﷻ من جهة الأمر والنهي، والعلمَ بأمور المعاد.

والعلمُ أقسامٌ ثلاثٌ ما لها ... من رابعٍ والحقُ ذو تبيانِ
علمٌ بأوصافِ الإلهِ وفِعلهِ ... وكذلكَ الأسماءُ للرحمنِ

والأمر والنهي.. هذا الثاني

والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤهُ يومَ المعادِ الثاني

والكلُّ في القرآنِ والسننِ التي ... جاءت عن المبعوث بالفرقان



واللهِ ما قال امرؤٌ متحذلقٌ ... بِسواهما إلا من الهذيانِ

هذا هو العلم الشرعي الذي جاء المدحُ وجاءَ الثناءُ وجاء الحثُّ على تحصيله.

هل هذا التقرير يعني التزهيد في العلوم الدنيوية والأمر بانصراف الناس عنها؟

الجواب: لا، قد قدمنا قبل قليل أن هذه العلوم نافعةٌ ومباحةٌ وقد تكون واجبة، إنما المرادُ وضعُ الأمورِ في نصابها، وتفسير النصوص دونَ غلوٍ ودون جفاء، فحينما نتكلم بالعلم هكذا بالإطلاق في مقام المدحِ والثناءِ والأمر،

فلا ينبغي للإنسان أن يتخطىٰ الحدود الشرعية في هذا المقام، فالعلم هاهنا إنما يُراد به العلم الشرعي، والعلوم الدنيوية النافعة يُستدل عليها بأدلة أخرىٰ؛ تدل علىٰ نفعها، تدل علىٰ فضلها وإلىٰ آخره.

قال ﵀ في بيان ما هو هذا العلم الواجب.

قال: (**معرفة الله**) هذا الأمر الأول، وهو الأمر الأهم، وهو الأمر الأعظم، معرفةُ الله ﷻ لا شك أنها أهم العلوم علىٰ الإطلاق، ولا شك أنها أوجبُ العلوم علىٰ الإطلاق، ولا شك أنها أشرف العلومِ علىٰ الإطلاق، العلم -كما قالوا- بشرف المعلوم، والله ﷻ أشرف معلوم، فالعلم به أشرف العلوم، العلم بالله ﷻ هو الأهم، فمن عرف الله ﷻ عرف كل شيء، ومن جهل الله ﷻ فهو لما سواه أجهل، أي شيءٍ يستفيده الإنسان في حياته ويحصلهُ إذا كان جاهلًا بربه وخالقه ومدبره وإلهه ومعبوده ومحبوبه ﷻ، إذن هذا العلم أشرف العلوم علىٰ الإطلاق، وأوجبُ العلوم علىٰ الإطلاق، وأهمها علىٰ الإطلاق، وصاحبه قد حيزت له السعادة من أطرافها، كيف لا وكلُّ أبواب الخير إنما تُفتحُ لصاحب هذه المعرفة، من وفقه الله ﷻ إلىٰ العلم بالله ﷻ؛ إلىٰ العلم بأسمائه، إلىٰ العلم بصفاته، إلىٰ العلم بحقه علىٰ عباده، إلىٰ العلم بحدود ما أنزل علىٰ رسله عليهم الصلاة والسلام، فهذا لا شك أنه قد حاز خير الأمور علىٰ الإطلاق، وأفضل الأمور علىٰ الإطلاق، وهذا هو الإنسان الموفق السعيد، هذا القدر لا شك أنه قدرٌ واجب يجبُ أن يُحصله الإنسان، ويجبُ أن يسعىٰ في أن يصف نفسه به، أن يصف نفسه بالعلم بالله ﷻ، بل أن تكون الحياة كلُّ هذه الحياة ينبغي أن تكونَ

ساحةً للجدِّ والاجتهادِ في تحصيل هذه المعرفة، فالله ﷻ خلقكَ لتعرفَهُ، ثم أن تقوم بمقتضىٰ هذه المعرفة من عبادته ﷻ.

قال: (**معرفةُ الله، ومعرفةُ نبيه ﷺ**) هذا هو الأمر الثاني، هذا قدرٌ واجب؛ أن تعلم من يجبُ عليك العلمُ به بعد الله ﷻ، وهو نبينا الكريمُ محمدٌ ﷺ، وهو الذي هدانا الله ﷻ به من الضلالة إلىٰ الهداية، من الغواية إلىٰ نور الحق والإيمان، إنه نبينا محمدٌ ﷺ؛ الذي هو أحقُّ من وجب علينا محبته من البشر، هو أولىٰ وأحق وأوجب من يتعين علينا القيام بحقه من البشر؛ إنه النبي الكريم محمدٌ ﷺ، يجب علىٰ كل مسلم أن يعرفه عليه الصلاة والسلام من حيثُ اسمه ونسبه عليه الصلاة والسلام، ومن حيث سيرته وشمائله، ومن حيثُ دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام، وإذا كان هذا أمرًا لابد منه في كل عصرٍ ووقت، فإن هذا في هذا العصر المتأخر الذي نعيشه الذي تلاطمت فيه أمواجُ الفتن والشبهات أقول: إن هذا قدرٌ متعينٌ لا عذرَ فيه لأحد؛ وذلك لكثرة الشبهات التي تُثار علىٰ نبوة النبي عليه الصلاة والسلام من قبل أعداء الله ﷻ، وهي تنتشر انتشارًا واسعًا مع وجود هذه الوسائل الكثيرة للتواصل، فإن هذه الشبه أصبحت قريبة جدًا من الناس، إذن لابد من التسلح بالعلم الذي يُدرأ به في صدورِ هذه الشبه التي تطالُ نبوةَ نبينا الكريم محمدٍ ﷺ.

أما القسم الثالث من هذا العلم فهو (**معرفةُ دين الإسلام بالأدلة**)، والنبي ﷺ بينَ لنا أن هذا علامة الخير بالإنسان؛ تحصيل هذا العلم علامةُ خير، علامةٌ تدلُّ

علىٰ أن الله ﷻ أراد بمن حصَّلَ هـذا العلـم الخيـر، ألـيس النبـي ﷺ هـو القائـل: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين».

إذن: لابد من تعلم هذا الدين وقد علمتَ أن القدر الواجب منه هو ما يستقيم به اعتقادُك، وما يستقيم به عملُك، هذا القدر لابد ويجب العلم به.

ولاحظ هذا التنبيه من المؤلف ﵀ إلىٰ أن العلم بهذا الدين ينبغي أن يكون بالأدلة، بمعنىٰ أن تكون معرفتك لأحكام الشرع مقرونة بأدلتها الشرعية، والمؤلف ﵀ شديدُ العناية بتأصيل هذا الأمر، فهو يذكره ويكرره ويُطبقه لأجل أهميته، حتىٰ يبني الإنسان علمه وعمله علىٰ أساسٍ صحيح، بحيثُ لا ينطق ولا يخطو إلا بدليلٍ من كتاب الله وسنةِ رسولِهِ ﷺ؛ لأن السلامة كل السلامة في كتابِ الله وسنةِ رسوله ﷺ، ولذا تلحظ معي أن المؤلف ﵀ إذا أورد مسألة في هذه الرسالة وقس عليها كلامه في غير هذه الرسالة؛ تجدُ أنهُ يُقرر المسألة، ثم يقول: والدليلُ قوله تعالىٰ، والدليل قوله ﷺ؛ لِمَ ؟ حتىٰ يكون العلم علمًا صحيحًا مبينًا علىٰ أدلة الكتاب والسنة، هذا الذي يجب علىٰ كلم مسلم أن يبني دينه عليه؛ أن يكون متبعًا لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣]، وسيأتي الكلامُ مفصلًا عن هذه الأمور الثلاثة، هذا هو العلم، وهذا هو المراد بالقدر الذي يجب تعلمه علىٰ كلِّ مسلمٍ ومسلمة، ولا شك أن فضيلةَ هذا العلم فضيلةٌ عظيمة، وما أحسنَ ما قال الإمام الشافعي ﵀: (لا أعلمُ شيئًا بعد أداء الفرائض أفضل من العلم)،

بل قال ابن المبارك ﷺ: (لا أعلم شيئًا بعد النبوة أفضل من العلم)، أيُّ شيءٍ يفوقُ فضيلةَ العلمِ بالله وبرسوله ﷺ، وبدينه، العلم بأسمائه وصفاته ﷻ، وبالحلال والحرام الذي شرعهُ ﷻ لعباده، أو المعاد الذي ينتظر كلَّ إنسانٍ منا، أيُّ شيءٍ من العلوم تكونُ له فضيلة توازي هذا الأمر، ولذا تكاثر في النصوص الحثُّ علىٰ القيام بتحصيل هذا العلم وتكاثرَ في النصوص بيان الأدلة علىٰ هذا الأمر، ولو لم يكن من فضيلة لهذا العلم تُرشدُكَ إلىٰ أهميته إلا الأحاديث التي جاء فيها إخبارُ النبي ﷺ بثواب طلب العلم، وحضِّ طالب العلم، واللهِ يكفي هذا القدر، أليس النبي ﷺ هو القائل: «من سلك طريقًا يلتمسُ فيه علمًا سهَّلَ اللهُ له به طريقًا إلىٰ الجنة»؟ أليست الجنة هي الغاية التي يسعىٰ لها كلُّ إنسان؟ إذن دونك العلم، فإنه طريقٌ موصلٌ إلىٰ الجنة، أليس النبي ﷺ هو الذي يقول: «وإن العالم ليستغفرُ له كلُّ من في السموات والأرض حتىٰ الحيتان في البحر»؟ أيُّ فضيلة كهذه الفضيلة، وأنت قائم أو وأنتَ نائم تستغفر لك الأشياء، حتىٰ الحيتان في وسط البحر، قال هذا الذي لا ينطق عن الهوىٰ ﷺ، ألا يكفي في فضيلة العلم قول النبي ﷺ: «وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، ولكنهم ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر»؟

صدق من قال:

الْعِلْمُ أعْلَىٰ وَأَحْلَىٰ مَا لَهُ اسْتَمَعَتْ ... أُذُنٌ وَأَعْـرَبَ عَنْـهُ نَـاطِقٌ بِفَـمِ
الْعِلْـمُ غَايَتُـهُ الْقُصْـوىٰ وَرُتْبَتُـهُ ... الْعُلْيَـاء فَاسْـعَوْا إِلَيْـهِ يَـا ذَوِي الهِمَـمِ
الْعِلْـمُ يَـا صَـاحِ يَسْـتَغْفِرْ لِصَـاحِبِهِ ... أَهْـلُ السَّـمَوَاتِ وَالْأَرَضِـينَ مِـنْ لَمَـمِ

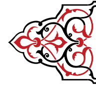
كَـذَاكَ تَسْـتَغْفِرُ الحِيتَـانُ فِـي لُجَـجٍ   مِـنَ البِحَـارِ لَـهُ فِـي الضـوءِ والظلـمِ
الْعِلْـمُ أَعْلَـىٰ حَيَـاةٍ لِلْعِبَـادِ كَمَـا   أَهْـلُ الجَهَالَـةِ أَمْـوَاتٌ بِجَهْلِهِـمِ
الْعِلْـمُ واللهِ مِيـرَاثُ النُّبُـوَةِ لَا   شَـيْءَ يُشْـبِهُهُ طُـوبَىٰ لِمُقْتَسِـمِ
وَخَـارِجٌ فِـي طِـلَابِ الْعِلْـمِ مُحْتَسِبًا   مُجَاهِـدٌ فِـي سَـبِيلِ اللهِ أَيُّ كَـمِ
يَـا طَالِـبَ الْعِلْـمِ لا تَبْغِـي بِـهِ بَـدَلًا   فَقَـدْ ظَفِـرْتَ وَرَبِّ اللَّـوْحِ وَالْقَلَـمِ

العلم الشرعي هذا النورُ المبين الذي يسير الإنسان في ضوئه في هذه الحياة بطمأنينة وسكينة، وطريقٍ واسعة رحبة سعيدة تقود صاحبها إلىٰ جنة الخلد، أيُّ شيءٍ من هذه الحياة ومغرياتها يصرف الإنسان عن هذا الفضل الكبير؟ ويعجب الإنسان أشدَّ العجب أن هذا الفضل الكبير وهذا الثناء العظيم زَهِدَ فيه كثيرٌ من الناس مع الأسف الشديد، حتىٰ إن القدر الذي لابد منه ضعف جدًا العنايةُ بتحصيله، ولذا تجدُ كثيرًا من الناس يصلون، لكنهم لا يعتنون بتعلمِ الصلاة، يصلون كيفما اتفق، كما رأىٰ الناس يصلون يصلي، وليس كما أمر النبي ﷺ في قوله: «صلوا كما رأيتموني أصلي»، تجدُ من يحرص علىٰ أن يصوم، لكنه لا يحرصُ علىٰ تعلمِ أحكام الشرع في الصيام؛ تجد أنه يُعطي من وقته ولو الشيء القليل حتىٰ يتعلم، فيصوم علىٰ هدىٰ ونور، تجدُ أن القليل يقوم بذلك، يحج لكنه يقع في أخطاءٍ كثيرة، والسبب أنه ما تعلم كيف يحج، لم يحجَّ كما حجَّ النبيُ ﷺ؛ الذي يقال: «خذوا عني مناسككم»، بل أعظم من ذلك وأشد أنك تجدُ من الناس من يقعُ في أخطاءٍ فادحة تَمَسُّ جناب التوحيد، والسبب أنه ما تعلم، عنده استعداد أن يقرأ كل شيء إلا العلم الشرعي، يمكن أن يجلس

الساعات، وهو يُقلب وسائل التواصل الاجتماعي، أو يكون في يده جهازُ التحكم فيُقلب القنوات ليل نهار عنده استعداد، وعنده جلد وعنده صبرٌ على ذلك، لكن أن يقرأ في كتابٍ يفقهه في دينه أو أن يأخذَ شيئًا من تفسير كتاب الله ﷻ فيتأمل ويتدبر في شيء ربما يتلوه من عشرات السنوات، لكنه ما عرف معناه، يقرأ ليل نهار: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ [الفلق: ١-٣]، ما معنى فلق، وغاسق ووقب، ربما يُكررها عشرات السنوات، لكن ما تحركَ في نفسه دافعٌ ولو مرة أن يبحث ويعرف ما معنى هذه الكلمات، مع أن هذا من القدر الواجب، واجبٌ علينا أن نتدبر كتاب الله، وهذا من الحكمة في إنزال كتاب الله: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ [ص:٢٩]، لِمَ؟ ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص:٢٩]، هذا قدرٌ واجب أن تتأمل كلام الله ﷻ، لكن الأمر كما أسلفتُ فيه تزهيدٌ مع الأسف الشديد، أُناسٌ يَزْهَدون في ذلك، يقرأ ويتعلم ويستمع، عنده استعداد يستمع لمقاطع و.. لكن أن يستمع لأحد العلماء؛ ليبين له الاعتقاد الصحيح، يبين له صفة صلاة النبي ﷺ، يبين له أحكام البيع التي يحتاج إلى تعلمها.. إلى غير ذلك، هذا مع الأسف الشديد فيه تقصيرٌ كبير.

إذن: هذا من الأمر المهم الذي ينبغي أن نتواصى به وأن نحرص عليه، وهو القيامُ بهذا الواجب، وهو العلم، معرفةُ الله، ومعرفةُ رسوله ﷺ، ومعرفةُ دين الإنسان بالأدلة.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:


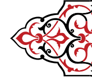
الثَّانية: العَمَلُ بِهِ.



الشَّرح

يتبعُ العلمَ العمل، وهذان أمران مقتران لا ينفعُ أحدهما دون صاحبه، علمٌ بلا عمل لا ينفع، وعملٌ بلا علمٍ لا ينفع، ولذا لما كان عند اليهود علمٌ بلا عمل كانوا من المغضوب عليهم، ولما كان عند النصارىٰ عملٌ بلا علم كانوا من الضالين، إذن من المهتدون؟ الذين جمعوا بين العلمِ والعمل، إذا علَّمكَ الله ﷻ الخير بقي عليك أن تقوم بزكاةِ هذا الخير، وهو العمل به، هذا من الأمر الذي لابد منه، وهو أن تعمَلَ بما علمك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إياه، العلم علىٰ فضله وقدره وأهميته، إلا أنه ليس مقصودًا لذاته، العلمُ مقصودٌ لغيره، العلمُ مقصودٌ للعمل، تعلم ولا يكفيك هذا القدر؛ لأجلِ أنك إنما أُمرتَ بالعلم لأجلِ أن تعمل بعد أن تعلم.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: 

الثالثة: الدعوةُ إليه.



الشَّرح

الدعوةُ إليه، الإسلام دينُ الرحمة، دينُ محبة، دينُ خير، الإسلام يُعلِّمُ أهله أن يَحرِصوا علىٰ أن ينجو وعلىٰ أن يكونوا سببًا في نجاةِ الآخرين، وهاهنا تظهرُ لك أهميةُ الدعوةِ إلىٰ الله ﷻ؛ الدعوةُ إلىٰ دينه، وإلىٰ شرعه، وهذا الأمرُ لا شك أنه واجبٌ علىٰ كلِّ أحد، واجبٌ علىٰ كلِّ مسلم، ليس مخصوصًا بأهل وظيفة معينة، أو أهلِ صفةٍ مخصوصة، أو حملةِ شهادات معينة، كلا، الواجب الدعوة إلىٰ الله ﷻ من كلِّ أحد، من الطائع ومن العاصي، حتىٰ العاصي يجب أن يدعو إلىٰ الله ﷻ، قال العلماء: لو اجتمع اثنان علىٰ معصيةٍ فإنه يجبُ علىٰ كلِّ واحدٍ منهما أن يدعو الآخر فيأمُرُه وينهاه، ولو تركَ ذلك لكان آثمًا من جهتين؛ من جهة المعصية ومن جهة تركِ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إذن: الدعوة إلىٰ الله ﷻ هذا قدرٌ واجبٌ لابد منه، لابد أن تدعو إلىٰ ما علمتَ من الحق، نعم يجبُ أن تدعو بشرطِ أن تكونَ تعلمُ الذي تدعو إليه، وهذا الموضعُ فيه تفصيل، بعض الناس يقول: العلمُ شرطٌ في الدعوة، وأنا لا أزال في بدايات الطلب، أفتجبُ عليَّ الدعوة؟ الجوابُ أن ارتباط العلمِ بالدعوة فيه تفصيل، فرقٌ بين المتصدِّرِ للدعوة، وبين من لم يكن كذلك، المتصدر للدعوة هذا ينبغي أن يحوزَ قدرًا من العلم الشرعي يؤهلهُ لهذا المنصب؛ لأنه في منصب التوجيه، وربما يكون في موطنِ الإفتاءِ أيضًا، إذن لابد من تحصيل قدرٍ

من العلم، أما ما كان دون ذلك، فهو أن يدعو الإنسانُ إلىٰ ما علِمَ من شرعِ الله ﷻ، علمَ معنىٰ: لا إله إلا الله، **إذن:** لابد أن يُعلِّمَ ذلك من يَجْهَلُه، تعلَّمَ الصلاة الصحيحة يُعلِّمُ ذلك، عَلِمَ أَخطاء يقعُ فيها الناس في اعتقادهم أو في سلوكهم يجبُ عليه أن يُعلّم ذلك من يجهلُهُ.

إذن: لابد من التفريق في هذا الموضع؛ لأن النبي ﷺ قال: «**بلغوا عني ولو آية**»، الآيةُ التي علمتها والحديث الذي فهمتهُ عليك أن تبلغهُ، فنفرقُ بين المقامين في هذه الجهة.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

الرابعة: الصبرُ على الأذى فيه.

الشَّرح

الصبرُ على الأذى فيه، يعني: في جنب الله ﷻ؛ لأجلهِ ﷻ؛ وذلك لأن من يدعو إلى الله ﷻ، من يأمر وينهى وينصح، فإن الأمرَ في الغالب يحصلُ معه أذية، والطريقُ طريقُ الدعوة طريقٌ فيه مشقة، أو كما يقولون ليس مفروشًا بالورود، ولذلك ربما يحصل ما يحصل من أذى، وهاهنا يحتاج المسلمُ الذي يدعو إلى الله ﷻ أن يُوطِّنَ نفَسَهُ على الصبر على هذا الأذى، حتى يفوزَ بالأجرِ العظيم، والصبرُ فضلُهُ عظيم، والنبي ﷺ أخبرَ أنه «ما أُعطي أحدٌ عطاءً خيرًا ولا أفضلَ من الصبر»، إذن: لابد أن توطنَ نفسك على أن تصبر عند الدعوة إلى الله ﷻ، بل أقول: إنه ينبغي أن توطنَ نفسك على الصبرِ في العلم والعمل، كما توطنَ نفسك على الصبر في الدعوة إلى الله ﷻ، وهذا من الأمر المهم الذي يحتاج بيانُهُ إلى تفصيل .

إنَّ عطف الصبر على الدعوة يبين لنا أن الدعوة إلى الله ﷻ والقيام بواجب النصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابد أن يكون معه صبر، هذا من الأدب المهم لهذا الواجب العظيم أن يكون قد صاحَب القائم بهذا الواجب صبر على أدائه، فإن واجب الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يستلزم علمًا قبله ورفقًا معه وصبرًا بعده، لا يمكن أن يقوم الإنسان بهذا الواجب كما ينبغي إلا إذا جمع هذه الأمور الثلاثة.

وشاهد القول إنما تعلق الآن في موضوع الصبر، والدعاة إلىٰ الله ﷻ أحوج الناس إلىٰ التسلح بهذا الخُلُق العظيم، ولذا أمر الله ﷻ سيد الدعاة نبينا الكريم محمدًا ﷺ بهذا الأمر فقال: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥]، فأولو العزم ما كانوا أولي العزم إلا لأنهم صبروا علىٰ شدائد الدعوة إلىٰ الله ﷻ.

وهكذا ينبغي أن يسير الدعاة إلىٰ الله ﷻ، فهم يدعون صابرين علىٰ ما يلاقون من شدائد الأمر والنهي والنصح وإبلاغ دين الله ﷻ، فإن من أشق الأشياء علىٰ النفوس: أن تترك مألوفاتها، لا سيما ما تعلَّق منها بجانب الاعتقاد، ولذا لربما صاحَب هذه الدعوة شيء من الملاسنة أو المخاشنة، أو ربما الأذىٰ، هاهنا ينبغي علىٰ الدعاة إلىٰ الله ﷻ أن يتحلوا بالصبر.

وقد قلت: إنه وإن كان الصبر يتجلىٰ بوضوح في مرتبة الدعوة إلىٰ الله ﷻ إلا أنه شيء ضروري لازم كذلك لمرتبة العلم ولمرتبة العمل، فلا يمكن أن يقوم الإنسان بهاتين المرتبتين حتىٰ يكون متسلحًا بالصبر، فالعلم وتحصيله كيف يتأتىٰ ما لم يكن الإنسان صابرًا مصابرًا، ولولا أن طلب العلم طريق شاق لكان الناس جميعًا علماء.

لولا المشقة ساد الناس كلهم

إذن: العلم يحتاج إلىٰ صبر؛ لأن طريق تحصيله طريق طويل وطريق فيه من الصعوبة ما فيه، لكن العجيب في ذلك أنها صعوبة مع حلاوة، صعوبة تحتاج إلىٰ صبر، وحلاوة تسهل هذه الشدة.

فلو قد ذُقْت من حلواه طعمًا لآثرت التعلم واجتهدت

إذن: طريق الطلب نعم طريق شاق وطويل ويحتاج إلىٰ ثبات ومصابرة، إلا أنه مع ذلك يسهله الله ﷻ علىٰ من كان صادقًا في التحصيل، فكلما قطع شوطًا في الطلب وجد من اللذة والحلاوة ما يدفعه إلىٰ مزيد من الاستمرار، ما يدفعه إلىٰ أن يتقدم إلىٰ الأمام في طريق طلب العلم حتىٰ يُحصّل مبتغاه.

يَا طَالِبَ الْعِلْمِ لَا تَبْغِي بِهِ بَدَلًا فقد ظفرت ورب اللوح والقلم
وقدِّس العلم واعرف قدر حرمته في القول والفعل والآداب فالتزم
واجهد بعزم قوي لا انثناء له لو يعلم المرء قدر العلم لم ينم

إذن: الصبر كما أنه يُحتاج إليه في الدعوة إلىٰ الله ﷻ فكذلك يُحتاج إليه في العلم، أن يصبر الإنسان لله ﷻ.

والأمر الثاني: الصبر علىٰ العمل، لا يمكن أن يتأتىٰ العمل علىٰ الوجه المطلوب إلا إذا تسلح العامل بالصبر، والعمل يحتاج إلىٰ صبر قبله وصبر أثناءه وصبر بعده، والصبر أساس في تحصيل هذا الواجب وهو العمل.

لابد من صبر قبل العمل علىٰ تعلُّم ما يريد أن يعمل حتىٰ لا يعبد الله علىٰ جهل، حتىٰ لا يعبد الله بالخرافة والبدعة، عليه أن يصبر حتىٰ يتعلم كيف يؤدي العبادة علىٰ الوجه المطلوب.

مشكلة كثير من الناس اليوم هي أنهم أصيبوا بداء العجلة، يريدون أن يؤدوا العبادة كيفما اتفق، ولذا قَلَّ منهم من يصبر علىٰ أن يتعلم العبادة التي يريد أن يؤديها علىٰ الوجه المطلوب، بحيث يفهمها بتفاصيلها، يعرف أركانها، يعرف

شروطها، يعرف واجباتها، يعرف سننها، يعرف القوادح التي تقدح فيها وربما أبطلتها، هذه أمور تحتاج إلىٰ صبر.

إذن: لابد في العمل من صبر قبله وهو أن يصبر علىٰ تعلم كيف يؤدي العمل الذي أمر الله ﷻ به، إذا كان يريد الصلاة، إذا كان يريد الطهارة، إذا كان يريد الصيام أو الزكاة أو الحج أو غير ذلك من الأمور؛ عليه أن يصبر حتىٰ يتعلم هذا الذي يريد أن يؤديه، وبالتالي يكون قد أداه علىٰ الوجه المطلوب.

إذا تأملنا في أوامر الشريعة تجد أنه لم يكن قط المطلوب من العبد أن يؤدي عبادة فحسب، إنما المطلوب أن يؤديها وفق ما شرع الله ﷻ.

انظر إلىٰ الصلاة، ماذا قال النبي ﷺ؟ «**صلوا**» أقال: كما رأيتم الناس يصلون؟ صلوا كما تعودتم؟ صلوا كيفما تيسر؟ أهكذا قال النبي ﷺ؟ الجواب: لا، النبي ﷺ قال: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**».

في الحج النبي ﷺ قال: «**خذوا عني مناسككم**»، **إذن:** لابد أن نؤدي هذه الأنساك وفق سنة النبي ﷺ، وقس علىٰ هذا جميع الأوامر التي أمر الله ﷻ بالقيام بها.

ثمة صبر أثناء العمل، وذلك يرجع إلى أمرين:

أولًا: أن يصبر علىٰ أداء العبادة علىٰ الوجه الذي يحبه الله ﷻ، علىٰ الوجه الذي سنَّه رسول الله ﷺ، وهذا يعيدنا إلىٰ ما ذكرته قبل قليل وهو أنه لا ينبغي أن يؤدي الإنسان العمل المأمور به شرعًا كيفما اتفق، يشعر كأنه هَمٌّ علىٰ ظهره

يريد أن يزيحه عنه، ولذا تجد بعض الناس يؤدي هذه العبادات هذه المأمورات -كما أسلفت- كيفما اتفق، لا يصبر علىٰ أن يعطي العمل حقه المطلوب شرعًا.

ثم أمر ثانٍ: عليه -أيضًا- أن يصبر علىٰ أن يُحضِر قلبه ليكون مراقبًا لله ﷻ في العمل ، العبادة متىٰ خَلَت من هذا الأمر فإنها تكون قليلة الأثر أو عديمة الأثر، ليس الشأن أن تعبد، الشأن أن تراقب من تعبد حين تعبد، لابد أن تكون محضرًا قلبك، ولذا أخبر النبي ﷺ أن الرجل يصلي وما يُكتب له من صلاته إلا نصفها، إلا ثلثها، إلا ربعها، حتىٰ قال: «إلا عُشْرها»، السبب: أن هؤلاء الذين يصلون ربما لا يكونون مستحضرين قلبهم يراقبون الله ﷻ أثناء عبادتهم، إنما يصلي الإنسان، جسدُه يؤدي عبادة لكن قلبه هائم في أودية أخرىٰ بعيدة عما هو فيه، وهذا أمر يُحتاج معه إلىٰ صبر ومصابرة، يحتاج الإنسان إلىٰ قَدْر كبير من أن يضبط خلجات نفسه وقلبَه بحيث لا ينصرف عن المقام الذي قام فيه عابدًا لله ﷻ.

إذن: هذا من الصبر أثناء العمل.

ثمة صبر بعد العمل، كيف يصبر الإنسان على شيء قد مضى وانقضى؟

والجواب عن هذا: أن هذا الصبر يكون عن شيئين يتعلقان بالعمل الذي سلف.

أولًا: أن يصبر نفسه عن أن يأتي بما يبطل ثواب العمل أو يضعفه، فإن المتقرر شرعًا أن السيئات المتأخرة قد تحبط ثواب الصالحات المتقدمة، لذا ينبغي أن نَعِي أن التأثير حاصل من الطرفين، كما أن الحسنات يبطلن السيئات ، كذلك السيئات يحبطن الحسنات، وهذا له أدلة كثيرة.

كما أن الله ﷻ قال: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ [هود:١١٤] كذلك قال ﷻ: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [محمد:٣٣] قال السلف رحمهم الله: بالمعاصي، فقد يكون للذنب المتأخر تأثيرًا علىٰ حسنة متقدمة. وهذا موضوع له أدلته وله آثار تشهد له.

المقصود: أن العامل ينبغي عليه أن يجعل هذا العمل الذي حصل منه ووقع منه أنه كرأس مالٍ هو بحاجة إلىٰ أن يحافظ عليه حتىٰ لا يذهب عنه ويضيع، وما أقل من يتنبه إلىٰ هذا الأمر، قليل من العاملين -مع الأسف الشديد- من يتنبه إلىٰ هذا الأمر.

الأمر الثاني من الصبر الذي يكون بعد العمل: هو أن يصبر عن التسميع بعمله، وهذا -أيضًا- شيء شاق علىٰ النفوس إلا التي قد طُوِّعت لله ﷻ، فإن النفوس تتشوف إلىٰ مدح الناس وثنائهم، إلىٰ أن يُكرَم ويُحمد علىٰ ما كان منه، ولذا ربما يكون من أشق الأشياء علىٰ نفسه أن يسكت وأن يصمُت عن شيء سبق منه من العمل، بل تجد أن نفسه تنازعه علىٰ أن يفصح بأعماله، بعباداته، بصالحاته التي كانت، ولذا تجده ربما تحدث بأحاديث يريد من خلالها أن يصل إلىٰ أنه البارحة قد صلىٰ في الليل، أو أمس يقول: كنت قائمًا، أو تصدقت بما يسر الله ﷻ. هذا أمر يُحتاج فيه إلىٰ صبر.

شتان بين ديوان العلن وديوان السر، كلما كنت كاتمًا عملك كان هذا أحفظ لأجرك، إلا ما جاءت الشريعة بإعلانه كصلاة الجماعة أو الحج أو ما شاكل ذلك، وإلا فالأصل هو أنك كما تكون حريصًا علىٰ أن تكتم سيئاتك وتستر

نفسك فكن -أيضًا- حريصًا علىٰ أن تكتم حسناتك، بحيث لو أنك تصدقت بيمينك تتمنىٰ لو أن شمالك لم تكن تعلم بذلك، كل ذلك دليل علىٰ إخلاصك لله ﷻ، وأنك إنما ترجو بعملك وجه الله ﷻ.

حذارِ من التسميع، فإن النبي ﷺ يقول: «من سمَّع سمَّع الله ﷻ به».

إذن: هذا أمر يُحتاج معه إلىٰ صبر بحيث يكتم ولا يُفْصح ما فَرَطَ منه وما كان منه من حسنات قدر إمكانه إلا لوجود مصلحة شرعية، وهذا موضوع ينبغي أن يوغل الإنسان فيه برفق.

إذن: تجلىٰ لنا أن الصبر -وهو الأمر الرابع- لابد منه في الأمور التي سبقت جميعًا، إذا كان يجب علينا أن نتعلم أنه لابد من العلم والعمل والدعوة إذن لابد أن نعرف أن الصبر أمر مصاحب لهذه الأمور الثلاثة، وبذا يكون الإنسان قائمًا بها علىٰ الوجه الذي يحبه الله ﷻ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر:١-٣].

الشَّرح

استدل المؤلف ﵀ علىٰ هذه الأمور التي مضت بسورة عظيمة وهي: سورة العصر، ولاحظ -يا رعاك الله- كيف يسعىٰ المؤلف ﵀ علىٰ أن يربِّيَ طلاب العلم علىٰ طلب الدليل، فهو حينما يقرر تجد أنه يتبع ذلك بقوله: والدليل قوله تعالىٰ. إذن: لا يمكن أن نقبل شيئًا في دين الله ﷻ ما لم يكن عليه ختمُ النبوة، ما لم يكن عليه أثارة من علم، آية من كتاب أو حديث من حديث رسول الله ﷺ، مهما أتاك الآتون، مهما قدم لك المقدمون شيئًا من الدين يُعتقد أو يُقال أو يُفعل ولم يكن عليه دليل من الكتاب والسنة فقل: لا حاجة لي به؛ لأن دين الله ﷻ كامل، ليس بحاجة إلىٰ زيادة، ليس بحاجة إلىٰ أن يُكمَّل، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣].

إذن: في كل صغير وفي كل كبير ينبغي أن تكون حريصًا علىٰ أن تعمل وفق الدليل، حتىٰ قال بعض السلف: لو استطعت أن لا تحك رأسك إلا بأثر فافعل. حتىٰ حَكُّ الرأس، وهذا كان منه علىٰ سبيل المبالغة، يقول: إن استطعت أن لا تفعل هذا الفعل إلا وعندك أثر عليه فافعل.

إذن: هكذا ينبغي أن نعوِّد أنفسنا ، أن نقيد أنفسنا بقيد الدليل، فلا نقبل شيئًا يتعلق بمسألة شرعية إلا وعليه برهان وعليه سلطان، وعليه دليل، والدليل آية من كتاب الله أو حديث صحيح عن رسول الله ﷺ.

قال المؤلف رحمه الله: الدليل علىٰ وجوب تعلُّم الأمور الأربعة: العلم والعمل والدعوة والصبر: آية سورة العصر، قال الله ﷻ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [العصر:١-٣].

لاحظ يا رعاك الله أنه قد جاء في سورة العصر هذه الأمور الأربعة، فهي تقابل الأمور الأربعة التي ذكرها المؤلف رحمه الله.

فذكر أولًا هو العلم، وقابَلَ هذه المرتبة في هذه السورة قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [العصر:٣] فما وجه ذلك؟ قال العلماء: قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [العصر:٣] يدل علىٰ مرتبة العلم بدلالة اللزوم، ذلك أن لازم العلم الإيمان، والإيمان مستلزَمٌ للعلم، وهذا كلام صحيح متجه، وذلك أنه لا يمكن أن يَحْصُلَ الإيمان إلا بعلم، أيمكن أن يعقد الإنسان قلبه علىٰ شيء، أن يصدق ويُقِرَّ، يعني: يؤمن بشيء يجهله؟ إذن: لابد في الإيمان من العلم، فكانت مرتبة العلم هي التي يُقابلها قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [العصر:٣] وذلك كما أسلفت؛ لأن الإيمان لازم للعلم، لأن الإيمان مُسْتَلزَمٌ للعلم، والعلم لازمه الإيمان.

المرتبة الثانية عند المؤلف رحمه الله قال: العمل، ويقابلها من السورة قوله تعالىٰ: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر:٣]، وهذا بيِّن ظاهر.

والمرتبة الثالثة: الدعوة إلىٰ الله ﷻ، يقابلها في الآية قوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾ [العصر:٣].

والصبر يقابله: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [العصر:٣].

إذن: السورة دلت علىٰ هذه المراتب الأربع: العلم، والعمل، والدعوة، والصبر.

هذه السورة سورة عظيمة، فوائدها كثيرة، لكنَّ المقام لا يسمح ببسط الكلام فيها، لكن أشير هاهنا إلىٰ ما لابد من التنبيه عليه.

أولًا: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١﴾ [العصر:١] والواو هاهنا واو القسم، **إذن:** أقسم الله ﷻ بالعصر.

واختلف المفسرون في العصر ما هو؟ أهو الزمان، يعني: الدهر، أو هو وقت العصر؟ أو هو صلاة العصر؟ ثلاثة أقوال لأهل التفسير، والأول قول الأكثر، وهو الأرجح، والله ﷻ أعلم.

فالله ﷻ أقسم هاهنا بالعصر، وتنبه -يا رعاك الله- إلىٰ أن الله ﷻ قد أقسم هاهنا بشيء من مخلوقاته، وهذا مما يختص به ﷻ، فالله ﷻ يقسم بما شاء، أما المخلوق فليس له أن يقسم إلا بالله ﷻ.

الحلِف، القَسَم تعظيم، لذا لا يكون إلا بالعظيم ﷻ، وعليه فإن من حلف بغير الله ﷻ قد وضع التعظيم في غير محله، فيكون قد أخطأ خطئًا فادحًا، ولذا جاءت الشريعة بالحد الواضح في هذا المقام وهو: إما أن تحلف بالله أو تسكت

فلا تحلف، قال ﷺ كما في «الصحيح»: «من كان حالفًا فليحلف» وقوله: «فليحلف» صيغة أمر، والأمر يقتضي الوجوب، هذا قاله الذي لا ينطق عن الهوىٰ ﷺ، قال: «من كان حالفًا فليحلف» بما شاء؟ بأي شيء يخطر علىٰ باله؟ لا. قال ﷺ: «من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمُت»، ليس هناك خيار ثالث، أمامك أمران: إما أن تحلف بالله أو تسكت فلا تحلف، أما أن تحلف بغير الله ولو كان حبيبًا إلىٰ قلبك، ولو كان عظيمًا عندك وفي حقيقة الحال سوىٰ الله ﷻ فالجواب: واللهِ إن هذا لا يجوز، هذا حديث رسول الله ﷺ مروي في أصح الكتب، فإن كنت مؤمنًا بنبيك ﷺ -يا عبد الله- إذن عليك أن تلتزم بأمره عليه الصلاة والسلام، فلا يجوز لك أن تحلف إلا بالله، لا يجوز لك أن تحلف بحياة أحد، فلا تقل: وحياتك، لا يجوز لك أن تحلف بالكعبة فتقول: والكعبة، لا يجوز لك أن تحلف بالأمانة فتقول: بالأمانة، بل لا يجوز أن تحلف حتىٰ بالنبي ﷺ فتقول: والنبي ، وواللهِ ثم واللهِ إني لأعتقد -وأنتم تشاركوني في هذا الاعتقاد- أن النبي ﷺ لو سمع أحدًا يحلف به لغضب عليه الصلاة والسلام من ذلك، كيف لا يكون ذلك وهذا الحالف قد خالف أمره عليه الصلاة والسلام، فهو الذي قد قال -كما سمعت-: «من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمُت»، بل قال عليه الصلاة والسلام كما عند أحمد في «المسند» بإسناد صحيح: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك».

إذن: المقام ليس سهلًا، ليست المسألة ترجع إلىٰ كراهة تنزيهية، بل حتىٰ إلىٰ معصية، كلا! المقام وصل إلىٰ ما هو أشد من ذلك وهو: الكفر والشرك، «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك».

المقصود: أن النبي ﷺ قد أمر وحث علىٰ الحلف بالله ﷻ فحسب ونهىٰ عن الحلف بغيره، فمن كان صادقًا في اتباعه عليه الصلاة والسلام فليلزم نهجه وأمره وسنته عليه الصلاة والسلام.

يقول الله ﷻ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر:١-٢] (الإنسان) هاهنا اسم جنس، كأنه قال: الناس. **إذن:** هذا اللفظ يدل علىٰ العموم، كل إنسان، بدليل الاستثناء الذي جاء بعده، قال الأصوليون: الاستثناء معيار العموم.

إذن: حَكَمَ الله ﷻ بأنَّ جميع الناس في خسارة، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر:٢]، ثم استثنىٰ الله ﷻ، استثنىٰ من اتصف بهذه الصفات الأربع التي سبقت: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر:٣].

ولاحظ -يا رعاك الله- أنَّ الوارد في هذه السورة عموم بعده خصوص، قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر:٣] ثم عطف: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أليس عمل الصالحات من الإيمان؟ الجواب: بلىٰ، لأنَّ قاعدة أهل السنة المبنية علىٰ عشرات الأدلة وربما مئات الأدلة: **أن الإيمان شرعًا حقيقة مركبة من ثلاثة أشياء، ما هي؟**

١) قول اللسان.

٢) اعتقاد القلب.

٣) عمل الجوارح.

إذن: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ داخل في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فهل هذه الآية تخالف أو تناقض ما تقرر في معتقد أهل السنة من أن العمل داخل في

الإيمان؟ قد يقول بعض الناس: نعم، هذه الآية دليل علىٰ أن الأعمال الصالحة ليست إيمانًا، لأنه قد جاء العطف بالواو، والعطف يقتضي المغايرة، **إذن:** العمل شيء والإيمان شيء آخر.

وهذا التقرير غير صحيح، ولا يُسلَّم بأن كل عطف يقتضي المغايرة، العطف قد يقتضي المغايرة كما قال ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [النحل:٣] فالسماوات شيء والأرض شيء آخر، ثمة مغايرة، لكن قد يكون العطف من باب عطف البعض علىٰ الكل، أو عطف الخاص علىٰ العام.

ما رأيك في قول الله ﷻ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨]، أيقول قائل: إنَّ الصلاة الوسطىٰ ليست من الصلوات؟ لا تدخل في قوله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ [البقرة:٢٣٨]؟ الجواب: لا يقول بهذا أحد.

إذن: الصلاة الوسطىٰ من الصلاة، فلم يكن العطف هاهنا من باب عطف المغايرة، إنما هذا من باب عطف الخاص علىٰ العام، كذلك الشأن في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر:٣].

قال: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ٣﴾ [العصر:٣].

إذن: هذه هي السورة وهذه هي الخلاصة أنها قد دلت علىٰ أن النجاة معلَّقة بتحقيق المراتب الأربع التي أشار إليها المؤلف ؒ، فالنجاة من الخسارة في الدنيا والآخرة ليست إلا لهؤلاء الذين حققوا الأمور الأربعة، ولذا من فقدها جميعًا فلا شك أنه قد حصل له الخسارة مطلقًا، وأما من حصل منه تقصير فيها

فإنه قد يكون له بعض خسارة، أو مطلق الخسارة، أما الخسارة المطلقة فإنها للذين فقدوها، عياذاً بالله! وهذا حال الكفار. نسأل الله السلامة والعافية!

أما أهل الكبائر الذين كان منهم تقصير في شيء منها فإن ذلك الإنسان الذي يكون منه شيء من هذا التقصير هو بين عفو الله ﷻ فيسلم من الخسارة، أو أن يعاقَب فيكون له شيء من الخسارة لكنها ليست الخسارة المطلقة، والله ﷻ أعلم.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: (لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَىٰ خَلْقِهِ إلا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ).

الشَّرح

الإمام الشافعي محمد بن إدريس، أحد أئمة الإسلام الأعلام، أحد الأئمة الأربعة وأقربهم نسبًا إلىٰ رسول الله ﷺ، فإنه مطَّلبي قرشي، ولد سنة خمسين ومائة، وتوفي سنة أربع ومائتين، عليه رحمة الله الواسعة.

هذا الإمام الجيل قال كلمة مهمة تتعلق بهذه السورة العظيمة، قال: لو ما أنزل الله حجة علىٰ عباده إلا هذه السورة لكفتهم.

وقد تتبعتُ بعض كلام أهل العلم وكتبهم في هذا الأثر عن الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ فوجدت ألفاظًا متقاربة، منها ما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: (لوما أنزل الله حجة علىٰ عباده إلا هذه السورة لكفتهم).

وبعض العلماء يذكرون هذا الأثر بلفظ آخر كما فعل ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في «تفسيره»، قال: (لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم) ، ارجع إلىٰ تفسير ابن كثير عند تفسيره سورة العصر.

وثمة لفظ ثالث وهو ما نقله شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في «الاستقامة»، وكذلك تلميذه في غير واحد من كتبه، كـ«التبيان» و«مفتاح دار السعادة» وكذلك في «إغاثة اللهفان»، قال: (لو فكر الناس في هذه السورة لكفتهم).

ووجدت كلمة لطيفة -أيضًا- عن الشافعي تتعلق بهذه السورة ذكرها النووي رحمه الله في «مقدمة المجموع»، قال: (الناس في غفلة عن هذه السورة).

مهما يكن من شيء فهذه كلمة لطيفة ومفيدة ترشدك إلىٰ أهمية العناية بالتدبر والتفكر في هذه السورة العظيمة.

قد يقول قائل: كيف تكون هذه السورة التي هي قليلة الآيات والكلمات كافية للناس، بحيث تكون الحجة قائمة عليهم بها، تكفيهم عما سواها؟

والجواب: أن كلام الإمام الشافعي رحمه الله كلام دقيق، كلام الأئمة السابقين كلام يتميز بالقلة والدقة، فيُحتاج إلىٰ شيء من التريُّث في التعامل مع كلماتهم.

الإمام الشافعي رحمه الله يريد أن يبين لنا أن هذه السورة علىٰ وجازتها تدل علىٰ جميع حقائق الدين: إما بدلالة المطابقة، أو دلالة التضمن، أو دلالة اللزوم ، مَن أنعم النظر في هذه السورة وتأملها حق التأمل، وأعطاها ما تستحق من التدبر فإنه سيصل إلىٰ فهم حقائق الدين لا من دلالة المطابقة فحسب، وإنما -أيضًا- بدلالة التضمن ودلالة اللزوم، فهذه السورة تعطي قارئها والمتأمل فيها قدرًا عظيمًا من العلم، لكن الشأن من الذي يغوص بحار العلم فيها؟ من الذي يُعطىٰ من التوفيق والهداية والنور بحيث يمكنه أن يتأملها ويتدبرها؟

كثير من الناس -مع الأسف الشديد- علىٰ ما قال رحمه الله: (الناس في غفلة عن هذه السورة). مع أنَّ واللهِ إن قدرها لعظيم، حتىٰ إن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم كانوا يعطون هذه السورة قدرها، لأنهم فهموا عظيم العلم والوصية الموجودة فيها.

ولذا أخرج الطبراني في «الأوسط» والبيهقي في «الشعب» وغيرهما عن أبي مدينة الدارمي رضي الله عنه -وهو أحد أصحاب النبي ﷺ، اسمه: عبد الله بن حفص له صحبة- يقول: كان الرجلان من أصحاب النبي ﷺ إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على صاحبه: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [العصر:١-٣] ثم يسلم أحدهما على الآخر. هذا السلام سلام الختام، ليس سلام اللقاء، سلام انقضاء اللقاء الذي أكثر الناس في غفلة عنه، يسلمون إذا التقوا ولا يسلمون إذا افترقوا، وهذا مخالف للسنة، فليس السلام الأول بأولى من الآخِر.

المقصود: أن أصحاب النبي ﷺ -كما يصف ذلك أبو مدينة رضي الله عنه، وهذا الأثر أثر صحيح- كان إذا التقى أحدهما أخاه لم يتفرقا حتى يُذكِّرَ أحدهما الآخر بهذه السورة.

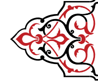
تذكرك -يا عبد الله- هذه السورة بأن هناك خسارة، وأن هناك نجاة، فعليك أن تتنبه أين تضع قدمك، إلى أي طريق تسير، كل يوم وكل ساعة أنت فيها بحاجة إلى أن تتذكر ذلك، لأن الله سبحانه وتعالى خلقنا ابتلاءً وامتحانًا، ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾ [هود:٧]، ما خلقنا الله عز وجل لطعام، ولا خلقنا الله لشراب، ولا خلقنا الله لشهادات، ولا خلقنا الله لوظائف، ولا خلقنا الله لزواج، ولا خلقنا الله لتجارة، ولا خلقنا الله لشيء من هذه الدنيا، كل تلك أمور ثانوية تبعية، إن لم تكن معينة لتحقيق الأصل الذي لأجله خلقنا الله وإلا فإنَّها وبال على صاحبها.

خلقنا الله ﷻ لطاعته وأداء حقه علينا، هذه السورة تذكرك بهذه الحقيقة التي ربما مشاغل الدنيا وشهواتها وازدحامها وصخبها ربما ينسي الإنسان ذلك، **إذن:** هو بحاجة إلىٰ أن يتذكر هذا الأمر، وهذا ما يكون من الأخ الصادق، أخوك الصادق الذي تنفعك صداقته وتنفعك أخوَّته هو الذي لا يزال يذكرك بهذه الحقيقة، ثمة خسارة وثمة نجاة، فإلىٰ أي طرف تريد أن تكون؟ هل أنت من الخاسرين الذين هم الغالب علىٰ الناس، ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف:١٠٣]، أم أنت من الثُّلة الذين يصطفيهم الله ﷻ فينالون كرامته، يكونون من الناجين؟

إذن: هذا يدلك -يا رعاك الله- علىٰ أنها سورة عظيمة.

إذن: قف عندها ولا تعجل، إذا قرأتها في صلاتك، إذا قرأتها خارج صلاتك أعط نفسك حظها من التأمل والتدبر لهذه السورة لعل الله ﷻ أن ينفعك بها.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: 

وَقَالَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: «بَابٌ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩]، فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ» قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ.

الشَّرح

استشهد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بعد كلام الشافعي بكلام البخاري رحمة الله عليهما.

والإمام البخاري هو الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي مولاهم البخاري، المولود سنة أربع وتسعين ومائة، والمتوفىٰ سنة ست وخمسين ومائتين، عليه رحمة الله. وهو الإمام العَلَم المشهور، صاحب كتاب الصحيح، صحيح البخاري الذي هو أشهر من نار علىٰ علم، والذي هو أصح كتب حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ الإطلاق.

يقول هذا الإمام الجليل: (بابٌ)، وهذا مصطلح يستعمله رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه للفصل بين مباحثه، قال: (بَابٌ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَالدَّلِيلُ) لا يزال الإمام الجليل البخاري والإمام محمد عبد الوهاب وإخوانهما من العلماء يذكروننا دائمًا بالمنهج الرشيد وهو: طلب الدليل، عدم قبول شيء عارٍ عن الدليل.

قال: (وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد:١٩]) بدأ بالعلم ثم أتبع ذلك بالعمل بمقتضىٰ العلم فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾.

إذن: لابد أن يكون العلم قبل العمل، وهذا ينبغي أن يكون من القواعد التي يضعها الإنسان نصب عينيه، لو استطاع أن يعلِّق هذه الكلمة بحيث يراها دائمًا ويتذكرها باستمرار لم يكن هذا شيئًا كثيرًا، دائمًا يذكر نفسه أن العلم قبل القول والعمل، لابد أن تتعلم العلم الصحيح، العلم المبني علىٰ دلالات الكتاب والسنة قبل أن تقول أو تعمل، العلم قبل القول والعمل.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّه يَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، تَعَلُّمُ ثَلاثِ هَذِهِ المَسَائِل، والْعَمَلُ بِهِنَّ:

الأُولَىٰ: أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا، بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا، فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ.

الشَّرح

انتهىٰ الأمر الأول من المقدمة وهو: التنبيه علىٰ أربع مسائل، ثم عطف المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ ذلك بالتنبيه علىٰ ثلاث مسائل، فكان المجموع سبع مسائل، هذه يقول لنا المؤلف: إنه يجب علىٰ كل مسلم ومسلمة أن يتعلمها، عندنا سبع مسائل لابد أن نتعلمها، مضىٰ منها أربع وبقي عندنا ثلاث مسائل.

هذه المسائل الثلاث تختلف عن سابقتها من جهة أنها أخص من السابق، المسائل السابقة مسائل عامة، أما هذه فهي أخص، فانتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الكلام العام إلىٰ الكلام الأخص.

هذه الأمور الثلاثة يجب علىٰ كل مسلم ومسلمة أن يتعلمها وأن يعمل بها، وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لأنك إذا تأملتها -يا رعاك الله- وجدت أنَّها أصل الدين، أصل الدين وحقيقة الإيمان ترجع إلىٰ هذه الأمور التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولو أنَّ المسلمين وضعوها نصب أعينهم لكان الحال غير الحال، لاختفت كثير من مظاهر الشرك والابتداع والمخالفة لسنة النبي ﷺ من حياتهم، والله المستعان!

أولى تلك المسائل: (أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملًا). الله ﷻ هو الخالق وحده، ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر:٦٢]، قال تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأنعام:١٠١].

لا موجود إلا اثنان: خالق ومخلوق، والله ﷻ وحده الخالق، فكل ما سواه فهو مخلوق خلقه الله ﷻ بعد أن لم يكن.

وهو الرازق ﷻ، وهو الرزَّاق ﷻ، والرَّزْق وصْفُه ﷻ، الرَّزق -بالفتح- صفته، والرِّزق -بالكسر- المرزوق المفعول، الرَّزْق فعله، والرِّزْق مفعوله، فالرَّزْق منه ﷻ، هو الذي يرزق ﷻ إذا شاء، ولا أحد يرزق في هذا الملكوت في هذا الوجود إلا هو ﷻ.

هذا الخالق العظيم خلق الخلْق، خلقنا، أحيانا، رزقنا، دبَّر أمورنا، كل ذلك لم يكن سدىٰ، لم يجعلنا الله ﷻ هملًا في هذه الحياة، ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦﴾ [القيامة:٣٦]، ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦] يتنزه الله عن هذا الأمر، هذا عبث يُنزَّه الله ﷻ عنه.

إذن: هذا دليل علىٰ أن لله ﷻ حكمة بالغة من خَلْق الخلق، وهكذا الشأن في كل ما يكون منه ﷻ من فعل أو تقدير أو شرع، كل ذلك راجع إلىٰ حكمة يحبها ﷻ، ولأجلها خلق، ولأجلها أحيا، ولأجلها أمر، ولأجلها قدَّر ﷻ.

وهذه الحكمة حكمة بالغة، هي الحق الذي لأجله سبحانه خلق الخلق، وهذا الحق يرجع إلىٰ غاية مرادة من العباد وغاية مرادة بالعباد.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّه يَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، تَعَلُّمُ ثلاث هَذِهِ المَسَائِل، والْعَمَلُ بِهِنَّ:

الأُولَىٰ: أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا، بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا، فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل:١٥-١٦].

الشَّـرح

المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قدَّم في المقدمة الثانية بأمر المسلم أن يعلم هذه المسائل الثلاث، وحُقَّ لهذه المسائل أن تُعلَم، فإنها من أصول الدين ومن عُمَدِه، هذا قَدْر لابد أن يعلمه كل مسلم وكل مسلمة.

أما المسألة الأولى: فهي أن الله تعالى خلقنا ورزقنا، فهو الخالق وحده، وهو الرازق وحده، فلا أحد يخلق أو يرزق إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولم يتركنا هملًا لا نُؤمَر ولا نُنهى؛ فإن هذا يتنافى وكمال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة:٣٦]، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون:١١٥] بيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن هذا لا يليق بالله سبحانه فنزَّه نفسه عنه فقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٦].

ولاحظ -يا رعاك الله- كيف أنه جيء هاهنا باسميه الكريمين: المَلِك

والحق، فإن الله ﷻ هو المَلِك، والمَلِك هو الذي يتصرف بفعله وأمره، وكونه يخلق هذا الخلق بلا سبب ولا حكمة ولا غاية شيء يتنافىٰ وكمال مُلْك الله ﷻ، فكونه المَلِك الذي له كمال المُلْك وتمامه ﷻ يقتضي أن يكون خَلْقه هذا الخلق له حكمة بالغة.

كذلك جيء باسمه تعالىٰ الحق، فالله ﷻ هو الحق، ووعده حق، وأمره حق، وخَلْقه حق، وهذا الحق من لازمه أن تكون لأفعاله ﷻ حكمة بالغة، ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [المؤمنون:١١٦]، هذا يتنافىٰ وكونه الحق ﷻ.

كذلك في قوله تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة:٣٦] كيف يظن هذا الظن وقد خلقه الله ﷻ هذا الخلق العجيب؟ أكان كل ذلك بلا هدف ولا غاية؟ ولاحظ كيف عقَّب ﷻ علىٰ هذا بقوله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [القيامة:٣٧-٣٨]، أفبعد هذا يُظن أن الله ﷻ يخلق الخلق بلا غاية ولا حكمة؟ الله الذي لطف بعبده ﷻ وربَّاه ﷻ من طور إلىٰ طور حتىٰ اكتمل خلقه فصار إنسانًا سويًا، أيليق بحكمته ﷻ بعد أن يخرج إلىٰ هذه الحياة أن يتركه هكذا هملًا؟ لا يؤمر ولا يُنهىٰ، ولا يكون لخلقه حكمة؟ أفهذا يليق بالحكيم ﷻ؟ كلا ورب السماء! من ظن هذا في الله ﷻ فقد ظن به غير الحق، والله هو الحق، والله ﷻ بيَّن أنه خلق السماوات والأرض بالحق.

وقال سبحانه: ﴿مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان:٣٩]، قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص:٢٧]،

هؤلاء الذين يعتقدون أن هذه الحياة ليست فيها إلا أرحام تدفع وأرض تبلع، وليس شيء سوىٰ ذلك، هذا ظن السوء بالله جل وعلا، ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران:١٥٤]، ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١].

والله ما قدر الله حق قدره من ظن أن الله سبحانه يكوِّن هذا الكون، ويخلق هذه المخلوقات، ويبدع هذا الإبداع العظيم، ويتقن صنعه سبحانه وتعالى ثم بعد ذلك لا شيء، يوجد الناس ثم يموتون وينتهي كل شيء، هذا لا يليق بالحكيم سبحانه وتعالى.

أما أهل الإيمان فإنهم إذا تأملوا في أنفسهم وفي هذا الكون أرشدهم ذلك إلىٰ الحكمة البالغة ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران:١٩١]، هكذا ترشدهم آياته سبحانه المرئية في أنفسهم وفي هذا الملكوت أن ثمة حكمة وثمة غاية هي الحق الذي لأجله خلق الله السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما.

وقد علمنا فيما مضىٰ أن هذه الحكمة هي الحق، ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية:٢٢]، وهذا الحق يتضمن -كما علمنا- أمرين: يتضمن غاية مرادة من العباد، وغاية مرادة بالعباد.

أمَّا الغاية المرادة من العباد: فمعرفته سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته ثم القيام بمقتضىٰ هذه المعرفة من العبودية لله سبحانه وتعالى، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ﴾ [الطلاق:١٢]، ولاحظ أن اللام هاهنا تسمىٰ عند علماء اللغة: لام التعليل، لام الحكمة، لام الغاية، ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق:١٢].

إذا عرفوا الله ﷻ بأسمائه وصفاته وما ذكره ﷻ في هذه الآية لازِمُهُ أن يعرف الإنسان بقية الأسماء والصفات؛ لأن صفات الله ﷻ يدل بعضها بعضًا بدلالة اللزوم.

إذا علم الإنسان صفات الله ﷻ وما هو عليه ﷻ من الجلال والجمال والكمال -تبارك ربنا وعز- يتبع هذا أن يقوم العبد بالعبودية لله وحده لا شريك له، وهذا ما بيَّنه ﷻ في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦].

إذن: القيام بالعبودية لله سبحانه هي الغاية من خلق هذا الخلق، هذا المراد منهم، وبعد ذلك تكون الغاية المرادة بهم وهي جزاؤهم بالفضل والعدل.

أما الفضل فهو جزاء المحسنين علىٰ إحسانهم، فيجازيهم الله ﷻ بفضله، وأما جزاؤه بالعدل فهو جزاء الكافرين الذين صدفوا عن الحق، وأعرضوا عن الله، وعارضوا دين الله، هؤلاء يجازيهم الله سبحانه بعدله، ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس:٤].

إذن: الله ﷻ خلق هذا الخلق وأرسل إليهم الرسل ثم بعد ذلك يتولىٰ الله ﷻ حسابهم، ولأجل هذا ولأجل تحقيق ما أراد الله ﷻ من هذا الذي أحبه وأراده إرادة شرعية ﷻ وهو أن يُعبد وأن يُعرف، وأن يقوم العباد بعبادته ﷻ؛ أرسل إليهم رسلًا، هؤلاء الرسل بشر من البشر لكنهم أفضل البشر،

اختارهم الله ﷻ واصطفاهم علىٰ علم، فالله سبحانه اختارهم وهو يعلم أنهم أهلٌ لحمل هذه الأمانة ونيل هذه الرتبة المنيفة.

وهؤلاء الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وظيفتهم تتلخص في ثلاثة أمور:

أولًا: أن يُعرِّفوا العباد بربهم وإلههم ومعبودهم ﷻ.

ثم أن يُعرِّفوا العباد بمحبوباته ﷻ ومساخطه، وهي الأوامر والنواهي، كيف يصلون -أعني: العباد- إلىٰ ربهم ﷻ وإلىٰ مرضاته لابد أن يفعلوا ما يحب وأن يتركوا ما يبغض، فيعرِّفونهم الأوامر والنواهي.

ثم أنْ يعرِّفوا العباد بالجزاء، من أطاع ماذا ينال، ومن عصىٰ ماذا ينال، يعرِّفون العباد بأن جزاء المطيع: النعيم وجنة الرحمن، وأن من عصىٰ فله الغضب والعذاب والنيران.

هذا ما تتلخص فيه وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

الله ﷻ خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملًا، بل أرسل إلينا رسولًا هو النبي محمد ﷺ، وسيأتي معنا الكلام عنه ﷺ حينما يتكلم عن أصل معرفة النبي محمد ﷺ فيما يأتي من هذه الرسالة.

قال: (فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ)، من أطاع النبي ﷺ، آمن به واستجاب لأمره وانقاد لحكمه ولم يعارضه ﷺ، إنما كان ملتزمًا بشريعته عليه الصلاة والسلام منتهيًا عما نهىٰ الله عنه؛ فهذا ليبشر برحمة الله ورضوانه وجنات النعيم.

وأما إن كان العكس وهو أن عصىٰ العبد نبيه محمدًا ﷺ فإن هذا له من الله ﷻ العذاب والخزي والنار، إن أعرض عن دعوة النبي ﷺ ولم يرفع بها رأسه، ولم يستجب للنبي ﷺ فهذا لا شك أن مآله إلىٰ النار والخسران.

قال: (وَالدَّلِيلُ) لا يزال المؤلف رحمه الله يسلك بنا هذه الجادة الرشيدة وهي: أن يُتبع التقريرَ الدليل، أن يتبع الحكمَ بالبرهان والسلطان وهو الآية أو الحديث.

قال: (وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾ [المزمل:١٥-١٦]). (وَبِيلًا) يعني: شديدًا.

هذه الآية فيها فوائد كثيرة:

منها: أن نعلم قاعدة من قواعد القرآن وهي: أن القرآن يستدل علىٰ الشيء المتأخر بالشيء المتقدم، استدل القرآن علىٰ بعثة النبي ﷺ ورسالته ببعثة ورسالة الأنبياء المتقدمين عليهم الصلاة والسلام، ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء:١٦٣]، ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩].

إذن: النبي ﷺ رسول كما أن الذين تقدموه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام رُسُل، وإذا كان أمكن القدح في رسالة النبي ﷺ فإنه يمكن أن يُقدح في نبوة كل الأنبياء قبله من باب أولىٰ، متىٰ ما طُعِن في نبوة النبي ﷺ فالطعن في نبوة غيره من باب أولىٰ، فكل دليل يدل علىٰ نبوة أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلنبينا ﷺ ما يضارعه أو ما هو أبلغ منه، خذ هذا قاعدة.

إذن: النبي ﷺ رسول من جنس الرسل الذين تقدموه، فلأيِّ شيء تُنكَرُ نبوته، ولأيِّ شيء يُكذب في رسالته عليه الصلاة والسلام؟ وهكذا في أمور كثيرة في كتاب الله سبحانه وتعالى لو تأملتها لوجدت أنه يُستدل على المتأخر بالمتقدم.

تأمل -مثلًا- في مسألة المعاد: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم:٦٦-٦٧]، **إذن:** لأيِّ شيء يُعجب من هذا الأمر.

تأمل -مثلًا- في إنزال القرآن، إنزال هذا الوحي على النبي الكريم محمد ﷺ كيف كذب به من كذب من المشركين، ردَّ الله سبحانه وتعالى ذلك بأن هذا كان قد حصل من قبل، قال جل وعلا: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ [الأنعام:٩١]، **إذن:** أنتم كذبة، استدلالكم استدلال غير صحيح، دعواكم فارغة، ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ [الأنعام:٩١].

إذن: تأمل هذا في نظائر كثيرة تجد أن القرآن يستدل على المتأخر بالمتقدم، وهذا يرشدنا إلى قاعدة القياس الشرعي، وقد بسط هذا الوجه من الاستدلال العلامة ابن القيم رحمه الله في كتابه «إعلام الموقعين».

من فوائد هذه الآية أيضًا: أن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل:١٥]، النبي عليه الصلاة والسلام شاهد على هذه الأمة، والأمة شاهدة على الأمم قبلها، والدليل على ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء:٤١].

والنبي ﷺ شاهد على هذه الأمة من حيث قيام الحجة عليهم ببلاغه عليه السلام، شاهد عليهم من حيث استجابتهم أو امتناعهم عن الاستجابة، فالنبي ﷺ يشهد على هذه الأمة.

من فوائد هذه الآية: أن الله تعالى يقول: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥﴾ [المزمل:١٥] لاحظ كيف أنه لم يُذكر الرسول عليه السلام باسمه أولًا كما أنه لم يُذكر موسى عليه السلام باسمه ثانيًا، والسبب في هذا كما قال أهل التفسير: أن المقصود هاهنا ليس النظر إلى الشخص، عين المرسَل، إنما النظر إلى كونه رسولًا، وظيفته أن يكون رسولًا بين الله عز وجل وخلقه، وبالتالي فالتكذيب رجع إلى هذا الأمر، إلى هذا الذي وصف الله سبحانه وتعالى به هذا الإنسان.

فالعبرة إنما هي بالنظر إلى هذه الوظيفة وهي القيام بالرسالة، ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾ [المزمل:١٥-١٦]، أخذ الله عز وجل فرعون وقومه أخذًا وبيلًا، وهذا الأخذ الوبيل كان في الدور الثلاث: في الدنيا ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ [الذاريات:٤٠]، وأما في البرزخ: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ﴾ [غافر:٤٦]، وأما في الآخرة فأشد العذاب، ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر:٤٦].

ومن فوائد هذه الآية -أيضًا-: أن الله سبحانه وتعالى يحذر هذه الأمة من أن تسلك سبيل الأمم التي صدفت عن دعوات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيكون مآلها مآلهم،

متىٰ ما أعرض الذين بُعِث فيهم النبي ﷺ سواء أكانوا في حياته عليه الصلاة والسلام أو بعد ذلك إلىٰ قيام الساعة؛ فإن الإجماع المعلوم بالضرورة من دين الله عز وجل أن النبي ﷺ رسول إلىٰ جميع الثقلين الجن والإنس، منذ بعثته عليه الصلاة والسلام وإلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها، ليس ثمة رسول إلا هذا النبي الكريم محمد بن عبد الله ﷺ.

إذن: متىٰ ما كان من المتأخرين، ما كان من المتقدمين من عصيان الرسول عليه الصلاة والسلام، وعدم الإقبال علىٰ دعوته، وعدم الاستجابة لأمره؛ فإن النتيجة ستكون النتيجة، فالله عز وجل سيأخذ هؤلاء المتأخرين كما أخذ المتقدمين بالعذاب الوبيل، فعليهم أن يحذروا.

من فوائد هذه الآية -أيضًا-: أن نعلم أن العصيان يأتي في القرآن والسنة علىٰ ضربين: ثمة عصيان جزئي، وثمة عصيان كلي. وهذا يرجع إلىٰ القاعدة التي قد علمناها وتكررت معنا: ثمة مطلق العصيان، وثمة العصيان المطلق.

والعصيان الجزئي هو عصيان النبي ﷺ في بعض أوامره، بمعنىٰ: أن يستجيب المسلم للنبي ﷺ في بعض الأوامر ويعصيه في بعضٍ، هذه معصية وصاحبها متوعَّد بعذاب الله عز وجل، بمعنىٰ: أنه بالنظر إلىٰ كل فرد فرد من هؤلاء العصاة الذين هم داخل الملة الإسلامية، عصيانهم من عصيان أهل الكبائر وليس عصيان الكافرين؛ فهؤلاء تحت مشيئة الله عز وجل، إن شاء عفا عنهم من أول وهلة فدخلوا الجنة، وإن شاء عذبهم في النار مدة يشاؤها الله سبحانه وتعالى ثم كان مآلهم إلىٰ الجنة.

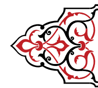
أما العصيان المطلق فهو عصيان الكافرين، عصيان مطلق للنبي ﷺ، فلا يُطاع النبي ﷺ في شيء من أوامره ألبتة، فهذا عصيان كلي مآله العذاب المؤبد، ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣﴾ [الجن:٢٣] ما المراد بهذا العصيان في هذه الآية؟ العصيان الكلي، العصيان المطلق، عصيان الكافرين.

إذن: في النظر إلىٰ نصوص الوعيد لابد من التفريق بين الأمرين، لابد من التفريق بين النصوص التي تعلَّقت بعصيان الكافرين وهو العصيان الكلي أو العصيان المطلق، فهذا له أحكامه، وثمة ما هو دون ذلك وهو عصيان العصاة أو أهل الكبائر وهو مطلق العصيان، وهو عصيان في أوامر دون أوامر، وهذا له أحكامه.

ومن خلط بين الأمرين ولم يكن له فرقان يميز به بين هذا وهذا فإنه سوف يقع في خطأ عظيم.

إذن: هذا أمر أول لابد أن يستقر في نفس كل إنسان وهو: أن الله ﷻ خلقك لهذا الابتلاء والامتحان، الحياة -كما ذكرنا- إنما خلقها الله ﷻ وأوجدها وما فيها ومن فيها لأجل هذا الابتلاء والامتحان، إنما بُعث النبي ﷺ -كما جاء في «صحيح مسلم»-: «**إنما بعثتك لأبتليك وأبتليَ بك**»، النبي ﷺ بعثه الله ﷻ ليكون امتحانًا للناس، فمن استجاب له ﵇ فليبشر بالسعادة، فإنها قد حيزت له من أطرافها، ومن أعرض عن النبي ﷺ وصدف عن دعوته ولم يُقْبِلْ علىٰ ما أمر به ﵇ فهو وشأنه، سوف ينال ما ناله مَن قبله: فرعون وقومه وإخوانه من الكفار والضالين، ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾ [المزمل:١٦] والله ﷻ أعلم.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: 

الثَّانِيَةُ: أَنَّ الله لا يَرْضَىٰ أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدُ فِي عِبَادَتِهِ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ١٨﴾ [الجن:١٨].

الشَّرْح

هذه هي المسألة الثانية، وهي مسألة مهمة، وحريَّة من كل مسلم ومسلمة أن يرخي سمعًا لها، وأن يفتح لها قلبه، فما أعظمها من مسألة، وما أشد الحاجة إلىٰ التذكير بها، ألا وهي: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يرضىٰ أن يُشرك به أحد ألبتة، لا نبي مرسل ولا مَلَك مقرَّب، فكيف بمن دونهما؟ الله جَلَّ وَعَلَا لا يرضىٰ أن يُشرك به أحد ألبتة، بل هذا من أسباب سخط الله جَلَّ وَعَلَا وغضبه علىٰ عبده أن يُشرِك مع الله جَلَّ وَعَلَا غيره.

الشرك أكبر جريمة علىٰ وجه الأرض، أيُّ جريمة تتخيلها في ذهنك فالشرك أعظم منها، أكبر معصية علىٰ الإطلاق، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ٣١﴾ [الحج:٣١].

الشرك هو الذنب الذي لا شهوة تدعو إليه، ولذا كان أعظم من غيره، أيُّ معصية أخرىٰ فلها دافع يدفع إليها، الذي يسرق عنده شهوة لتملك المال، الذي يزني، الذي يفعل أيَّ معصية من المعاصي، يشرب أو يتعاطىٰ ما حرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من مأكل أو مشرب أو ملبس إلىٰ غير ذلك، عنده شهوة تدعوه إلىٰ ذلك، إلا الشرك، فالشرك لا شهوة تدعو إليه، إنما هو مرض محض، فساد خالص في قلب من قام به هذا الشرك فصدر عنه الشرك، كيف وفوق ذلك هو معارض ومخالف بل مناقض للفطرة التي فطر الله الخلق عليها؟

الله ﷻ خلق الخلق وقد فطرهم علىٰ التوحيد، علىٰ معرفة الله ﷻ وعلىٰ توحيده بالعبادة ﷻ، لكن هؤلاء المشركين تغيرت عندهم الفطرة وفسدت - والعياذ بالله- فكان منهم الشرك، نسأل الله السلامة والعافية!

الشرك هو الذنب الوحيد الذي لا يغفره الله لمن مات عليه، نعوذ بالله من هذه الحال! أيُّ ذنب علىٰ الإطلاق سوىٰ الشرك فهو قابل للمغفرة، أما الشرك فلا، حَكَمَ الله -وهو الذي لا يُبدل القول لديه- بأن هذا الشرك لا يُغفر لصاحبه إن مات عليه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨] يُغفر فقط إذا تاب منه صاحبه، ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]، قال الله ﷻ في خطاب النصارىٰ المشركين: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٧٤].

أما إن مات صاحبه عليه فهذا يائس من رحمة الله، لا أمل له في المغفرة ألبتة.

الشرك هو الذنب الوحيد الذي يُخلِّد صاحبه في النار، عياذاً بالله! وهذا مما ترتعد منه فرائس المؤمن، إذا علم أن إشراكه بالله ﷻ، الإشراك الذي ربما لا يستغرق من الوقت إلا شيئًا قليلًا، عُقباه نار تلظىٰ إلىٰ ما لا نهاية، نسأل الله السلامة والعافية! مَن أشرك مع الله ﷻ فمآله إلىٰ النار خالدًا مخلدًا فيها، عياذاً بالله!

في «صحيح البخاري» من حديث ابن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مات وهو يدعو من دون الله ندًا دخل النار**»، قال ابن مسعود: وقلت:

من مات وهو لا يدعو من دون الله ندًا دخل الجنة. هذا الدخول دخول مؤبد، نسأل الله السلامة والعافية!

الشرك الذنب الوحيد الذي يُحبط جميع الأعمال، كل حسنة فَرَطَتْ وتقدمت من هذا الإنسان إن كان في آخر أمره قد أشرك مع الله ﷻ فكل ما تقدمه صار هباءً منثورًا، ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣]، ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [إبراهيم:١٨] أعمالهم لا شيء، النتيجة يوم القيامة صفر، ليس هناك أي عمل.

يا لله العجب! لو قدرنا أن إنسانًا عاش في هذه الحياة سبعين أو ثمانين أو تسعين سنة، أمضى عامتها في طاعة الله، في ذكر وتسبيح وتهليل وصدقة وصيام وصلاة وقيام وتلاوة قرآن، كل أوقاته يسعى في أن يستغرقها في طاعة الله ﷻ، لكنه في آخر دقيقة من حياته أشرك بالله، دعا غير الله، دعا الأموات فقال: يا سيدي فلان، المدد المدد، هذا أشرك مع الله، لأن الشرك -كما سنتكلم عنه بعد قليل إن شاء الله تعالىٰ- هو أن يُجعل مع الله شريك فيما يختص به، ومما اختص به: العبادة، فهناك أمران متقابلان: عبادة لله -يعني: توحيد- وشرك، قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ [النساء:٣٦].

إذن القاعدة -وهذه قاعدة مُسلَّمة عند العلماء-: كل ما ثبت أنه عبادة فصرفه لغير الله شرك. هذه قاعدة مُسلَّمة، السؤال: هل الدعاء عبادة؟ أجابنا وكفانا

المؤنة نبينا ﷺ الذي لا ينطق عن الهوىٰ، حيث قال في الحديث الصحيح باللفظ الصريح: «الدعاء هو العبادة»، إذن: هذا الإنسان أشرك، ما النتيجة لو أنه مات علىٰ ذلك وما تاب إلىٰ الله؟ ما مآل وما مصير ثمانين تسعين سنة من الأعمال الصالحة ؟ أين مآلها؟ بيَّن الله ﷻ ذلك فقال: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣] لا إله إلا الله!

الآن تأملوا معي، كم استغرقت من وقت وأنا أقول هـذه الجملة: يـا سـيدي فلان، المدد المـدد. كـم ثانيـة هـذه؟ ثـلاث ثـواني، أربـع ثـواني؟ أحبطـت أعمـال ثمانين عامًا.

إذن: الشرك الأكبر القطرة منه تفسد بحار الأعمال الصالحة، أرأيت ذنبًا كهذا الذنب؟ قطرة منه ما استغرقت شيئًا من الوقت، لكن نتيجتها -والعياذ بالله- أنها تفسد بحارًا ومحيطات من الأعمال الصالحة. هـذا كتاب الله ينطق بيننا.

إذن: الشرك له شأن ليس كغيره، فهو حري أن يخافه الإنسان، وأن يكون في وجل عظيم منه، وخذها قاعدة: كلما قوي الإيمان عظم الخوف من الشرك، إذا كان الإنسان إيمانه بالله عظيمًا فثق أن خوفه من الشرك عظيم، ولذا تأمل حال إمام الموحدين وأبي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهو إبراهيم الخليل عليه السلام، ومن إبراهيم يا قوم؟ أفضل البشر علىٰ الإطلاق بعد نبينا محمد ﷺ، اتخذه الله خليلًا كما اتخذ محمدًا ﷺ خليلًا، هذا الذي هو إمام الحنفاء الموحدين، لما عَظُمَ

توحيده لله ﷻ انظر كيف كان خوفه من الشرك، دعا الله ﷻ بدعاء صادق فقال:

﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ۝٣٥﴾ [إبراهيم:٣٥].

سبحان الله! هذا وهو معصوم من الشرك ومع ذلك يخافه، فكيف بنا نحن يا إخوتاه؟ قال إبراهيم التيمي رحمه الله: فمن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟!

إذن: كلما عظم التوحيد في قلبك ينبغي أن يكون الخوف من الشرك في قلبك أعظم، وهذا الخوف دافع إلىٰ التعلُّم والتحرز، أن تعرف ما هو هذا الشرك بتفاصيله ودقائقه وذرائعه، وأن تتحرز، ترابط علىٰ ثغور لسانك وجوارحك وقلبك بحيث لا تميل إلىٰ شيء من الشرك ولا تحوم حوله أصلًا، هذا من ثمرات الخوف من الشرك.

إذن: ما هو هذا الشرك؟ الشرك -كما قدمت-: أن يُجعل مع الله ﷻ شريك فيما يختص به ﷻ، وما الذي يختص به؟ يختص الله ﷻ بثلاثة أمور عظيمة:

أولًا: الربوبية، الخلق والرِّزْق والتدبير وما إلىٰ هذه المعاني، هذا أمر مختص بالله ﷻ، فمن قال: إن غير الله ﷻ يخلق أو يرزق أو يحيي أو يميت فإنه يكون قد وقع في الشرك.

ثانيًا مما يختص الله ﷻ به: أسماؤه وصفاته ﷻ، فمن أشرك مع الله ﷻ فيها فإنه يكون وقع في الشرك، عياذاً بالله!

الذي يقول: إن غير الله يعلم كعلم الله، أو إن أحدًا يتسمىٰ بأسماء الله بالقَدْر الذي يتسمىٰ به الله ﷻ، فالمعنىٰ الذي في الاسم وكل اسم يتضمن معنىٰ

ويتضمن صفة من تسمىٰ بها من المخلوقين فهو يوازي ويضارع ويناظر الله ﷻ في التسمية، فيقوم به ما قام بالله ﷻ من معنىٰ هذا الاسم، فهذا قد وقع في الشرك.

ثالثًا مما اختص الله ﷻ به: العبادة، فالعبادة حق خالص لله ﷻ، فمن عبد غير الله مع الله، توجه بالعبادة لغير الله في أيِّ عبادة من العبادات فإنه يكون قد وقع في حمأة الشرك، عياذاً بالله! هذا هو الشرك أن يُجعل مع الله ﷻ شريك فيما يختص به ﷻ، فلا شرك ولا يجوز أن يكون شرك مع الله ﷻ لا في الربوبية ولا في الأسماء والصفات ولا في العبادة، حتىٰ هذه العبادة التي يظن بعض الناس أنها منفصلة عن الشرك وما يرجع إليه، الشرك عند بعض الناس هو أن تقول: إن غير الله يخلق، وإن غير الله يدبِّر، وإن غير الله يرزق، أما إذا توجهت بأيِّ عبادة أخرىٰ إلىٰ غير الله ﷻ فإنك لا تكون مشركًا في ذلك.

وهذا -يا إخوتاه- خطأ عظيم وضلال مبين، بل الشرك في العبادة أكثر ما حذر منه النبي ﷺ، لأنه في الحقيقة كان محور الخلاف بين النبي ﷺ وكفار العرب، ما كان الإشكال وما كان محل الخلاف بين النبي ﷺ وبينهم هو في كون الله ﷻ خالقًا أو كونه رازقًا، ولا خرج النبي ﷺ عليهم في نواديهم فقال: وحِّدوا الله في الخلق والرَّزق والتدبير. والله ما كان، لو قال هذا النبي ﷺ لهم لقالوا: نحن نؤمن بهذا قبل أن تقول الذي قلت، لكن النبي ﷺ إنما دعاهم إلىٰ توحيد الله ﷻ في العبادة، هذا موطن الخلل عندهم يا قوم، قال لهم: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، والقوم كانوا عربًا يفهمون أن كلمة (إله) يعني: معبود، يعني:

من تتوجه العبادة له فلا يُعبد غيره، هنا أعرضوا ونكصوا ورفضوا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص:٥]، كيف نترك عبادة اللات ومناة وهُبل؟ لا يمكن، نحن لابد أن نعبدها كما نعبد الله، يعبدون الله، يحجون ويذكرون ويذبحون لله لكنهم مع ذلك يضيفون إلىٰ هذا عبادتهم لآلهتهم، فما نفعهم شيء مما تقربوا به إلىٰ الله.

إذن: هذا هو الشرك.

وكان النبي ﷺ حريصًا علىٰ أن يعلم أمته التوحيد وعلىٰ أن يحذرهم من الشرك، وأن يحذرهم من كل سبب يوصل إليه، حتىٰ إن رجلًا قال له: يا رسول الله، ما شاء الله وشئت ، فقط التعبير فيه عطف بالواو، والعطف بالواو يقتضي في اللغة المساواة في الرتبة، ونحن نقطع أن هذا الصحابي ما وقع في قلبه أن مرتبة النبي ﷺ كمرتبة الله، إلا أنه أخطأ في اللفظ، ماذا كان جواب النبي ﷺ؟ قال: «أجعلتني لله ندًا؟ بل: ما شاء الله وحده».

ماذا تظنون لو أن النبي ﷺ سمع شيئًا مما كان ويكون في آخر هذه الأمة؟ مع الأسف الشديد! كيف لو سمع النبي ﷺ من يناديه عند قبره أو بعيدًا عنه فيقول: يا رسول الله، أغثني. يا رسول الله، المدد المدد. يا رسول الله، أنا في حَسَبِكَ. ماذا تظنون أنه يقول لمن يقول:

هــذه علتــي وأنــت طبيبــي ... لـيس يخفىٰ عليـك في القلـب داء

بالله ماذا تظنون أن يقول ﷺ لمن قال:

فـأقلني عثرتـي يـا سـيدي   في اكتساب الذنب في خمسين عاما

ماذا تظنون أنه يقول لمن قال:

ما سامني الدهر ضيمًا واستجرت به   إلا ونلت جوارًا منه لم يُضَمِ

أين هذه الكلمات من قول: ما شاء الله وشئت، والنبي ﷺ يغضب ويحذر وينبه فيقول: «أجعلتني لله ندًا؟».

إذن: الله ﷻ لا يرضىٰ أن يُشرك به أحد، لا مَلَك مقرَّب ولا نبي مرسل، بل من كان دون ذلك، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ١٨﴾ [الجن:١٨] وقِفْ وقفة تأمل فيها قوله: (أَحَدًا) فإن كلمة (أَحَدًا) هاهنا نكرة في سياق النهي، والمتقرر في علم الأصول: أن النكرة في سياق النهي تَعُمُّ.

إذن: لا يجوز أن يُشرك مع الله ﷻ أحد ألبتة، لا نبي، ولا ملك، ولا جني، ولا ولي صالح ولا ولي طالح، ولا أيُّ أحد علىٰ الإطلاق، ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ١٨﴾ [الجن:١٨]، هكذا بهذا العموم، كل أحد لا يجوز أن يُشرك مع الله ﷻ به، حتىٰ سيد ولد آدم ﷺ الذي هو أكرم الخلق علىٰ الله، وأقرب الخلق إلىٰ الله، وأحب الخلق إلىٰ الله، واللهِ لا يجوز أن يُعبد مع الله ﷻ، ولا أن يتوجه إليه العبد بشيء من العبادة ألبتة.

يا عبد الله تنبه! نبينا محمد ﷺ عبد لا يُعبد ورسول لا يُكذب، بل يُطاع ويُتَّبع، لله حق ولرسوله ﷺ حق، فلا تخلط بين الحقين.

الـرب رب والرسـول فعبـده   حقًـا ولـيس لنـا إلـه ثـان

لله حـــق لا يكـــون لغيـــره ولعبـــده حـــق همـــا حقـــان

لا تجعلـوا الحقـين حقًّـا واحـدًا مـــن غيـــر تمييـــز ولا فرقـــان

هنا إشكال كبير في أن بعض الناس خلطوا بين حق الله وحق عبده ورسوله ﷺ، فاحذر -يا عبد الله- فإن مغبة الأمر عظيمة جدًا، الله لا يرضىٰ أن يُشرك معه أحد ألبتة، دائمًا تأمل قول الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ١٨﴾ [الجن:١٨].

هذه الآية آية عظيمة وأصل من أصول التوحيد، يقول الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن:١٨]، اختلف المفسرون في هذه الكلمة وهي ﴿ٱلْمَسَٰجِدَ﴾ إلىٰ أقوال:

منهم من قال: إن المساجد هي المواضع المخصوصة بالصلاة، يعني: هذه المساجد كهذا المسجد، ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن:١٨] هذه إنما بُنيت لله ﷻ، حتىٰ يُعبد الله وحده فيها، وهذا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة من أهل التفسير.

قال قتادة رحمه الله: كان اليهود والنصارىٰ إذا دخلوا بِيَعَهُم وكنائسهم أشركوا مع الله. يدخلون كنائسهم وبِيَعهم فيدعون غير الله، يدعون المسيح أو يدعون عزيرًا أو يدعون مريم، فنهاهم الله ﷻ عن ذلك، إذا دخلتم المساجد فلتكن مواضع عبادة لله وحده.

القول الثاني: أن المساجد هي كل الأرض، لقوله ﷺ: «وجُعِلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»، وبالتالي يكون معنىٰ الآية: لا تشركوا بالله في أيِّ موضع، كل

مكان من الأمكنة فلا يجوز أن يُشرك فيه مع الله.

القول الثالث: أن المساجد أعضاء السجود التي تَسْجُدُ عليها، وبالتالي فيكون معنىٰ الآية: توجهوا بأعضائكم وأركانكم بالعبادة لله ﷻ، فلا تسجدوا لغيره، لا تعبدوا غيره.

القول الرابع: أن المساجد بمعنىٰ السجود، يقال: سجد يسجد سجودًا ومسجِدًا، كما يقول: ضرب يضرب ضربًا ومضرِبًا، وابن قتيبة رحمه الله يقول: الفتح أولىٰ مَسْجَدًا، سجد يسجد سجودًا ومَسْجَدًا، والجمع: مساجد.

إذن يكون معنى الآية: أن السجود كله يجب أن يكون لله، ولا يجوز صرف شيء منه لغير الله ﷻ.

والأقوال -على كل حال- متقاربة.

المقصود: أن السجود -وهو عبادة من العبادات، وبقية العبادات في حكم هذه العبادة- لا يجوز أن يُصرف لغير الله ﷻ.

قال: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾ [الجن:١٨]، نهىٰ الله ﷻ عن دعاء غير الله ﷻ، **والدعاء -يا رعاك الله- كما قرر العلماء نوعان:**

١) دعاء عبادة.

٢) دعاء مسألة.

دعاء العبادة: هو كل العبادات، لأن لسان حال صاحبها: أنه يسأل الله بها، هو يصلي ويصوم ويحج ولسان حاله أنه يسأل الله أن يعفو عنه ويغفر له ويدخله

الجنة بسبب عبادته، فسُمِّيت كل العبادات دعاء عبادة، فيكون معنىٰ الآية: وأن المساجد لله فلا تعبدوا مع الله غيره. والعبادة -كما مر بنا- في «رسالة العبودية» كما عرَّفها الشيخ تقي الدين رحمه الله: (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة).

إذن: إذا علمت في أي عمل أو قول أنه محبوب لله، رضيه -يعني: شرعه لعباده- فإنه ينطبق عليه وصف العبادة، فتكون هذه العبادة حقًّا خالصًا لله عز وجل لا يجوز أن يُشرك مع الله فيه.

النوع الثاني: دعاء المسألة، وهو السؤال والطلب، نداء الله عز وجل، وهو الذي ينصرف إليه الذهن في لفظ أو من سماع لفظ الدعاء غالبًا.

فالدعاء يجب أن يُصرف لله عز وجل لا غير، وأما من دعا غير الله عز وجل فإنه يكون قد أشرك مع الله، لأنه صرف نوعًا من أنواع العبادة لغير الله.

وضابط الدعاء الشركي يرجع إلى ثلاث صور، انتبه لها يا رعاك الله!

أولًا: دعاء الميت مطلقًا، سواء عند قبره أو بعيدًا عنه، أيُّ سؤال للميت فإنه شرك أكبر، ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧]، ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ﴾ [فاطر:١٤].

إذن: دعاء غير الله عز وجل من الأموات هذا شرك أكبر.

ثانيًا: دعاء الحي الغائب الذي هو بعيد عنك، فدعاؤه شرك أكبر.

النوع الثالث أو الصورة الثالثة: دعاء الحي الحاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله، أن يأتي إنسان إلىٰ شيخ أو ولي فيقول: يا سيدي اغفر ذنبي، أنزل المطر، ارزقني الولد، أنبت الزرق، وأمثال هذه الأمور التي تفرَّد الله ﷻ بإيجادها، هذا يُعتبر شركًا أكبر. وسيأتي -إن شاء الله- في ثنايا هذه الرسالة تفصيل لهذا الموضع أكثر.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ ﷺ وَوَحَّدَ اللهَ ﷻ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢].

الشَّرح

انتهى الكلام عن المسألة الأولى والثانية من المسائل الثلاث التي بيَّن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلُّمها.

المسألة الثالثة فيها التنبيه على أمر غاية في الأهمية، وقَلَّ من يتنبه له، وقَلَّ من ينبِّه عليه، ألا وهو ما يتعلق بالبراءة من الشرك والمشركين، فإنَّ هذا الأمر عزيز في الأزمان المتأخرة، والله المستعان!

بيَّن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن من أطاع الرسول ﷺ ووحد الله لا يجوز له أن يوادَّ من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب، والدليل: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ﴾ [المجادلة:٢٢].

من حقق الإيمان الواجب الذي أوجبه الله ﷻ علىٰ عباده لا يكون منه هذا الأمر، إنما يكون منه أن يحب الله، وأن يحب ما يحب الله، وأن يحب من يحبه الله، وأن لا تكون محبته إلا في حدود ما أذن الله، هذا الذي يقتضيه الإيمان الواجب.

الإيمان بالله له لوازم، ومن لوازم هذا الإيمان: أن يحب الإنسان ما يحبه محبوبه ﷻ، فإن الواجب أن يكون الله ﷻ في قلب كل مسلم أحب حبيب علىٰ الإطلاق، لا يجوز بحال أن يُشرك مع الله ﷻ في هذه المحبة العظمىٰ التي يجب أن ينطوي عليها قلب كل مسلم، فإذا بلغت المحبة هذا القَدْر الواجب فإن من لوازم ذلك: أن يحب الإنسان ما يحبه الله، وأن يبغض ما يبغضه الله.

والذين أشركوا مع الله، والذين ما أتوا بحقه علىٰ عباده، والذين هم أعداء لله لا يجوز للمسلم بحال أن يحبهم، كيف يجوز للإنسان أن يجمع بين محبة الله ﷻ ومحبة أعدائه؟ لا يكون هذا إلا لنقص في الإيمان ونقص في المحبة، هؤلاء الذين أشركوا مع الله ﷻ غيره أعداء لله، اتخذهم الله أعداءً له، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة:١].

سبحان الله العظيم! هؤلاء أعدائي، فكيف تلقون إليهم بالمودة وهم يكفرون بي ويكفرون بنبيكم ﷺ؟

هذا الذي أشرك مع الله ما آمن بالنبي ﷺ، إذ لو آمن به لالتزم شرعه، وأهمُّ ما جاء في شرعه: توحيد الله، فهذا المشرك عدو لله وعدو لرسوله ﷺ،

فكيف يحبه المسلم مع ما هو عليه؟

وقد تكاثر في الكتاب والسنة النهي عن محبة هؤلاء المشركين، قال الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة:١].

قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [المائدة:٥١].

قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [التوبة:٢٣].

تأمل -يا رعاك الله- فيما بيَّن ربنا سبحانه وتعالى في قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الممتحنة:٤] هذا أمر من الله سبحانه وتعالى أن نتأسىٰ بهذا النبي الكريم عليه الصلاة والسلام الذي هو إمام الحنفاء، كما سيأتي الحديث عن ذلك إن شاء الله، وكذلك نتأسىٰ بالمؤمنين الذين كانوا معه. ما حقيقة هذا التأسي؟ ﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة:٤]، تأمل -يا رعاك الله- كيف أن البراءة كانت من هؤلاء الكافرين قبل البراءة من الكفر، مما يدل علىٰ تأكد وأهمية ذلك.

﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤]، هذا ما كان عليه إبراهيم عليه السلام وما كان عليه الذين آمنوا معه وما ينبغي

أن يكون عليه المسلمون من هذه الأمة، قال النبي ﷺ: «**أوثق عرىٰ الإيمان: الحب في الله والبغض في الله**»، وأولىٰ من يُبغض في الله: أولئك الذين أشركوا مع الله وكفروا به.

إذن: هذا من الأمر الواجب المتعين أن يلحظه المسلم وهو ضرورة البراءة من المشركين، كما أن الإنسان واجب عليه أن يبرأ من الشرك عليه -أيضًا- أن يبرأ من المشركين، بذلك يحقق الإيمان الواجب عليه.

وأما إذا وقع في ضد ذلك فإنه يكون قد وقع في موالاة المشركين، وهذا أمر حرمه الله ﷻ، وهو درجات قد يصل إلىٰ حد الكفر بالله ﷻ، قد يكون كفرًا أكبر، وقد يكون معصية وكبيرة من الكبائر.

إذا كانت الموالاة موالاة تامة فهذا كفر دون شك، وأصل الموالاة: المحبة، ثم لها بعد ذلك ثمرات، كالمعاونة والنصرة والمصادقة والتشبه وما إلىٰ ذلك.

فإذا كانت هذه الموالاة موالاة تامة كان هذا كفرًا بالله ﷻ، ومن ذلك ما نص عليه إمام الدعوة ؒ في الناقض الثامن من «نواقض الإسلام» التي أجمع عليها أهل العلم: مظاهرة المشركين ومعاونتهم علىٰ المسلمين.

ومن تلك الموالاة الكفرية أيضًا: المسرَّة بارتفاع دين الكفار والمسرَّة بانخفاض دين المسلمين.

ومن هذه الموالاة التامة أيضًا: محبة الكافر لأجل كفره، لو أحب إنسان كافرًا؛ لأنه ملتزم بدينه الباطل، لأنه يسجد للأصنام، يحب هذا ويحبه لأجل هذا فهذا -والعياذ بالله- من الموالاة الكفرية.

ومن الموالاة ما يكون دون ذلك، ومن ذلك: محبة الكفار والمشركين لأمر دنيوي، فهذا لا يصل إلىٰ حد الكفر، لكنه أمر محرم ولا يجوز.

ومن فروع الموالاة كما ذكر أهل العلم أيضًا: مشابهة المشركين في الهيئات والعادات، في الألبسة وفي الكلام وفيما شاكل ذلك، كيف لا يكون ذلك ممنوعًا والنبي ﷺ يقول: «من تشبه بقوم فهو منهم».

إنه لمما يُؤسَفُ له انتشار هذا الأمر المحرم وهو التشبه بالكفار، بل إن ذلك -مع الأسف الشديد- أخذ صبغة الترقي والحضارة والتطور، كلما كان أحدهم أكثر مشابهة للكفار كلما زُعِم أنه أكثر تطورًا وانفتاحًا، والله المستعان!

يا لله العجب من إنسان رفعه الله ﷻ بالإيمان وباتباع نبي القرآن ﷺ، لكنه يأبىٰ إلا الارتكاس، وإلا النزول إلىٰ الحضيض، فيكون متشبهًا في هيئته وفي ملبسه وفي عاداته وفي أحواله بهؤلاء الكافرين الذين اتخذهم الله ﷻ أعداء له.

فهذا مما ينبغي أن يُنبَّه عليه، ينبغي أن تُنشَّأ ناشئة المسلمين علىٰ البعد عن مشابهة المشركين، وعلىٰ ضرورة اتباع سيد المرسلين ﷺ.

دونك -يا عبد الله- من هو أعظم من ينبغي أن يُقتدىٰ به، من كان له الكمال البشري في كل الأحوال وفي كل العادات وفي كل الأخلاق وهو نبينا الكريم محمد ﷺ، ماذا تروم من التشبه بغير هذا النور المبين الذي جاء في سنة سيد المرسلين ﷺ؟ ثم طريقة أصحابه رضي الله عنهم وما كان عليه السلف الصالح؟

المقصود: أن هذه الموالاة درجات، وبعضها أعظم من بعض، وبعضها أخف من بعض، فمنها ما يصل إلىٰ درجة الكفر ومنها ما هو دون ذلك.

والعلماء في هذا المقام على منهجين:

- **منهم** من يجعل الموالاة والتولي شيئًا واحدًا، لكنهم يُقسّمون هذا وهذا إلىٰ الموالاة أو التولي التام، وإلىٰ الموالاة أو التولي الناقص، فالأول حكمه الكفر، والثاني حكمه المعصية.
- **ومنهم** من يجعل التولي هو القسم المكفِّر، والموالاة الأصل فيها أن تكون دون ذلك، وفي هذا يقول الشيخ ابن سحمان ﵀ في قصيدة بيَّن فيها خلل بعض الناس الذين غلطوا في هذا المقام، قال:

فما فرَّقوا بين التولي وحكمه ... وبين الموالاة التي هي في العمل
أخفُّ ومنها ما يكفِّرُ فعلُهُ ... ومنها دون ذلك في الخلل

المقصود: أن هذا التولي وهذه الموالاة إذا فحشت وعظمت فإن الأمر يقتضي شيئًا عظيمًا، ويورد صاحبه الموارد، والله المستعان!

هذا التنبيه من المؤلف، هذه المسألة الثالثة حَرِيَّة أن تُحفظ من المسلمين، وأن تُعلَّم للصغار والكبار، وأن يُذكَّر بها دائمًا، فمن أطاع النبي ﷺ ووحد الله لا يجوز له موالاة أعداء الله، هذا من لوازم الإيمان بالله ورسوله ﷺ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

اعْلَمْ -أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ- أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ -مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ-: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦] وَمَعْنَىٰ (يَعْبُدُونِ): يُوَحِّدُونِ.

الشَّرح

هذه خاتمة مقدمة الأصول الثلاثة، قلنا: إن الأصول الثلاثة -هذه الرسالة النافعة التي هي بين أيدينا نتدارسها، وأسأل الله ﷻ أن ينفعنا بها- مشتملة علىٰ مقدمة وأصل الموضوع ثم خاتمة، فالمقدمة اشتملت علىٰ تعليم سبع مسائل، ذكر أولًا أربع مسائل، ثم عطف عليها ثلاث مسائل، كما قد علمنا.

ثم بعد ذلك ختم هذه المقدمة بالتنبيه علىٰ حقيقة ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ التي هي التوحيد.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ**) المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يدعو لقارئ هذه الرسالة ومتعلمها أن يرشده ربنا سبحانه إلىٰ طاعته، ومن أرشده الله إلىٰ طاعته فقد فاز فوزًا عظيمًا.

(**أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ**) لاحظ أن نصب (ملة) إنما هو علىٰ البدلية، أو لأن هذه الكلمة عطف بيان، فالحنيفية هي ملة إبراهيم، والحنيفية هذه الكلمة من الحَنَف، والحَنَف هو: الميل، ولذلك قيل للرجل الذي في ساقه ميل وانحراف:

يسمىٰ: أحنف، والحنف في اللغة يعني: الميل، والحنيفية في الاصطلاح الشرعي: الميل عن الشرك إلىٰ التوحيد، وعن الباطل إلىٰ الحق. وهذا ما كان عليه إمام الحنفاء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه لما بُعِث ﷺ كان الناس والمجتمعات متجهةً إلىٰ الشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ، فما كان منه إلا أن مال عن هذا الاتجاه إلىٰ الحق، إلىٰ التوحيد، فصارت هذه الكلمة كلمة مدح وثناء، فمن كان حنيفًا فإنه يكون متبعًا لهذا النبي الكريم محمد ﷺ وقبله متبعًا لإمام الحنفاء الذي هو إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا ذُكِر ذُكِر التوحيد، وذُكِر البذل في سبيل الله، وذُكِرت البراءة من المشركين، وذُكِرت الكعبة فإنه بانيها، الذي أمره الله عَزَّ وَجَلَّ أن يؤسسها علىٰ أساس التوحيد، ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ [الحج:٢٦].

هذا هو إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، إنه أبو الأنبياء، وإمام الحنفاء، ومكسر الأصنام، والداعية إلىٰ التوحيد، الذي بذل نفسه وولده وحياته وكل شيء في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ، حتىٰ بلغ الرتبة العَلِيَّة وهي أن اتخذه ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خليلًا، وكذلك اتخذ محمدًا ﷺ خليلًا، ولا يُعلم في النصوص من تبوأ هذه المكانة إلا هذان الخليلان إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

الخليل إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، هذا الذي عظَّم التوحيد، وعَظُمَ التوحيد في قلبه، حتىٰ إنه عَالَنَ قومه بالبراءة وبالإنكار، ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧].

قال لهم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ [الشعراء:٧٥-٧٨].

إبراهيم عليه السلام ما كان يخشىٰ إلا الله، اصطفاه الله في الدنيا ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة:١٣٠].

إبراهيم عليه السلام أُمر النبي ﷺ أن يتبع ملته، ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣].

إبراهيم عليه السلام أُمرت أمة محمد ﷺ باتباع ملته، ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:٩٥].

إبراهيم عليه السلام لا يرغب عن ملته إلا من سفه نفسه، إبراهيم عليه السلام إمام الموحدين الذين كانوا أهل النجاة، فأُمِرْنا بالاتساء به وبمن سار علىٰ منهجه عليه السلام.

إبراهيم عليه السلام ملته هي حقيقة الهداية، ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة:١٣٥]، هذه هي الهداية، من وصل إليها فقد وصل إلىٰ حقيقتها.

إبراهيم عليه السلام يجب علىٰ كل مسلم ومسلمة أن يتبع ملته، ولذا سَنَّ لنا نبينا ﷺ أن نُذكّر أنفسنا وأن نجدد العهد بملته عليه السلام صباح مساء، ففي «مسند الإمام أحمد» والنسائي في «عمل اليوم والليلة» بإسناد صحيح، علَّمنا النبي ﷺ من

أذكار الصباح والمساء أن يقول الإنسان: أصبحنا على فطرة الإسلام، وعلى كلمة الإخلاص، وعلى ملة إبراهيم حنيفًا.

في المساء تكرر: أمسينا على فطرة الإسلام. تذكر نفسك، تجدد العهد بملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام التي هي حقيقة الرسالة وزبدة الدعوة ولُبُّ الدين. هذا هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهذه ملته، وهذا ما أُمرنا باتباعه.

ما هي هذه الملة؟



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا.

الشَّرْح

أن تعبد الله مخلصًا له الدين. هذه هي العبارة الوجيزة المختصرة، التي بينت لنا حقيقة هذه الملة.

كلمة (الملة) ذكر بعضهم أنها مرادفة لكلمة الدين، والتحقيق -والله تعالىٰ أعلم- أنها أخص من كلمة (الدين)، فإنها إنما تُطلق علىٰ أصل الدين، علىٰ مبانيه وأسسه ومعاقده، هذه التي تسمىٰ الملة.

فملة إبراهيم أن تعبد الله مخلصًا له الدين، وهذا الذي أمر الله ﷻ جميع الناس به، بل هذا الذي خلق الله جميع الناس لأجله، بل خلق الثقلين، أوجد هذا الكون لأجل تحقيق ملة إبراهيم، وذلك أن يُعبد وحده لا شريك له، أن تُخلص له العبادة ﷻ، هذا ما أمر الله ﷻ به، وهذا ما خلق الله ﷻ الخلق لأجله.

واستدل المؤلف علىٰ هذا بقوله.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦].

الشَّرح

هذه الآية العظيمة التي هي أصل من أصول العلم في باب التوحيد، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦] بيَّنت لنا الغاية المرادة من العباد، ولأجلها خلق الله الخَلْق، قلنا: الغاية المرادة من العباد أن يُعرف الله جَلَّ وَعَلَا ثم أن يُقام بمقتضىٰ هذه المعرفة من عبادته وحده لا شريك له، وهذا دليل صريح علىٰ ذلك: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦].

هذه الآية تكلم فيها المفسرون بكلام طويل، منهم من استشكل أن يخلق الله جَلَّ وَعَلَا الخلق لأن يُعبد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مع كون أكثر الناس لم يقوموا بحق هذه العبادة، ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف:١٠٣]، فكيف يكون ذلك؟ ولذلك كثرت الأقوال المخالفة للحق في هذه الآية.

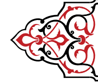
والصواب: أن الآية أفصحت عن المراد لله جَلَّ وَعَلَا شرعًا. وتذكرون في «درس العبودية» أننا ذكرنا أن الله جَلَّ وَعَلَا له في كل ما يخلق ويقدِّر ويفعل ويشرع، له في كل ذلك حكمة يحبها، ولأجلها فعل، ولأجلها خلق، ولأجلها قدَّر، ولأجلها شرع، استصحِب هذا عند تأمل هذه الآية، فالمراد لله جَلَّ وَعَلَا الذي اقتضته إرادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شرعًا، ما أحبه الله جَلَّ وَعَلَا وما خلق لأجله هو أن يُعبد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأما كون هذا الذي أحبه الله يقع أو لا يقع هذا مرجعه إلىٰ مشيئة الله جَلَّ وَعَلَا، يعني: إلىٰ الإرادة الكونية.

وقلنا: إن الإرادتين قد تجتمعان وقد تنفرد إحداهما، وقد ترتفعان، وهاهنا الله ﷻ مراده الشرعي الذي أحبه ولأجله خلق هو أن يُعبد ﷻ، ثم بعد ذلك انقسم الناس، اقتضت مشيئة الله ﷻ أن ينقسم الناس، فمنهم من قام بهذا الذي أراده الله ﷻ وأحبه، ومنهم من لم يكن منه ذلك، وكل ذلك له فيه ﷻ الحكمة البالغة.

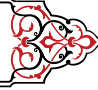
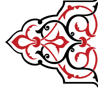
إذن: الآية تعلقت بالإرادة الشرعية لا بالإرادة الكونية، يعني: الحكمة التي لأجلها خلق الله ﷻ الناس هي أن يُعبد ﷻ، ثم قد يكون هذا الأمر وقد لا يكون، وهذا ليس بمستشكَل حتىٰ عند الناس، تجد الإنسان يقول: أنا أبري القلم لأكتب به، ثم بعد ذلك قد يكتب به وقد لا يكتب.

إذن قوله: (لأكتب به) أفصح عن الحكمة التي أرادها من بري هذا القلم، هذا يُسهّل فهم المراد من الآية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦]، هذه مما يسهل فهمها -أيضًا- هي التي يُطلق عليها المناطقة: العلة الغائية، العلة الغائية هي: التي يفعل لأجلها الفاعل، فالله ﷻ خلق الخلق لأجل أن يُعبد وحده لا شريك له.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: 

وَمَعْنَىٰ (يَعْبُدُونِ) يُوَحِّدُونِ.

 الشَّرْح 

قال المؤلف ﷺ: (وَمَعْنَىٰ يَعْبُدُونِ: يُوَحِّدُونِ) وهذا ما ذكره جمع من المفسرين، نصوا علىٰ هذا التفسير ومنهم الكلبي، ومنهم كذلك أبو حيان في «البحر المحيط»، ونقله جماعة من المفسرين عليهم رحمة الله.

فالعبادة لا تكون عبادة إلا بالتوحيد، ولذا كل آية أمرت بعبادة الله ﷻ فإنها تكون آمرة بالتوحيد، خذها قاعدة: كل آية أمرت بالعبادة فإنها قد أمرت بالتوحيد؛ لأن العبادة لا تكون عبادة إلا إذا كان العابد موحدًا لله ﷻ، فمن صلىٰ لله فإنه يكون قد أدىٰ الصلاة، أدىٰ العبادة وبالتالي يكون قد وحَّد الله، لكن الذي صلىٰ لغير الله هل أدىٰ العبادة التي أمر الله بها؟ الجواب: لا، فلما انتفىٰ التوحيد انتفت العبادة.

إذن: كل عبادة أمر الله ﷻ بها، سواء كان هذا الأمر للعبادات التفصيلية، أو كان أمرًا بالعبادة عمومًا، كل آية أو حديث تعلق بهذا الأمر فإنه يكون قد تعلق في حقيقته بالتوحيد لله ﷻ، فالعبادة لا تكون عبادة إلا بالتوحيد، عبادة خَلَت من توحيد الله ﷻ ليست عبادة، وإن كانت الصورة قد تكون صورة العبادة لكن العبرة إنما هي بالحقيقة، إنما هي بالشيء الذي يوافق ما أمر الله ﷻ به.

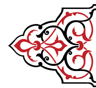
إذن: الله ﷻ أمر الخلق، والله ﷻ خلق الخلق لأجل أن يقوموا بهذا الواجب، ما هو هذا الواجب؟ هو أن يتبعوا ملة إبراهيم حنيفًا، وذلك أن يعبدوا الله مخلصين له الدين.

هذه المسألة أهم مسألة في الحياة، هذه المسألة أكبر مسألة في الحياة، هذا الموضوع أول ما دعا إليه رسول الله ﷺ وآخر ما دعا إليه رسول الله ﷺ، إلىٰ اللحظات الأخيرة في حياته ﷺ وهو يؤكد علىٰ مسألة التوحيد ويحذر من ضده، هذه المسألة أعظم ما دعا إليه رسول الله ﷺ، هذه المسألة أكثر ما دعا إليه رسول الله ﷺ، كيف لا تكون كذلك وهي أهم مسألة في هذه الحياة؟ أكبر قضية في حياتك هي توحيد الله ﷻ، هذه التي لأجلها أنت موجود علىٰ وجه الأرض، وبالتالي مَن فَقَد هذه الغاية ومَن فَقَد هذه الحكمة انتفت في حقه -والعياذ بالله- فهذا وجوده وعدمه سواء، هذا فَقَد إنسانيته في الحقيقة، ولذا شبهه الله ﷻ بالأنعام، بل هو أضل من الأنعام، أليس كذلك؟

إذن: الإنسانية الحقة مرتبطة بالتوحيد ارتباطًا وثيقًا، من فَقَد التوحيد فَقَد إنسانيته فصار كالأنعام بل هو أضل.

إذن أهم موضوع على الإطلاق: موضوع التوحيد، إذا كان بهذه المثابة إذن ينبغي أن يُحرص أشد الحرص علىٰ تعلُّمه، علىٰ فهمه، علىٰ تدبره، علىٰ معرفة ضده وعلىٰ الحذر من ذلك، هذا من المهمات التي ينبغي أن تكون في أُسِّ اهتماماتنا، وفي مقدمة أولوياتنا، الناس اليوم يقول: أنا عندي أولويات في الحياة، ينبغي أن يكون رقم واحد دائمًا وأبدًا هو التوحيد، إذا كتبت أولوياتك ينبغي أن تكتب رقم واحد: التوحيد، أكبر قضية في هذه الحياة، الكون هذا كله إنما كان لأجل أن يُوحَّد الله ﷻ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: 

وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ: التَّوْحِيدُ، وَهُوَ: إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ.

وَأَعْظَمُ مَا نَهَىٰ عَنْهُ: الشِّرْكُ، وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء:٣٦].



الشَّرْح

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ، وَأَعْظَمُ مَا نَهَىٰ عَنْهُ الشِّرْكُ**) هذه قاعدة ينبغي أن تُحفظ، لما كان هذا التوحيد بهذه الأهمية كان أعظمَ ما أمر الله عَزَّ وَجَلَّ به.

ولذا لو تأملت في نصوص الكتاب والسنة تجدها دائرة علىٰ هذا الموضوع، علىٰ موضوع التوحيد، إما بدلالة المطابقة، أو بدلالة التضمن، أو بدلالة الالتزام، كل النصوص تأملها تجدها تدور علىٰ هذا الموضوع الأهم وعلىٰ هذا الموضوع الأعظم: مسألة التوحيد.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تأمل سنته وجده يعلِّمنا أن نجدد العهد مع التوحيد دائمًا وأبدًا، فإن هذه الحياة ملهياتها ومشغلاتها قد تسبب الغفلة عن هذه الحقيقة الكبرىٰ وهي التوحيد، فتأتي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متضمنة لما يذكرنا ويوقظنا من الغفلة.

ولذا تجد أن الإنسان إذا وضع جنبه علىٰ فراشه فإنه يذكر الأذكار التي تجدد العهد بالتوحيد، ومن ذلك: أنه يقرأ المعوذات وقل هو الله أحد، ما يجدد عهدك بالتوحيد.

تجد أنه إذا استيقظ فتح عينه يبدأ بسنة الفجر، أول ما يصلي من صلاة النهار سنة الفجر، ماذا يقرأ فيها الإنسان؟ قل يا أيها الكافرون، قل هو الله أحد. تجديد العهد بالتوحيد العملي وتجديد العهد بالتوحيد العلمي.

ثم إذا ختم نهاره فصلىٰ المغرب ثم تسنن أو صلىٰ سنة المغرب تجد أن السنة تذكرك بالتوحيد، جدد العهد بالتوحيد، قل يا أيها الكافرون، قل هو الله أحد.

انتهت ليلتك وآخر ما تصلي من الليل: الوتر، وآخر ما تقرأ في الوتر ما يجدد العهد بالتوحيد: قل يا أيها الكافرون، قل هو الله أحد.

أذكار الصباح، أذكار المساء: وعلىٰ ملة إبراهيم حنيفًا.

في أذكار الصباح، في أذكار المساء تهلل عشر مرات، أو تهلل في يومك مائة مرة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير.

تؤدي العبادات، تطوف ببيت الله ﷻ تجد أنه مؤسس علىٰ التوحيد، ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ [الحج:٢٦].

فإذا انتهيت من الطواف تذكر نفسك بالتوحيد، فتقرأ: قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد.

تفتح المصحف تقرأ في كتاب الله، أول سورة تجدها في المصحف هي سورة الفاتحة المشتملة علىٰ أنواع التوحيد الثلاثة، فإذا ختمت القرآن تجد آخر سورة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣﴾ [الناس:١-٣] تذكرك بأنواع التوحيد الثلاثة.

وفيما بين ذلك آيات كثيرة يصعب عليك عدُّها، كلها مشتملة على التذكير بالتوحيد.

إذن: التوحيد هو باطن الدين وظاهره، وأوله وآخره، ولُحْمته وسداه وأعظم شيء فيه، توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إذن: أمرٌ بهذه المثابة حَرِيٌّ أن يعتني به المسلم، وأن يذكر نفسه به، وأن يحرص على تحقيقه، وأن يرابط على ثغور قلبه وجوارحه حتى لا ينحرف عنه ولا ينصرف عنه.

وأعظم ما نهى الله عنه ضده وهو الشرك، ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء:٣٦]، هذان أمران ضدان لا يجتمعان، توحيد وشرك لا تجتمعان، لاحظ أن الله قال: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٣٦]، ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ يمكن أن تفسرها حسب القاعدة التي أخذناها: وحّدوا الله، لأننا قلنا: العبادة شرعًا لا تكون عبادة إلا إذا كانت عبادة على أساس التوحيد، صاحبها موحد لله عَزَّ وَجَلَّ فيها، قال سبحانه: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء:٣٦].

أعظم ما نهى الله عنه: الشرك. تذكرون أننا قلنا فيما مضى: أن الشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ أعظم جريمة على وجه الأرض، أعظم ما نهى الله عنه الشرك، **لسببين:**

أولًا: أنه أعظم الذنوب.

وثانيًا: أن عقوبته أعظم العقوبات.

الشرك أعظم الذنوب.

أولًا: لأن الشرك انتقاص عظيم لحق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ما أشرك المشرك بالله إلا وهو

ينتقص حق الله، صدق الله حين وصف القوم بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧]، واللهِ! لو عظموا الله كما ينبغي ما أشركوا معه غيره.

أرأيت حقًّا لملك قوي من ملوك الدنيا، له حق على إنسان، أتجد هذا الإنسان وهو يعرف ما عليه هذا المَلِك من القوة والسطوة والقدرة والسلطان، أترى أنه ينتقص حقه؟ أو يأخذ شيئًا من حقه ويعطيه غيره؟ أيفعل هذا ؟ لا يفعله إلا من هو مستهتر بقدر هذا الملك.

العبادة حق خالص لله، فجاء هذا المشرك وصرف منها شيئًا لغير الله، أترى أنه عظَّم الله؟ أترى أنه قَدَره حق قدْره؟ لا واللهِ.

إذن: من كان بهذه المثابة هل يكون قد أتى بجُرم يسير أو جرم عظيم؟ إي والله، أتى بجرم عظيم.

ثانيًا: الشرك بالله ﷻ أعظم معاندة لله ﷾، لأنه مضادة للحكمة التي خلق الخلْق لأجلها، الله ﷻ يخلق الخلق لأجل أن يُوحَّد، فيأتي المشرك بضد ما أمر الله ﷾ وأراد، أترى معاندة أعظم من هذه المعاندة؟

ثالثًا: الشرك بالله أظلم الظلم، الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، والعبادة لا يجوز أن يُتوجه بها إلا لله ﷾، فجاء هذا المشرك فتوجه بالعبادة لغير الله، صرف العبادة ووضعها في غير محلها، ولذا كان أظلم الظالمين، هؤلاء المشركون سَوَّوْا بين الله وبين غيره، جعلوا ما لله ﷻ لغيره، جعل المشرك غير الله ﷻ مثلما يعتقده في الله ﷾، شبَّه غير الله بالله، ولذا يقولون: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء:٩٨-٩٨]، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ

كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ [الأنعام:١] يعني: يعدلون غير الله بالله، يسوون غير الله بالله. يا لله العجب! سبحان الله العظيم! يجعل غير الله مثيلًا لله ﷻ؟ نظيرًا له؟ أترىٰ ظلمًا أعظم من هذا الظلم؟

ما رأيكم لو أن إنسانًا قال: إن أعظم الجواهر.. ما أعظم الجواهر عند الناس اليوم؟ الألماس، هو أغلىٰ شيء فيما نعلم، الألماس الحر هذا الذي القطعة الصغيرة منه مبلغها مبلغ عظيم، ما رأيكم لو قال قائل: هذا الألماس ما شاء الله مثل قشر البصل، جاء بقشر بصل ووضعه بجواره وقال: ما شاء الله يشبهان بعضهما، هل هذا ظلم وإلا ليس بظلم؟ هل وضع القشر أو الألماس كل واحد منهما في موضعه؟ لا واللهِ، الله ﷻ المَلِك العظيم الكبير الواسع الحميد المجيد ﷻ، تجعل المخلوق الحقير الفقير مثله، فتتوجه له بمثل ما تتوجه لله؟ سبحان الله العظيم! أرأيت كيف أن الشرك ظلم عظيم؟ صدق الله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣].

رابعًا: الشرك فيه وصف الله ﷻ بما لا يليق به، لماذا يُشرك المشرك؟ المشرك ما أشرك إلا وهو يصف الله ﷻ بغير ما يستحق، ولذا يشرك، تجد أنه يعتقد في الله ﷻ ما يُعتقد في الملوك الظلمة الذين يحتاجون إلىٰ من يعطِّف قلوبهم، فيصرف شيئًا أو يدفع شيئًا إلىٰ شفعاء، إلىٰ مقرَّبين، حتىٰ يُليِّنوا قلب هذا الملك الظالم، فيعبدون غير الله لأجل أن يقربوهم زلفىٰ إلىٰ الله، ويتخذونه شفعاء عند الله ﷻ، أرأيت كيف أنه اعتقد في الله ﷻ ما لا ينبغي؟ ووصف الله بما لا ينبغي؟ أو أنه جعله مثل الملِك الذي يجهل أحوال الناس، فيحتاج إلىٰ من يرفع إليه الأخبار ويرفع إليه الأحوال، ويُعْلِمُه بحال المحتاج وحال الفقير حتىٰ

يقوم بالذي ينبغي عليه، هل هذا وصف الله ﷻ بما يليق به أو وصفه بضده ذلك؟ الله ﷻ أعلم العالمين ﷻ، علمه شامل بكل شيء ﷻ، لا يحتاج إلىٰ من يُعْلِمُه، ولا يحتاج ﷻ إلىٰ أحد من خلقه ألبتة جل ربنا وعز، بل هو الواحد الأحد الذي لا يُشفع ﷻ.

إذن: الشرك أعظم الذنوب، ولذا كان أعظم ما نهىٰ الله ﷻ عنه.

قلنا: أعظم ما نهىٰ الله عنه؛ لأنه أعظم الذنوب، ولأنه -ثانيًا- عقوبته أعظم العقوبات.

نعم، الشرك عقوبته التي توعد الله ﷻ عليها لا نظير لها في شيء مما حرم الله ألبتة، كما أخذنا هذا سابقًا.

فهو أولًا: الذنب الذي لا يغفره الله، حَكَمَ الله الذي لا يُبدل القول لديه أنه لا يغفر الشرك لمن وقع فيه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨] إلا في حالة واحدة: أن يتوب صاحبه منه، ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]، أما ما عدا ذلك لو مات صاحبه عليه فهذا يائس من رحمة الله، والعياذ بالله! خسارة تامة، لا أمل له في رحمة الله. نسأل الله السلامة والعافية.

اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئًا ونحن نعلم، ونستغفرك لما لا نعلم.

ثانيًا: أنه الذنب الذي يُحبط جميع الأعمال، لا شيء من الذنوب، لا شيء من المعاصي يبطل ويحبط جميع الطاعات إلا الشرك بالله ﷻ.

قلنا: إن الشرك الأكبر قطرة صغيرة منه تفسد بحارًا من الأعمال الصالحة، لو مات إنسان وقد تصدق بالملايين، لو مات إنسان وهو يقوم الليل كله،

لو مات إنسان وهو يصوم يومًا ويفطر يومًا، لو مات إنسان وقد حج عشرات المرات، لو مات إنسان وهو يختم القرآن كل يوم، لو مات إنسان وعنده من الأعمال الصالحة ما يملأ ما بين السماء والأرض، ولكنه مات مشركًا الشرك الأكبر بالله، ما النتيجة ؟ ما الذي بيَّن الله ﷻ في كتابه؟ قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ [الزمر:٦٥]، انتبه! الخطاب موجَّه للنبي محمد ﷺ الذي هو أعظم الخلق على الإطلاق.

﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر:٦٥]، مع أن النبي ﷺ وإخوانه من الأنبياء والمرسلين معصومون، فكيف بمن عداهم؟ معصومون من الوقوع في الشرك ونحن لسنا معصومين من الشرك.

إذن: هذا تنبيه لنا بالحذر من هذا الشرك.

الأمر الثالث والأخير: أن الشرك هو الذنب الذي يخلد صاحبه في النار، لا ذنب يخلد صاحبه في النار إلا الشرك، عافاني الله وإياكم من ذلك!



تتمات وتنبيهات

التنبيه الأول: أن سؤالًا قد يَرِد فيما يخص أمر الله ﷻ نبيَّه ﷺ باتباع ملة إبراهيم ﷺ، مع أن المقطوع به أن نبينا ﷺ أعظم قيامًا بحق التوحيد والدعوة إليه، فهو أعظم الخلق توحيدًا لله وإيمانًا به، صلىٰ الله علىٰ نبينا وسلم.

إذن: مع كون الفضل له فإنه يُؤمَر باتباع ملة إبراهيم حنيفًا، فما سبب ذلك؟ قال أهل العلم هاهنا أمورًا، والذي يتحصل -والله تعالىٰ أعلم- أن ذلك مرجعه إلىٰ أمرين -والعلم عند الله-:

أولًا: أنَّ السبق لإبراهيم عليه السلام زمنًا وأُبوَّة، فإبراهيم عليه السلام متقدم من حيث الزمن علىٰ نبينا محمد ﷺ، فناسَب أن يؤمر باتباع ملته، وبالتأكيد لا يمكن العكس.

ثم إن إبراهيم عليه السلام أبو النبي ﷺ، فهو ﷺ من ذرية إسماعيل بن إبراهيم، فهو أبوه، فناسب أن يكون الأمر باتباع ملة إبراهيم عليه السلام.

السبب الثاني: هو أن في هذا إقامة للحجة وإرغامًا لأعداء التوحيد، بيان ذلك: أن إبراهيم عليه السلام يعظِّمه جميع المخالفين، كل الأمم في الجملة تُعَظِّمُ إبراهيم ﷺ، فاليهود يعظمونه، والنصارىٰ يعظمونه، والمشركون -أعني: مشركي العرب- يعظمونه أيضًا، فكان في الأمر باتباع ملته ﷺ إقامة للحجة علىٰ هؤلاء وإرغامًا لهم، ما الذي يمنعكم من أن تؤمنوا بي وبرسالتي ولم آت بشيء جديد، إنما أنا متبع ملة من تعظمون ومن تعرفون وهو إبراهيم ﷺ.

إذن: لهذين الأمرين -والله تعالىٰ أعلم- أُمر النبي ﷺ باتباع ملة إبراهيم حنيفًا، وإن كان النبي ﷺ أعظم قدرًا وأعظم توحيدًا منه عليه السلام.

التنبيه الثاني يتعلق بالمسألة الثالثة التي ذكرها المؤلف رحمه الله وهي المتعلقة بالبراءة من المشركين، سبق بيان الحق في هذا الباب، وهو ما دل عليه الكتاب والسنة من وجوب التقرب إلىٰ الله سبحانه وتعالى ببغض كل من كفر بالله عز وجل وكذَّب النبي ﷺ ولم يستسلم لله بالدين الحق دين الإسلام، بشريعة محمد ﷺ الذي هو خاتم الأنبياء والمرسلين، فكل من لم يكن كذلك فإنه كافر بالله عز وجل، ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الفتح:١٣]، لا يكفي الإيمان بالله حتىٰ ينضم إليه الإيمان بالنبي ﷺ، لا تكفي إحدىٰ الشهادتين عن الأخرىٰ، شهادة أن لا إله إلا الله لا تغني عن صاحبها شيئًا ما لم ينضم إليها شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ. وهذا قد مضىٰ بيانه والتدليل عليه.

لكن بقيت مسألة وهي مسألة المعاملة.

إذن: عندنا جهتان منفكتان: جهة العقيدة القلبية، وهاهنا يجب علىٰ الإنسان أن يحب لله ويبغض لله، وأولىٰ من يُبغض في الله سبحانه وتعالى: هؤلاء الذين كفروا بالله وكفروا برسوله ﷺ وكفروا بالبعث وكفروا بدين الإسلام وشريعة محمد ﷺ.

أما المعاملة فباب آخر، فالمعاملة للكفار تختلف أحوالها بحسب حال هؤلاء الكفار، فالمحاربون منهم يُعامَلون بما يستحقون من المجاهدة في سبيل الله عز وجل بحسب الشروط الشرعية، وأما من لم يكن كذلك، إنما كان معاهِدًا وإنما كان مستأمنًا وللمسلمين معه أمان فمثل هذا يحكم العلاقة معه قول الله عز وجل:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨]، فمعاملتهم بالبر والإحسان لا حرج فيها.

وينبني على هذا جواز معاملتهم بالتجارة ونحوها، وهذا الأمر دل عليه السنة العملية للنبي ﷺ، فإنه كان يبايع اليهود الذين كانوا بالمدينة ولم يتحرج عن هذا ﷺ، وكذلك أصحابه.

وفي «الصحيحين» أن النبي ﷺ اشترى من يهودي طعامًا إلى أجل ورهنه درعه.

وفي «البخاري» من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعًا من شعير.

ولا سيما إذا انضم إلى هذا نية الدعوة وتأليف القلوب، فإن المعاملة الحسنة لها أثر عظيم في تقبُّل الدعوة كما لا يخفى، ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، ولذا فإن النبي ﷺ زار عمه أبا طالب وكان منه ما كان في آخر لحظات عمه يدعوه إلى الله جل وعلا، وكذلك زار ابن جاره اليهودي حتى أسلم وأنقذه الله عز وجل بهذه الاستجابة للنبي ﷺ من النار.

المقصود: أن العقيدة القلبية شيء والمعاملة الظاهرة شيء آخر. والله تعالى أعلم.

تنبيه ثالث يتعلق بقول المؤلف رحمه الله: (وأعظم ما أمر الله به التوحيد، وأعظم ما نهى عنه الشرك) والتوحيد مصدر وحَّد يوحد توحيدًا، وهو جعل الشيء واحدًا، أو اعتقاد الشيء واحدًا، كل ذلك توحيد في اللغة.

والتعريـف الاصـطلاحي للتوحيـد: هـو إفـراد الله ﷻ بالعبـادة مـع اعتقـاد وحدانيته في الربوبية والأسماء والصفات. هذا هو التوحيد، هذا هو أعظم ما أمر الله ﷻ به.

ودل استقراء الكتاب والسنة على أن هذا التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام، هذا الأمر ليس وليد أفكار العلماء كما يظنه الجاهلون، إنما هو ثمرة استقراء النصوص، استقراء النصوص أرشد إلى أن التوحيد ينقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة، كما أن استقراء لغة العرب دل على أن الكلام اسم وفعل وحرف، وهذا ليس وليد عالم من علماء النحو هو الذي اخترع هذا الشيء، إنما هذا نتاج استقراء كلام العرب، كذلك الشأن في هذا الباب، استقراء أدلة الكتاب والسنة أنتجت أن التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام: إلى توحيد الله ﷻ في ربوبيته، وإلى توحيده سبحانه في الأسماء والصفات الحسنى، وفي عبادته ﷻ.

والأدلة على هذا تنقسم إلى قسمين:

أدلة دلت على كل قسم من هذه الأقسام بانفراد، يعني: أدلة دلت على إفراد الله ﷻ بالربوبية، **وأدلة** دلت على إفراد الله ﷻ بأسمائه وصفاته، وأدلة دلة على إفراده تعالى بالعبادة.

والقسم الثاني: هو الأدلة التي دلت على هذه الأقسام مجتمعة، وهذا قد دل عليه فاتحة الكتاب، ودل عليه خاتمة الكتاب، يعني: خاتمة المصحف وهي سورة الناس، وكذلك جملة من الأدلة بين ذلك.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، فقوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ دليل علىٰ إثبات الربوبية، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ﴾ هذا دليل علىٰ توحيد الألوهية، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ دليل علىٰ توحيده في أسمائه وصفاته.

كلمة التوحيد كلمة مأثورة عن النبي ﷺ وعن أصحابه، فهي كلمة شريفة دلت عليها النصوص.

فمن تلك الأدلة: أن النبي ﷺ -كما في «الصحيحين»- لما بعث معاذاً إلىٰ اليمن قال: «**إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلىٰ أن يوحدوا الله**».

كذلك الأمر فيما خرّج الإمام أحمد من قصة عمرو بن العاص رضي الله عنه، فإن أباه العاص بن وائل هلك في الجاهلية وكان قد نذر أن ينحر مائة من الإبل، فذبح هشام بن العاص أخوه رضي الله عنه حصته، وأما عمرو فجاء يسأل النبي ﷺ فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**أما أبوك فلو كان أقر بالتوحيد فتصدقت عنه وذبحت عنه نفعه ذلك**»، فالشاهد أن النبي ﷺ نص علىٰ كلمة التوحيد.

كذلك عند «أحمد» وغيره من حديث عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ ذبح في الأضحىٰ كبشين أملحين موجوءين، ذبح أحدهما عنه وعن أهل بيته، والثاني عن أمته ممن لم يضحِّ ممن شهد لله بالتوحيد ولنبيه ﷺ بالرسالة ، هكذا جاء اللفظ (بالتوحيد).

كذلك الأمر في حق أصحاب النبي ﷺ فإنهم كانوا يستعملون هذه الكلمة، ولذا في «صحيح مسلم» في حديث جابر رضي الله عنه في ذِكْر حجة النبي ﷺ وهو الحديث الطويل المعروف بحديث جابر رضي الله عنه، وفيه أنه قال: إن النبي ﷺ لما طاف بالبيت صلى ركعتين، قرأ في إحداهما بالتوحيد وقل يا أيها الكافرون.

فالتوحيد: سورة الإخلاص، فاستعمل كلمة (التوحيد)، في أدلة كثيرة غير هذه الأدلة تدل على أن هذه الكلمة كلمة مأثورة عن النبي ﷺ وعن أصحابه.

أما الشرك فإنه ضد التوحيد كما قلنا، ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء:٣٦]، وكل أمر بالعبادة فهو أمر بالتوحيد.

والشرك هو جعْل شريك مع الله عز وجل في شيء من خصائصه ، هذا هو الشرك.

وهذا الشرك على وزان التوحيد، فكما أن التوحيد ينقسم إلى الأقسام الثلاثة المذكورة فإن الشرك بحسب موضوعه ينقسم إلى الأقسام ذاتها، فثمة شرك في الربوبية، وشرك في الألوهية، وشرك في الأسماء والصفات.

وسيأتي حديثٌ إن شاء الله في أعطاف كلام المؤلف رحمه الله عن هاتين المسألتين: مسألة التوحيد ومسألة الشرك.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ التِي يَجِبُ عَلَىٰ الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟

فَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ.

الشَّرح

بدأ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالكلام عن الأصول الثلاثة التي هي موضوع هذه الرسالة، والتي هي عنوان هذه الرسالة، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ سلك في هذه الرسالة أسلوبًا تعليميًا قائمًا علىٰ السؤال والجواب، وهذا أشحذ للذهن وأثبت للحفظ.

والأصول: جمع أصل، والأصل: ما ينبني عليه غيره ، وكل الدين قائم ومبني علىٰ هذه الأصول الثلاثة، وهي: معرفة العبد ربه، ومعرفة العبد دينه، ومعرفة العبد نبيه ﷺ.

كيف لا يكون الأمر كذلك والابتلاء والامتحان في هذه الدنيا إنما هو علىٰ هذه الأمور الثلاثة؟ ولذا ما إن تنتهي هذه الحياة حتىٰ يكون السؤال عن هذه الأسئلة الثلاثة، إذا وُضِع الإنسان في قبره يُسأل عن هذه الأصول الثلاثة هل أتىٰ بها وحققها أم لا، كل واحد منَّا بل كل إنسان من المسلمين والكافرين إذا وُضِع في قبره جاءه ملكان وسألاه أسئلة ثلاثًا، يقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ وماذا كنت تقول في هذا الرجل الذي بُعِث فيكم؟ فالموفَّق يثبته الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧]، وأما الشقي -ونعوذ بالله من الشقاء- فإنه لا يُوفَّق للسداد، ولا يُثبَّت في هذا المقام

العظيم، فيقول: هاه هاه، لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته. نسأل الله السلامة والعافية! فهذا إبَّانُ الشقاء والعذاب، والعياذ بالله! فإنه يتبع هذا الجواب الفاسد وهذا الرسوب في الامتحان يتبعه عذاب البرزخ، وما بعده أشد وأنكىٰ.

إذن: أهم مهمات الإنسان في هذه الحياة أن يسعىٰ جاهدًا في تحقيق الإجابة، والإجابة ليست شيئًا يُحفظ باللسان ليقول الإنسان بعد ذلك: إنني أجيب عن هذه الفتنة وعن هذه الأسئلة في القبر بناءً علىٰ ما حفظت، إنما ستجيب -يا عبد الله- بناءً علىٰ ما قلت في الدنيا، وبناءً علىٰ ما اعتقدت، وبناءً علىٰ ما عملت.

ووالله إن الإنسان في ذلك المقام لا يمكن أن يصدر منه إلا ما كان حيًا عليه ومات عليه، الموفق الذي عاش وقد أدرك الجواب اعتقادًا وقولًا وعملًا هو الذي سيجيب بالسداد، والمخذول من خذله الله سبحانه وتعالى.

إذن: هذا الموضوع ليس موضوعًا من الترف الفكري، وليس موضوعًا هامشيًا، وليس موضوعًا ثانويًا، كلا واللهِ! إنه لأهم المهمات علىٰ الإطلاق، فالسعادة والشقاوة مبنية علىٰ تحقيق الجواب عمليًا واعتقاديًا في هذه الحياة علىٰ هذه الأسئلة الثلاثة.

فالله الله بالعناية بها، معرفة العبد ربه، ومعرفة العبد دينه، ومعرفة العبد نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم.

وتنبه -يا رعاك الله- إلىٰ أن المعرفة وحدها لا تكفي، إنما مراد المؤلف رحمه الله المعرفة بلوازمها، بمعنىٰ: أن تعرف ثم أن تعمل بلازم ذلك، فإذا عرفت الله عز وجل

عرفته بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته فإنه يلزمك بعد ذلك أن تقوم بالواجب وهو أن توحد الله ﷻ فعلًا، وأن تعبده ﷻ وفق ما شرع نبيه محمد ﷺ، وكذلك الأمر بالنسبة لمعرفة دين الإسلام، فواجب أن يلتزم الإنسان دين الله ﷻ الحق ويُسلِم وجهه لله بالإذعان للإسلام، يستسلم لله بالتوحيد، وينقاد له ولرسوله ﷺ بالطاعة.

كذلك الأمر بالنسبة للنبي ﷺ، لابد إذا عرفه أن يذعن له بالواجب عليه تجاهه من المحبة والتوقير والطاعة والتقديم، تقديم قوله وسنته على كل قول وسنة ونظام وقانون وعُرْف.

إذن: المعرفة المراد بها هاهنا المعرفة بلوازمها، وإلا فالمعرفة المجردة لا تنفع صاحبها.

إبليس أَمَا عرف الله؟ هل نفعه ذلك عندما استكبر على الله ﷻ؟ الجواب: لا.

إذن: هي معرفة بلوازمها.





الأصــل الأول

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ التِي يَجِبُ عَلَىٰ الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟

فَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ.

[الأصل الأول]

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟

فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّىٰ جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ، وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ.

الشَّـرح

هذا هو الأمر الأول: معرفة العبد ربه.

إذا قيل لك -يا عبد الله-: من ربك؟ والرب -كما مر معنا في دروس الأسماء والصفات- هو:

- المالك.
- السيد.

- المتصرف
- المربي.

هذا ما ترجع إليه جُلُّ أقوال علماء اللغة في معنىٰ الرب، وكلها يستحقها الله ﷻ، فهو السيد، وهو المدبر المتصرف، وهو المالك، وهو المربي، والمؤلف رحمه الله أشار هاهنا إلىٰ المعنىٰ الذي يتعلق بالتربية، قال: (رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّىٰ جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ).

(ربي الله) الله هو الرب، من أسمائه الحسنىٰ ﷻ: الرب، وجميع معاني الجلال والفعل والقدرة والإحسان راجعة إلىٰ هذا الاسم، ولذا كان أحد أعظم أسماء الله الحسنىٰ الثلاثة، أعظم الأسماء الحسنىٰ والتي تدل علىٰ معاني الجلال والجمال والإحسان والكمال لله ﷻ والأسماء الحسنىٰ ترجع إليها وتفصيلٌ لها هي اسمه تعالىٰ: الله، واسمه تعالىٰ: الرب، واسمه تعالىٰ: الرحمن.

الرب، قال: (الذي ربَّاني) من التربية، فالله ﷻ ربَّىٰ عباده، والتربية: هي القيام علىٰ الشيء وتنشئته وإصلاحه حتىٰ يبلغ غايته، والله ﷻ هو وحده الذي ربىٰ جميع العالمين بنعَمه. في بعض النسخ: (بنعمته). وكلاهما يدلان علىٰ المعنىٰ نفسه، فإذا قلنا: (بنعمه) فالنعم جمع نعمة، وإذا قلنا: (بنعمته) فإن المراد الجنس، فإن هذه الكلمة مفرد مضاف، والمفرد المضاف يعمُّ، ويكون هذا علىٰ منوال قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨]، فالمقصود كل نعم الله ﷻ.

وهذه النِّعم تنقسم إلى قسمين:

- نِعَمٌ حسية.
- نِعَمٌ معنوية.

أما النِّعم الحسية فهي التي بها قيام الحياة الحسية للناس، والله جَلَّ وَعَلَا هو الذي رزق وأنعم وأغدق علىٰ عباده بأصناف هذه النعم، من الهواء والماء والطعام وما إلىٰ ذلك، فالله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي ينعِم بهذه النعم، لا أحد سواه يكون منه ذلك جل ربنا وعز.

وأما النعم المعنوية فهي التي بها قيام الحياة القلبية التي هي حياة الروح، مِن الهداية ونور القلب، وما إلىٰ هذه المعاني، فهذا كله نعمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي ينعِم بذلك، ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣].

الله جَلَّ وَعَلَا هو الرب وحده لا شريك له، ﴿هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [فاطر:٣]، ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر:٦٢]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٠١].

ومن ذلك الدليل الذي سيذكره المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢]، فالرب هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والربوبية له جَلَّ وَعَلَا، لا يُشارَك في هذا من أحد ألبتة.

ومعاني الربوبية ترجع إلىٰ الخلق والرَّزق والتدبير، هذه الأصول الثلاثة بقية معاني الربوبية جميعًا ترجع إليها: الخلق والرَّزق والتدبير.

قال: (وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ)، لما بيَّن أن الربوبية وصفْه وحقه بيَّن أن الألوهية وصفْه وحقُّه، فلأنه الرب كان الإله، الدليل على ألوهيته: ربوبيته، لما كان الله ﷻ هو الرب حقًا استحق أن يكون الإله حقًا، وهذا ما سنبينه -إن شاء الله تعالى- بالتفصيل.

بابُ توحيد ألوهيته: توحيد ربوبيته، فقد دل على أنه الإله الحق كونه الربَّ الحق.

والإله فعال بمعنى مفعول، كتاب بمعنى مكتوب، بساط بمعنى مبسوط، فإله بمعنى مألوه، ومادة (أَلَه) تدل على معنى: العبادة، أَلَه يأله بمعنى: عَبَد يعبد، وبالتالي فالإله بمعنى المعبود، قال: (فهو معبودي ليس لي معبود سواه)، لما آمن الإنسان بربوبية الله ﷻ توجه القلب وتوجهت الجوارح لله ﷻ وحده بالعبادة.

إذن: الله ﷻ لما أثبت أن له الربوبية -ومن أعظم أوجهها الخلق- قال: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر:٣]، ثم أضاف الرَّزق ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر:٣] لما أثبت هذا أثبت ألوهيته وعبادته وحده فقال: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [فاطر:٣].

إذن: الدليل على إلهيته: ربوبيته ﷻ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢﴾ [الفاتحة:٢].

الشَّرح

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢﴾ هذه بعض كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ -كما عوَّدنا- يقيم الحكم والمسألة بدليلها، وشتان بين من يبني دينه واعتقاده علىٰ الدليل وبين من يكون إيمانه عن تقليد، فالإيمان المبني علىٰ التقليد الذي يتبع فيه الإنسان غيره دون أن يكون إيمانًا راسخًا مبنيًا علىٰ دليل، هذا ما أقرب سقوطه عند العواصف الهوجاء التي تعصف بالإيمان، نسأل الله الثبات.

قال: (وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢﴾ [الفاتحة:٢]).

الحمد -علىٰ التحقيق- هو: الثناء علىٰ المحمود مع محبته وإجلاله وتعظيمه، متىٰ ما كان ذلك كذلك كان الحمد حمدًا.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢﴾ الله هو وحده لا شريك له رب العالمين، والرب علمنا معناه.

قوله: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ٢﴾ جمع عالَم، قال بعضهم: إنَّ العالَمين اسم جمع لا مفرد له، والتحقيق أنه جمع، هذه الكلمة جمع مفردها: عالَم، والعالَم: الصنف من المخلوقات، كل صنف من المخلوقات يسمىٰ: عالمًا، فالنبات عالَم، والإنسان عالَم، والدوابُّ عالَم، والبحار عالَم، وهكذا.

وسُمِّي العالَم عالَمًا؛ لأنه عَلَم علىٰ خالقه، يعني: سُمِّي الخاتَم خاتمًا لأنه يُختَمُ به، سُمِّي الطابَع طابعًا لأنه يُطبَع به، كذلك سُمِّي العالَم عالمًا؛ لأنه يُعلَم به خالقه وبارئه.

إذن: الله ﷻ رب العالمين، جميع العالمين الله ﷻ ربها ﷻ.

وإثبات الربوبية لله ﷻ أمر أساس في التوحيد، فأول ما يقع في القلب من أنواع التوحيد: توحيد الله ﷻ في ربوبيته، ثم يترقىٰ بعد ذلك إلىٰ توحيده سبحانه في العبادة وتوحيده في الأسماء والصفات.

إذن: توحيد الربوبية هو الأصل والأساس، والقاعدة عند العلماء: أنه لا يغلط في الألوهية إلا من لم يوفِّ الربوبية حقها.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَكُلُّ مَنْ سِوَىٰ اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ.

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟

فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ.

الشَّرْح

انتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ الدليل علىٰ ربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كيف ثبت عندك أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو ربك وهو رب العالمين؟ هذا بحث في الدليل علىٰ ربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا موضوع من الأهمية بمكان، وذلك أن التشكيك في هذا العصر عظيم فيما يخص هذا الباب: باب إثبات ربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الأدلة على ربوبية الله جَلَّ وَعَلَا يمكن أن نجعلها في أربعة أقسام:

أولًا: الدليل الشرعي.

وثانيًا: الدليل الفطري.

وثالثًا: الدليل الحسي.

ورابعًا: الدليل العقلي.

أربعة أدلة.

أولًا: الدليل الشرعي.

وكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وسنة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلاهما مليء بالأدلة التي دلت علىٰ أن الربوبية لله سبحانه لا شريك له فيها، ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾

[الأنعام:١٦٤] وكلمة (كل) تدل علىٰ العموم، يعني: لفظ من ألفاظ العموم، صيغة من صيغ العموم، وبالتالي فإن ربوبية الله ﷻ ثابتة لجميع الأشياء لا لبعضها، الله رب كل شيء ﷻ.

وعلىٰ هذا أدلة كثيرة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

الدليل الثاني: الدليل الفطري.

الفطرة هي: الجِبَلَّة التي جُبِل الناس عليها، وهذا يرجع إلىٰ نشأتهم، في أصل نشأتهم كان العلم بالله ﷻ، العلم والإقرار بربوبيته ﷻ، وإذا ثبتت ربوبيته فبالضرورة ثبت وجوده ﷻ، يعني: إذا تكلم العلماء عن موضوع الربوبية فإن هذا قد تضمن إثبات وجوده ﷻ.

ولذا إثبات ربوبيته يُردُّ به علىٰ طائفتين وليس علىٰ طائفة واحدة، يُرَدُّ به علىٰ المشركين في الربوبية الذين يجعلون مع الله ﷻ شريكًا في الربوبية، كالذين يعتقدون في السادات والأولياء أو الأنبياء أنهم يدبرون شؤون هذا الكون مع الله ﷻ، فهذا شرك في الربوبية.

والصنفُ الآخر: هم الملاحدة الذين ينكرون وجود الله ﷻ بالكلية، وهؤلاء الفتنة بهم عظيمة في هذا العصر، ولم يكن الأمر كذلك في السابق.

إنكار وجود الله ﷻ شيء شاذ علىٰ مدىٰ التاريخ، منذ مبدأ البشرية وإلىٰ العصور المتأخرة، إلىٰ -تقريبًا- حدود القرن السابع عشر الميلادي، وما قبل ذلك أن يوجد اعتقاد أو نهج أو مذهب يسمىٰ الإلحاد ويلتزم به فئام وطوائفُ من الناس هذا شيء مفقود، هذا شيء لا وجود له، إنما وُجِد علىٰ مدىٰ التاريخ

شُذَّاذ، تجد في الحقبة، تجد في القرن شخصًا يُشار إليه أنه كان ملحدًا.

ولذلك إذا أردت أن تعدد في التاريخ الذي تعلم ستجد أنك تعدد فتقول: فرعون، وتقول: النمرود، هات ثالثًا، حتىٰ في الغرب، الغرب الذي هو الآن منبع الإلحاد، الذي يتدفق بهذا البلاء وهذا الماء الآسن، نسأل الله العافية والسلامة! الذي توزع علىٰ أنحاء العالم من تلك الجهة، حتىٰ الغرب ما كان يُعرف فيه شيء يسمىٰ الإلحاد، إلىٰ القرن السابع عشر أو أواخره -أيضًا- والقرن الثامن عشر ظهر الأمر أكثر، والقرن التاسع عشر فشا الأمر أكثر وأكثر، أما قبل ذلك فالإلحاد لا يكاد يُعرف مذهبًا، إنما تجد أنه يُذكر عن شخص من الأشخاص أنه يُنسب إلىٰ هذا المذهب وهو إنكار الله ﷻ بالكلية.

هذا المذهب مذهب مضاد للفطرة، ولذلك الملايين من البشر، بل أكثر من ذلك مضوا وانتهوا وما عرفوا شيئًا أو سمعوا شيئًا عن إنكار الخالق ﷻ؛ لأن هذا مضاد للفطرة التي فطر الله الخلق عليها، قال النبي ﷺ كما خرج الشيخان في «الصحيحين»: «كل مولود يولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء. ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه -راوي الحديث-: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾ [الروم:٣٠]».

إذن: العباد مفطورون علىٰ إثبات وجود الله، بل علىٰ الإقرار بربوبيته، بل علىٰ الإقرار بألوهيته.

فيما يتعلق بوجود الله ﷻ، وأن هذا الكون له خالق يدبره ويصرف شؤونه، هذا أمر مستقر في فِطَر الناس أجمعين، ولذا تظهر هذه الفطرة جليَّة في حال

الشدائد، حتىٰ في حال هؤلاء الذين يعلنون إنكار الله ﷻ، إنك واجدهم ولابد في حال الشدة والكرب يعترفون بالله ويلجؤون إلىٰ الله، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ [يونس:١٢]، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر:٨].

واللهِ! حتىٰ هؤلاء الذين يعلنون صباح مساء إنكار وجود الله ﷻ، في اللحظات الحرجة عند الاضطرار تجد نفوسهم تتجه إلىٰ الخالق ﷻ مذعنين ومقرين، هذا شيء كامنٌ في نفوسهم، وربما أظهروه في الدنيا وسيظهر في الآخرة، الكافر يُخفي ما لا يُظهِر، ولذا يقول الله ﷻ عنهم يوم القيامة: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام:٢٨].

إذن: هناك أشياء يكتمونها، ومن ذلك هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها في وجوده وفي ربوبيته ثم في ألوهيته ﷻ، أما هذا الإنكار فإنه إنكار بالظاهر ولكن الحقيقة أنهم يقرون في أنفسهم، لكنها المكابرة.

ولذا انظر إلىٰ أعظم هؤلاء المنكرين لوجود الله ﷻ وهو فرعون، انظر ماذا قال في حقه موسىٰ عليه السلام: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ [الإسراء:١٠٢] انظر إلىٰ أن العلم قد ثبت عند هذا الإنسان، ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢].

إذن: كان يقر ولكنه يجحد عن علم، ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام:٣٣].

إذن: الكفار الذين ينازعون في هذا الأمر الـمُسَلَّم فطرتهم تكذبهم، وعند الشدائد يظهر ذلك، ولذا انظر إلىٰ أمر آخر يتجلىٰ فيه ظهور هذه الفطرة، كيف أن كل إنسان إذا وُلِد فإنه يكون مفطورًا علىٰ أن لكل حادث محدثًا، وعلىٰ أن لكل أثر مؤثرًا، وعلىٰ أن كل مصنوع له صانع، وعلىٰ أن كل فعل له فاعل.

ولذا تجد طفلًا صغيرًا لو ضُرِب من الخلف خلسة ماذا يصنع؟ يلتفت صارخًا قائلًا: من ضربني؟ هل درس قانون السببية؟ وعلم بعد ذلك أن كل حادث لابد له من محدث؟ الجواب: لا، ما الذي جعله يلتفت وينظر ويقول: من ضربني؟ إنها الفطرة، ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾ [الروم:٣٠].

ولذا لو تخيلت -يا رعاك الله- أني أمشي معك في صحراء قاحلة، ثم وجدنا أمامنا قصرًا مشيدًا جميلًا كبيرًا، فإذا التفت إليك قلت: انظر إلىٰ هذا القصر كيف وُجِد صدفة بدون بانٍ، بدون أن يصنعه صانع، إذا التفت إليه ماذا ستقول؟

تقول: هذا ضرب من الجنون ، كيف يوجد هذا القصر المَشيد هكذا بلا سبب وبلا صانع صنعه؟ هذا لا شك أنه جنون مخالف للعقل.

إذن: هذا الكون كله بما فيه ومن فيه، أيُعقل عند أغبىٰ الناس وأجهلهم أن يكون موجودًا هكذا صدفة بلا خالق، بل وخالق متصف بصفات بالغة في الحسن والعظمة، الغاية ، لابد أن يكون هذا الكون قد خلقه خالق بلغ الغاية في القدرة والعلم والحكمة والعزة ﷻ.

إذن: فطرة الله ﷻ لا شك ولا ريب أنها قائمة علىٰ الإقرار بوجود الله ﷻ، بل بربوبيته ﷻ، ولذا كان وجود الله ﷻ أجلىٰ للعقول من كل شيء، وأظهر

للأبصار من الشمس للأبصار، فكل شيء دليل علىٰ وجود الله ﷻ، قال العلماء: علىٰ إثبات الله طرائقُ تدل عليه ﷻ بعدد الأنفاس، بعدد الأنفاس هناك طرائق تدل علىٰ الخالق ﷻ.

وإذا كان الإنسان يوقن بأيِّ شيء فإيقانه بوجود الله وربوبيته أعظم، ولذا تأمل معي -يا رعاك الله- لما تفوَّه فرعون بإنكار وجود الله ﷻ، حينما قال مستنكرًا: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء:٢٣]، قال موسىٰ عليه السلام: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:٢٤]، إذا كنت توقن ومن معك بشيء فوجود الله ﷻ أوضح وأجلىٰ وأولىٰ بالإيقان، ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:٢٤]، إذا كنتم توقنون بأي شيء فوجود الله ﷻ أوضح وأصرح وأظهر، وعند ذلك فرعون ماذا يقول؟ قال فرعون: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء:٢٥-٢٨]، يا هذا، أنت إلىٰ الجنون أقرب، الذي ينكر وجود الله ﷻ هو الذي لا عقل له، ولذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء:٢٨]، لست أنا المجنون الذي أُثْبِتُ وجود الله ﷻ وربوبيته وألوهيته ﷻ، إنما أنت إلىٰ ذلك الجنون أقرب، قال: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء:٢٨].

فالفطرة والعقل كلاهما قد تظافرا علىٰ إثبات وجود الله ﷻ وربوبيته.



بدأنا الكلام عن الأمر الأول: وهو معرفة الله ﷻ بربوبيته، وقلنا: إن هذا قد دل علىٰ ثبوته -أعني: علىٰ ثبوت ربوبية الله ﷻ وأن الله وحده هو الرب، أي: الخالق الرازق المدبر ﷻ- ذكرنا أن الأدلة علىٰ هذا تتنوع إلىٰ الأدلة الشرعية، وإلىٰ الأدلة الفطرية، وإلىٰ الأدلة العقلية، وإلىٰ الأدلة الحسية.

تكلمنا عن الدليلين الأولين، وقلنا: إن الشرع قد جاءت فيه أدلة كثيرة تدل علىٰ ثبوت ربوبية الله وحده لا شريك له، وذكرنا -أيضًا- أنَّ العباد مفطورون علىٰ وجود الله سبحانه وعلىٰ ربوبيته جل ربنا وعز.

ولأجل هذا رُسُل الله ﷻ قالوا في حق المنكرين: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [إبراهيم:١٠]، الشك إنما يَرِدُ فيما يمكن حصول الريب في شأنه، أمّا والله ﷻ أظهر من كل شيء، وأوضح من كل شيء، وهو الدليل علىٰ كل شيء؛ فكيف يكون ثمة شك في ثبوت ربوبيته ﷻ؟ والآية وإن كان الصحيح من كلام أهل التفسير فيها أنَّها متعلقة بالألوهية، إلا أنها دلت علىٰ ثبوت وجوده وربوبيته من باب أولىٰ، فإذا كان الله سبحانه هو الإله الحق لا شك في هذا ولا ريب فمن باب أولىٰ أن يكون الله ﷻ هو الرب، وأن وجوده ثابت لا شك فيه ﷻ.

وهاهنا قد يَرِد سؤال وهو: إذا كان الشأن في وجود الله ﷻ وربوبيته أنَّه أمر فطري لا يحتاج إلىٰ كثير بحث واستدلال، فلم جاء في الأدلة ذِكْر هذا الأمر وبيانه والاستدلال عليه وحكاية المناظرة فيه مع الشذاذ المنكرين مع أن الموضوع فطري؟

والجواب: أنَّ هذا له فوائد كثيرة:

أولًا: أن زيادة الأدلة زيادة في الطمأنينة، الشيء إذا ثبت بدليل أو دليلين فإنه قد يفيد اليقين، لكنه إذا ثبت بعشرين أو ثلاثين أو أربعين دليلًا فإن اليقين والطمأنينة به تكون أعظم، وبالتالي هذا من باب تكثير الأدلة زيادة في الطمأنينة واليقين، والمقام لا شك أنه يستحق ذلك.

الأمر الثاني: أن الأمر قد يكون فطريًا: نعم، ولكن ثمة نوازع تؤثر فيه، الفطرة قد يعرض لها ما يغيرها أو يضعفها، وهذه الدنيا بما فيها من أنواع الشبهات والشهوات، وبما فيها من نشاط لشياطين الإنس والجن فإنهم قد يَنْشَطون في بَثِّ الشُبَه التي تؤثر في القضايا الفطرة، فحينئذٍ يكون الاستدلال علىٰ هذا الأمر نافعًا للعبد في حال الضعف، في حال ورود الشبهة، في حال أن لبَّس عليه مُلبّس من شياطين الإنس والجن فإنه سيجد من الأدلة ما يعينه علىٰ الرجوع إلىٰ الفطرة التي فطره الله ﷻ عليها.

وأمرٌ ثالث وهو: أن الله ﷻ يعلم كل شيء، فعَلِمَ بعلمه الواسع الشامل أن ثمة أناسًا سترتكس فطرتهم، وتضل عقولهم وأفهامهم، ينكرون وجود الله ﷻ، وهذا ما كان في هذا الزمان المتأخر، هذا العصر الحديث الذي نعيش فيه فتنة الإلحاد فيه فتنة عظيمة لا توازيها فتنة علىٰ الإطلاق، التيار الإلحادي تيارٌ يُدعىٰ إليه بأنواع من الدعايات والوسائل والأساليب، فمن الأهمية بمكان أن يكون عند المسلم لا سيما عند العلماء وطلبة العلم من الأدلة الشرعية ما يتسلحون به، وما يكون عونًا لهم -بتوفيق الله ﷻ- علىٰ الوقوف أمام هذه الفتنة التي عمَّت

وطمت. والله المستعان!

إذن: هذا الموضوع لم تخلُ الآيات والأحاديث من التنبيه عليه ومن الاستدلال عليه، وذلك لما قد علمت من هذه الفوائد وغيرها.

وهذا يجرُّنا إلىٰ موضوع ذي صلة بما سبق، وهو: أن هذا المقام الذي يتعلق بإثبات وجود الله ﷻ وربوبيته يَكْثُرُ فيه الوسواس، الشيطان ينفذ إلىٰ بعض النفوس فيبثُّ فيها من الشُّبه الشيء الكثير، وحرَّك تَرَ. فإن من يخالط الناس ويستمع إلىٰ مشكلاتهم ولا سيما في مرحلة الشباب فإنه يجد عند طائفة من الشباب مشكلات، ويجد عندهم وساوس، يجد عندهم شبهات تقدح في هذا الأمر العظيم، وهذا ما قد أخبرنا به النبي ﷺ وهو أن الشيطان يأتي، قال: «**إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول: هذا خلقه الله، فمن خلق الله؟**» هذه وسوسة قد توجد في صدور بعض الناس بفعل الوسواس الخناس.

إذن: ما الذي علىٰ الإنسان أن يفعله إذا ورد عليه وارد من هذا الجانب؟

الجواب: أولًا: أن يعلم الإنسان أن هذه الوساوس التي تَعْرِضُ عليه، سواء تعلقت بوجود الله سبحانه، أو تعلقت ببعض الأحكام الفقهية كالطهارة والصلاة والطلاق وما إلىٰ ذلك مما يكثر في حياة الناس -مع الأسف الشديد- حصول الوسوسة فيه.

أقول: ينبغي أولًا أن يعلم الإنسان أن هذه الوسوسة إنما هي من تسلط الشيطان علىٰ الإنسان، والإنسان لا ينجيه من عدوه الشيطان إلا ربه الرحمن ﷻ،

وإذا اعتصم بالله ﷻ وأشغل نفسه بذكره والثناء عليه ودعائه فليبشر أنه سيكون في حصن حصين من الشيطان، قال ﷺ كما في حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه: «وكذلك الإنسان لا يُحْرِزُ نفسه من الشيطان إلا بذكر الله»، اعتصم بالله وسيعافيك الله من هذه الوسوسة.

الأمر الثاني: أنَّ النبي ﷺ علمنا بعض توجيهات نافعة في إحراز الإنسان نفسه وإيمانه ضد هذه الشبهات، خذ نفسك بهذه التوجيهات النبوية، فإنها علاج ناجع لما قد يَرِد علىٰ القلب من هذه الوساوس.

أول ذلك: إذا جاءك الشيطان فقذف في نفسك شيئًا من هذه الوساوس فقل: آمنت بالله ورسله.

ثانيًا: قل: الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد.

ثالثًا: انفث عن يسارك ثلاثًا، النفث وَسَطٌ بين التفل والنفخ.

رابعًا: استعذ بالله من الشيطان الرجيم ، استعذ بلسانك وقلبك.

خامسًا: انتهِ. يعني: ألزِم نفسك وجاهد نفسك علىٰ أن تقطع حبال التفكير في هذا الموضوع وأبشر بالخير، واللهِ ليذهبنَّ عنك ما تجد، أقول هذا تصديقًا لخبر رسول الله ﷺ، انتهِ وستجد من ربك ما يسرك، جرِّب هذه الأدوية النبوية الناجعة الثابتة عنه ﷺ في الأحاديث الصحيحة، وقد أعطيتك خلاصتها وأبشر بالخير.

إذن: هذا ما يتعلق بالدليل الثاني وهو الفطرة.

الدليل الثالث: الدليل العقلي، وهذا باب واسع، والكلام فيه كثير، لكني سأقف عند دليل عقلي شرعي واحد وهو المسمىٰ عند العلماء بدليل الخلق، أو بدليل الأثر، دليل الأثر علىٰ المؤثِّر، قد يعبِّرون بدليل الخلق، وقد يعبرون بدليل الأثر علىٰ المؤثِّر.

وهذا الدليل قد جاء التنبيه عليه في كتاب الله ﷻ، فقال تعالىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥﴾ [الطور:٣٥]، هذا المقام الاحتمالات الممكنة بالسبر الصحيح ترجع إلىٰ ثلاثة احتمالات لا رابع لها. انتبه!

أولًا: أن يكونوا قد خُلِقوا من غير شيء، خُلِقوا من العدم، هذا الاحتمال الأول، وهو احتمال غير صحيح؛ لأن العدم لا شيء، وفاقد الشيء لا يعطيه، العدم يعني عدم وجود، لا وجود، فكيف يوجِد اللاوجود وجودًا وهو غير موجود؟

إذن: كونهم وُجِدوا من لا شيء قضية مرفوضة عقلًا، العقل يمتنع عن أن يقبل ذلك.

إذن: هذا الاحتمال الأول.

الاحتمالُ الثاني: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥﴾ يعني: هم خلقوا أنفسهم، وهذا احتمال باطل عقلًا أيضًا؛ لأن المخلوق لا يكون خالقًا، المخلوق محتاج إلىٰ من يُخرِجُه من حيِّز العدم إلىٰ الوجود، وهذا يدل علىٰ أنه ممكن ليس بواجب، وجوده ليس ذاتيًا، إنما هو طارئٌ عليه، ليس ذاتيًا، لأنه لو كان ذاتيًا لم يزل

موجودًا، في كل وقت ينبغي أن يكون الإنسان المعين موجودًا، لكننا نعلم بالحس والمشاهدة الضرورية أنه وُجِد بعد أن لم يكن شيئًا، ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان:١]، لم يكن، غير موجود، أنت قبل ثلاثين غير موجود، لو كان وجودك ذاتيًا لكان ينبغي أن تكون موجودًا قبل ثلاثين وثلاثمائة وثلاثة آلاف وثلاثة ملايين سنة، لكن لما وُجِد الإنسان بعد أن لم يكن موجودًا دل هذا علىٰ أنه مفتقر إلىٰ من يوجده.

إذن: لا يمكن أن يكون قد أوجد نفسه، لأنه سيكون حينها مخلوقًا وخالقًا معًا، وهذا ممتنع عقلًا، المخلوق لا يمكن أن يكون خالقًا، والخالق لا يمكن أن يكون مخلوقًا، هذه قضية مسلَّمة عقلية.

إذن: ما بقي عندنا إلا الاحتمال الثالث وهو أن يكون خالقٌ قد خلق هذا الخلق وهو الله ﷻ، ولم يذكر الله ﷻ هذا الاحتمال في الآية لوضوحه، حتىٰ تضطر العقول إلىٰ الإذعان به.

هذا الدليل يتفرع عند العلماء إلى عدة دلالات.

أولًا: دلالة الاختراع، ما أقوله الآن كله راجع إلىٰ دليل الأثر علىٰ المؤثر أو دليل الخلق.

الاختراع يعني الإيجاد من العدم، وهذا -كما أسلفت وبينت لك- وهو أن هناك أشياء معدومة لم تكن موجودة ثم وُجِدت، أناس، حيوانات، نباتات، مياه، رعد، برق، أمطار، أشياء كثيرة كانت معدومة ثم وُجِدت، وجودها دليل علىٰ أن

هناك خالقًا خلقها، وهذا ما يتعلق بدلالة الاختراع، وهذا الأمر فيه واضح، وكل إنسان يذعن بأن المعدوم إذا وُجِد فلابد من موجود أوجده، لابد للأثر أن يكون له مؤثِّر.

لو كنت أمشي أنا وإياك في طريق فوجدنا بعرة ساقطة علىٰ الأرض، ماذا سنقول؟ سنقول: ثمة ناقة مرت من هنا، نحن رأيناها؟ ما رأيناها، كيف عرفنا؟ بوجود الأثر.

إذن: الأثر دليل علىٰ المؤثِّر، المخلوق دليل علىٰ خالقه، المصنوع دليل علىٰ صانعه.

ولذلك ما أحسن ما قال ذاك الأعرابي، قيل له: كيف عرفت ربك؟ قال: البعرة تدل علىٰ البعير، والروث يدل علىٰ الحمير، وأثر السير يدل علىٰ المسير، فسماءٌ ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أفلا تدل علىٰ العليم الخبير؟ بلىٰ واللهِ!

إذن: كل ما تراه عينك فإنه دليل علىٰ وجود الله ﷻ، لأن كل ما تراه من هذه المخلوقات دليل مُفْصِحٌ عن خالقه ﷻ، كل ما في هذا الكون إنما هي رسائل موجهة لك -يا عبد الله- مكتوب فيها: ألا كل شيء ما خلا الله باطل. كلها تذعن وتشهد وتنطق بلسان حالها أن ربًا عظيمًا خلقها.

إذن: هذا هو الأمر الأول: دلالة الاختراع.

ثانيًا: دلالة العِنَاية: الأمر أكبر من مجرد خلْق، بل هناك خلْق وعناية بالخلق أيضًا، ليس الأمر خلقًا عشوائيًا، أو كما يقولون: خَلْقٌ كيفما اتفق، لا، إنما هناك

خلْق يدل علىٰ أن الخالق له من العناية والرعاية بهذا المخلوق ما دل علىٰ وجوده ﷻ، بل علىٰ ربوبيته، فإن الناظر في هذه المخلوقات يجد أنها قد خُلِقت بعناية، يجد أنَّ المخلوق خُلِق ليكون مناسبًا للحياة، والحياة مناسبة لهذا المخلوق، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة:٢٩]، تجد أن في الإنسان في خلْقه كل شيء وُجِد بعناية، كل شيء وُجِد في الإنسان وُجِد ليؤدي الوظيفة التي خُلِق لأجلها، لا تجد شيئًا مخلوقًا عبثًا، إنما تجد العناية العجيبة، تجد أن العين خُلِقت بعناية لتؤدي الوظيفة، تجد أن الأذن بهذا التجويف العجيب خُلِقت لتؤدي وظيفة، ليس الأمر سبهللة، تجد أن القدمين، تجد أن اليدين وما فيهما من الأصابع وما فيهما من السُلامىٰ في اليدين وفي جميع الجسد، كل ذلك يدل علىٰ أنه مخلوق بعناية، كذلك تجد أن الله ﷻ خلق البحر ليكون مناسبًا لحياة الأسماك، تجد أن الله ﷻ خلق الشمس لتكون مناسبة لحياة الأرض، تجد أن الله سبحانه خلق القمر ليكون مناسبًا للحياة علىٰ الأرض. وهكذا تجد أن الأمر أعظم وأدق من مجرد خلْق، هاهنا عناية.

قيل لأحدهم: كيف عرفت ربك؟ قال: عرفته بالبيضة، حصن حصين لا فُرْجة فيه، وجدار سميك لا بابَ له، ينكسر فيخرج منه طائر يصيح. أليس هذا خلق مخلوقًا بعناية؟ بلىٰ واللهِ! ولذلك قلت: لله طرائقُ بعدد أنفاس الخلائق. كُلٌّ يغرف من هذه الأدلة التي لا عد لها ولا حصر، كُلٌّ يفتح الله ﷻ عليه بشيء، لأن الأدلة علىٰ وجود الله وربوبيته أكثر من عدد حبات المطر، لكن الله ﷻ يفتح علىٰ هذا بشيء، ويفتح علىٰ هذا بشيء، ويفتح علىٰ هذا بشيء.

قيل لآخر: كيف عرفت ربك؟ قال: بتعدد الأصوات واختلاف اللغات. انظر إلىٰ هذا الدليل، كيف أن اللسان واحد ومساحة الفَمِ تقريبًا عند البشر جميعًا واحدة أو متقاربة، ومع ذلك انظر إلىٰ اختلاف اللغات، كم لغة علىٰ وجه الأرض اليوم؟ علىٰ حسب بعض المنظمات العالمية يقولون: أحصينا سبعة آلاف لغة، واللهُ أعلم كم من لغة ما استطاعوا إحصاءها مما مضىٰ أو مما هو حاضر، سبعة آلاف لغة، لا أقول لهجة، تخيل كيف أن هذا الفم وهذا اللسان أمكن أن يتكلم بهذه اللغات الكثيرة العجيبة، أليس هذا دليلًا علىٰ الخالق ﷻ؟ ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾ [الروم:٢٢]، صدق الله.

إذن: عندنا دلالة تدل علىٰ هذا الخالق العظيم ﷻ وهي دلالة العناية.

خذ دلالة ثالثة وهي: دلالة الإتقان، ليس الأمر خلقًا عشوائيًا، ليست المسألة فقط أن مصنوعًا دل علىٰ صانعه، وأن مخلوقًا دل علىٰ خالقه، لا، كلُّ مخلوق خلقه الله فقد أبدع ﷻ في خلْقه وصنعه، ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ ﴾ [النمل:٨٨]، ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ ﴾ [السجدة:٧]، ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ ﴾ [الملك:٣].

إذن: هـذا دليـل علـىٰ وجـود الخـالق العظـيم ﷻ، بـل علـىٰ اتصـافه بـالعلم والحكمة والقدرة والقوة، إلىٰ غير ذلـك مـن صـفات الله ﷻ، كـل شـيء في غايـة الإبداع، في غاية الإتقان، هذا دليل علىٰ أن هناك من أتقن، وأن هناك من أحسن.

أحد قواعد الفيزياء المعاصرة يقول: كل شيء في طريقه إلىٰ الفوضىٰ ما لم يكن هناك تدخل خارجي. هكذا يقولون، كل شيء إذا تُرِك فإنه ستكون الأمور فوضىٰ، إلا أن يحصل تدخل خارجي.

إذن: هذا دليل علىٰ أن هذا الكون لا يمكن أن يسير بدون خالق متقن له وهو الله ﷻ.

خذ دلالة رابعة وهي دلالة التسخير والتدبير، كل ما في هذا الكون من مخلوقات ومصنوعات وآيات تشهد علىٰ خالقها ﷻ دليل علىٰ أنها مدبَّرة مسخرة، **إذن:** ثمة من هو يدبِّر ويسخر، ويقضي بمشيئته وحكمته وهو الله ﷻ.

لا يمكن أن يوجد هذا الكون بما فيه وتمضي فيه الأيام والليالي، وتسير أحوال الناس، تشرق شمس وتغرب، ويظهر قمر ويحتجب، وتأتي الرياح والأمطار وتمتنع، وتحصل هذه الأمور العجيبة في هذا الملكوت أو في أحوال الناس دون أن يكون هناك من يدبر وييسر ويسخر بعلمه وحكمته وقدرته.

جاء قوم من الدهرية إلىٰ الإمام أبي حنيفة رحمه الله قالوا: نريد أن نناظرك في وجود الله. فقال لهم: عليكم بالصبر قليلًا حتىٰ أحكي لكم قصة عجيبة، قالوا: هات. قال: ما أعجب ما حصل، ألم تسمعوا بالسفينة التي كانت ترسو علىٰ ضفة دجلة، ثم تتحمل بالزاد، ثم تسير إلىٰ الضفة الأخرىٰ فتُنْزِل حمولتها دون أن يُسَيِّرَها أو يُدَبِّرَها أحد. عجيبٌ شأن هذه السفينة، وحدها تقف عند ضفة النهر تتحمل بنفسها من المؤن ثم تمشي إلىٰ الضفة الأخرىٰ فتنزِل تلك المؤن ولا أحد يسيِّرها، قالوا: هذا جنون، من يصدق هذه القصة الخيالية؟ سفينة تمشي وحدها؟ هذا شيء خارج حدود المعقول.

فقال أبو حنيفة رحمه الله: يا لله العجب! أبيتم هذا في سفينة، فكيف في هذا العالم عُلْويِّه وسُفْلِيِّه؟ كل هذا الكون يمشي بلا تدبير! هذا شيء خارج عن حدود المعقول.

والإنسان في نفسه لو نظر في حاله فقط لما استطاع إلا أن يلهج بأشهد أن لا إله إلا الله، إي واللهِ! ولذا قال بعض السلف: من عرف نفسه عرف ربه. من عرف نفسه، تأمل في حال نفسه فستكون النتيجة أنه سيقرُّ بالله سبحانه وتعالى.

قيل لأحدهم: كيف عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم وفَتْرِ الهِمَم، عرفت أني مُدَبَّر، عرفت أن هناك من يدبرني، أني أكون عازمًا على الشيء ومستعدًا له من وقت طويل، لكن في لحظة يذهب ما في نفسي من الهمة، هذا دليل على أن هناك من يدبِّرني ومَن أمري بيده يتصرف كيف يشاء سبحانه وتعالى.

قيل لبعضهم: كيف عرفت ربك؟ قال: عرفته بالنوم واليقظة، يقول: أشتهي النوم فيمتنع عليّ، وأشتهي اليقظة فأُغْلَبُ على النوم، هذا دليل على أني مدبَّر. الآن تجد أنك في وقت من الأوقات تريد اليقظة ولا تريد النوم، فتجد أنك تُغلَب، شئت أم أبيت عينك تذهب مع النوم، وفي الوقت الآخر تريد العكس، تريد أن تنام تتقلب على فراشك الساعة والساعتين، يتأبى عليك النوم، هذا دليل على أنك مدبَّر.

انظر إلى أحوال الناس في معاشهم ورزقهم، هل دائمًا المُجِدُّ مرزوق والكسلان فقير؟ وإلا يمكن يوجد العكس؟ **إذن:** هذا دليل على أن هناك من يدبر الأمور ويصرف الأرزاق كيفما شاء.

قال أحدهم لما قيل له: كيف عرفت ربك؟ قال: برزق الغبي وحرمان العاقل. تجد الإنسان ذكي وحريص ويعرف مسالك التجارة وكيف يكسب الريال، وتجده من الصباح إلىٰ الليل وهو مجتهد لكن النتيجة صفر، ما يجد شيء، والعكس صحيح، شخص في بيته نائم والأرزاق تُغدق عليه، هذا دليل علىٰ أن الأمر وراءه قوة عظيمة وتدبير خفي والإنسان غافل.

إذن: لو تأمل الإنسان في هذه الدلالة لوجد فيها الشيء العجب، فإن تدبير شئون الخلائق في هذا الكون دليل علىٰ الخالق الرازق المحيي المميت المدبر ﷻ.

والأمر -كما ذكرت لك- إنما هو غيض من فيض، إنما هو قطرة من بحر، وإلا فالمقام -كما ذكرت لكم- مقام واسع، لله طرائق بعدد أنفاس الخلائق. طرائق تدل علىٰ الله ﷻ.

يُروىٰ أن الإمام الشافعي رحمه الله لقيه قوم من الدهرية الملاحدة، فقالوا: نريد أن نناظرك، ما الدليل علىٰ وجود الله؟ فقال لهم: الدليل ورق الفِرْصاد. الفرصاد: التوت، يقول: ورق التوت أنا عندي دليل علىٰ وجود الله.

قال: ورق الفرصاد تأكله دودة القز فيخرج الحرير، وتأكله الظِباء فينعقد في نوافِجِها المسك، وتأكله الشاة فتخرج البعرة، ولو كان هذا شأنَ الطبيعة لخرج كُلٌّ شيئًا واحدًا. الطبيعة صمَّاء ما عندها هذا التنوع، لكن هذا دليل علىٰ أن هناك مُدَبِرًا ومسخرًا، شيء واحد نتيجته انفصلت بين أن تكون حريرًا أو مسكًا أو أن تكون بعرة.

إذن: هذا دليل على الخالق ﷻ.

قال بعضهم وقد قيل له: كيف عرفت ربك؟ قال: عرفته بالإِهْلِيلِجِ. نوع من الحبوب الكبيرة تجدها عند العطار. قال: الإهليلج يأكله الإنسان فيجفُّ حلقه ويلين بطنه وهو شيء واحد. يقول: إذن هذا دليل على أن هناك من يدبر الأمور، شيء واحد خلقه الله وإذا به يكون سببًا لجفاف جزء وسببًا لِلين آخر.

المقصود: هذا المقام مقام عجيب ورحْب وواسع، كلما تأمل الإنسان فيما تقع عليه عينه أو يطرق سمعه فإنه سيجد الدليل على الخالق ﷻ، والخلاصة في قول الله ﷻ: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:١٠].

لا يَرِدُ الشك على وجود من وجوده أظهر من كل شيء، متى ما كان هناك شك في وجود الله ﷻ فالشك في وجود غيره أشد وأعظم، بل لا يثبت وجود شيء لو لم يكن الله ﷻ موجودًا، فالأشياء وُجِدت؛ لأنه موجود أوجدها ﷻ، والحقائق ما حقَّت إلا لأنه أحقها ﷻ، ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [يونس:٨٢] جل ربنا وعز.

إذن: هذا هو الدليل الثالث وهو الدليل العقلي.

أمَّا الدليل الحسي فهذا قد تبين لنا من خلال ما سبق من الأمثلة والقصص التي ذكرتها دليل وشاهد على ذلك، وكما قلت لك: كل شيء تراه أو تسمع به فإنه دليل على وجود الله ﷻ، وأحب أن أشير هاهنا إلى أمرين يندرجان تحت هذا الدليل:

أولًا: معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دليل حسي على الخالق ﷻ، فإن النبي الذي يقول: أنا رسول من عند الله، فيطالَب بدليل فتكون الآية التي يشاؤها الله ﷻ، إذن هذا دليل على أن هناك مُرْسِلًا قادرًا سميعًا بصيرًا.

فموسى عليه السلام يُطَالَبُ بالآيات فيرمي عصا تنقلب حية تسعى.

صالح عليه السلام يُطَالَبُ بآية وإذا بناقة تخرج من صخرة، ناقة حقيقية تخرج من صخرة، هذا لا يمكن أن يكون إلا بفعل خالق عظيم وهو الله ﷻ.

وقل مثل هذا في نبينا ﷺ كما في «البخاري» من حديث أنس رضي الله عنه لما طُلِب النبي ﷺ من المشركين بآيةٍ اللهُ ﷻ شق القمر، انشق القمر إلى فلقتين شقًا حقيقيًا، أحد شقي القمر كان دون الجبل والآخر كان بعد الجبل، والناس رَأَوْهُ، وقال النبي ﷺ: «انظروا»، هل القمر يُشق بفعل نفسه؟ أو أن هناك من شقه وهو الذي خلقه؟ وليس ذلك على الله بعزيز.

إذن: آيات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دليل على مَن أرسلهم وهو الله ﷻ.

خذ -أيضًا- وجهًا آخر يرجع إلى هذا الدليل وهو: إجابة الدعاء، وهذا يُحِسُّ به ويدركه كل إنسان حتى من الكفار، لا تكاد تجد أحدًا إلا ويعرف في نفسه أو في غيره أنه دعا الله ﷻ فاستُجيب له.

كم من الناس عرفوا في أنفسهم وعرفوا في غيرهم أنه في لحظة حاجة وافتقار رفع أحدهم يده إلى الله ﷻ فجاءته الإجابة من الله ﷻ، هذا دليل على أن هناك سميعًا بصيرًا عليمًا قديرًا أجاب الدعاء.

إذن: إجابة الدعاء دليل حسي على الخالق ﷻ. في أدلة كثيرة ترجع إلى هذا المقام.

إذن: هذا هو الدليل الرابع الذي هو الدليل الحسي، كل ذلك راجع إلى الأمر الأول من معرفة العبد ربه وهو معرفة العبد ربه بربوبيته.

بقينا الآن في الأمر الثاني وهو: معرفة العبد ربه بألوهيته، هذه الأمور الثلاثة لابد منها، لا يُعذر الإنسان في أن يتكاسل عن تعلُّم هذا الأمر العظيم وهو أن يعرف ربه ﷻ بأنه الخالق الرازق المدبر وحده، وأنه المعبود المستحق للعبادة وحده، والأمر الثالث: أن له الأسماء الحسنى وأن له الصفات العلى ﷻ.

أمَّا معرفة الإنسان ربه ﷻ بألوهيته فواجب عليه أن يعلم أن الذي يستحق أن يُعبد هو الله ﷻ، وأن عبادته هي العبادة الحقة، وأن ما سواه فعبادته باطلة، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢]، كل ما يُدعى، وكل ما يُعبد سواه ﷻ ولو كان شمسًا، ولو كان قمرًا، ولو كان صنمًا، ولو كان بوذا، ولو كان عيسى، ولو كان نبيًا، ولو كان وليًا، ولو كان سيدًا، ولو كان ما كان؛ فإن عبادته باطلة، والمعبود الحق هو الله ﷻ.

والأدلة على هذا تنقسم إلى قسمين:

١- أدلة شرعية

٢- أدلة عقلية.

أما الأدلة الشرعية: فالكتاب والسنة فيها من الأدلة على وجوب عبادة الله وحده لا شريك له شيء يفوق الحصر، أول أمر في القرآن.. إذا فتحت المصحف

أول أمر يأتيك ما هو؟ الأمر بعبادة الله، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١]، أول نهي يصادفك وأنت تفتح المصحف ستجد أنه النهي عن ضد هذا الأمر: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢].

والأدلة على هذا كثيرة جدًا.

نأتي الآن إلى الأدلة العقلية، ونحن نقول: عقلية وهي عقلية شرعية، لأن الدلالة فيها دلالة عقلية، ولأن الشرع أرشد إلى هذه الدلالة، فاجتمع في هذه الأدلة كونها أدلة شرعية عقلية معًا.

أول دليل عقلي على وجوب إفراد الله بالعبادة، وأن يكون الإله وحده: توحيد الربوبية، بمعنى: توحيد الربوبية دليل على توحيد الألوهية، كونه الرب دليل على أنه الإله، إذا كان هو الرب وحده وجب أن يكون الإله وحده.

(رب) يعني: رابٌّ، يعني: سيدٌ، مالكٌ، متصرفٌ، يعني: خالق رازق مدبر، محيي ومميت وهو الله ﷻ لا غير، إذا كان ذلك كذلك هذا دليل على أنه الإله، إله يعني: مألوه، يعني: معبود، يعني: الذي يجب أن يُعبد دون غيره ﷻ.

إذن: توحيد الربوبية عندنا قاعدة: توحيد الربوبية دليلٌ على توحيد الألوهية.

تأمل معي! قال سبحانه: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾﴾ [الصافات:٤] (إلهكم) يعني: معبودكم، واحد، حُكْمٌ من الله، ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾﴾ [الصافات:٤]، كأن قائلًا قال: يا رب، لم؟ ما الدليل؟ لماذا الإله واحد؟ لماذا أنت واحد الذي يجب أن يُعبد؟ ماذا كان الجواب؟ ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾﴾ [الصافات:٥]،

لأنه الرب وجب أن يكون الإله، بما أنه خلقك إذن واجب عليك أن تعبده.

عجيب حال ابن آدم، الله يخلق وغيره يُعبَد، الله يرزق وغيره يُشكر، أهذا سائغ في العقل يا قوم؟ واللهِ غير سائغ في العقل، ولذا في حديث الحارث الأشعري عند «الترمذي» و«أحمد» بإسناد صحيح وهو ما أخبرنا به النبي ﷺ: أن الله أمر يحيىٰ بن زكريا بخمس كلمات يعمل بهن ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فأبطأ، فجاءه عيسىٰ عليه السلام وقال: إن الله أمرك بخمس كلمات عمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تُبلّغهن وإما أن أُبلّغهن.

قال: يا أخي، أخشىٰ إن سبقتني أن يُخسف بي أو أُعذب، فجمع بني إسرائيل في بيت المقدس وقال: إن الله أمركم بخمس كلمات أعملُ بهن وآمركم أن تعملوا بهن، أولاهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، فإن مَثَل ذلك. - انتبه إلىٰ هذا المثل يا رعاك الله!- إن مثَلَ ذلك كمثل رجل اشترىٰ عبدًا من خالص ماله من ذهب أو وَرِق وقال: هذا عملي وهذه داري، فاعمل وأدِّ إليّ، فكان يعمل ويؤدي إلىٰ غيره، فأيكم يرضىٰ من عبده ذلك؟

سبحان الله! كيف يستسيغ عاقل يعلم أن الله وحده هو الذي خلقه، وهو الذي أمده بالحياة، وهو الذي أعده لهذه الحياة، وهو الذي ما تنفس نَفَسًا واحدًا إلا بمشيئته وقدرته ونعمته سبحانه وتعالى ثم يتوجه لغيره؟ يدعو غيره، ينحني لغيره ساجدًا وراكعًا، يذبح، ينذر، يخاف، يرجو، يحب غير الله سبحانه وتعالى! سبحان الله العظيم! أيُّ ضلال يكون عليه ابن آدم!

إذن: هذا هو الدليل الأول وهو ربوبية الله سبحانه وتعالى.

قد عرفنا أن الله ﷻ له الإلهية الحقَّة، وكل ما عُبِد من دونه فإلهيته وعبوديته باطلة، والأدلة علىٰ هذا -كما قد علمنا- منقسمة إلىٰ: شرعية وعقلية، وأخذنا من الدليل العقلي واحدًا، هو توحيد الربوبية، قلنا: إن الربوبية تستلزم الألوهية، فبما أنه جل في علاه الرب فواجب أن يكون الإله، وذكرنا ما تيسر من أدلة ذلك.

أما الدليل العقلي -والأدق أن نقول: العقلي الشرعي- هو: ثبوت الكمال لله ﷻ، انفراد الله ﷻ بالكمال المطلق دليل علىٰ أنه الإله وحده لا شريك له، وعليه؛ فكما أن توحيد الربوبية دليل علىٰ توحيد الألوهية فإن توحيد الأسماء والصفات دليل -أيضًا- علىٰ توحيد الألوهية، لما كان ربنا -جل في علاه- له الكمال المطلق من جميع الوجوه إذن هو المستحق لأن يكون الإله وحده لا شريك له.

العابد أيُّ عابد لا يعبد معبوده إلا لأحد أمرين:

- إمَّا لحاجته إلىٰ هذا المعبود، فهو مفتقر إليه في تحقيق المصالح ودفع المضار والمفاسد، فهو يعبده لأجل تحصيل هذه الغاية.
- أو يعبده لأن معبوده متصف بالكمال، والكمال محبوب إلىٰ النفوس بالفطرة، النفوس مجبولة علىٰ حب الكمال، وبناءً علىٰ هذا؛ الله ﷻ هو الذي يقدر علىٰ أن يغيث معبوده، وأن يجلب الخير ويدفع المضار عنه، وما سواه فإنه فاقد لذلك بالكلية.

ولذا إبراهيم عليه السلام كان يُحاجّ أباه بتذكيره بهذا الأمر المقبول عقلًا: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢﴾ [مريم:٤٢]، **إذن**: لا فائدة من

عبادته، السمع والبصر دليل الكمال، والقدرة هي التي لأجلها يغني عن عابده، أما ما تعبده يا أبتِ من هذه الأصنام فإنها فاقدة للكمال، فاقدة للنفع والإغاثة، **إذن:** لا تستحق أن تُعبد.

تأمل في كتاب الله ﷻ تجد أدلة كثيرة تدل علىٰ أن اتصاف الله ﷻ بالكمال دليل علىٰ أنه المعبود الحق وحده لا شريك له.

تأمل في أعظم آية في كتاب الله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة:٢٥٥] هذا هو توحيد الألوهية. كأن قائلًا قال: لم يا رب؟ لم أنت الإله وحدك دون أن يكون معك شريك؟ الجواب: لأنه الحي القيوم، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، الذي له ما في السماوات وما في الأرض.. إلىٰ آخره.

إذن: توحيد الأسماء والصفات دليل علىٰ توحيد الألوهية.

تأمل -مثلًا- في قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحشر:٢٢] هذا توحيد الألوهية، كأن قائلًا قال: لم يا رب؟ ما الدليل؟ قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر:٢٢].

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحشر:٢٣] لم؟ لأنه ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر:٢٣].

إذن: الله ﷻ له الكمال المطلق من جميع الوجوه، أقصىٰ ما يكون من الكمال فإنه ثابتٌ لله ﷻ، وعليه؛ فالعبادة حق خالص له ﷻ.

نأتي الآن إلىٰ الدليل العقلي الثالث الذي يجب علينا أن نعرف الله ﷻ في ألوهيته بناءً عليه وعلىٰ أمثاله من الأدلة، يجب أن نعرف الله ﷻ في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته بالدليل.

الدليل الثالث: هو اتصاف المعبودات سواه بالنقص والعجز، وهذا عكس الدليل السابق، لما كان الله ﷻ قد ثبت له الكمال المطلق من جميع الوجوه استحق أن يكون المعبود وحده، والآن نقول: لما كان كل ما سواه من المعبودات عاجزًا ناقصًا ، إذن لا يستحق شيء من تلك المعبودات الإلهية، فثبت أنه هو المعبود وحده، لما كانت كل هذه المعبودات ناقصة والله ﷻ علىٰ الضد من ذلك إذن استحق أن يكون المعبود وحده، وكل ما عُبِد سواه فعبادته باطلة.

تأمل معي، المسيح عليه السلام وأمه الصديقة مريم من المعبودات التي عُبِدت من دون الله ﷻ، عبدهما فئام كثير من البشر، عبدوا المسيح وأمه، تأمل كيف أبطل الله ﷻ عبودية ما سواه فقال ﷻ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة:٧٥]، انتهىٰ الأمر، **إذن:** عبوديتهما باطلة، بما أنهما يأكلان الطعام إذن لا يستحقان العبادة، لأن الذي يأكل الطعام محتاج إليه، ولو لم يأكل لهَلَك، واللهُ ﷻ لا يطعم، لا يأكل ولا يشرب ﷻ؛ لأنه الصمد جل في علاه.

إذن: أبطل الله ﷻ عبادة المسيح وأُمِّهِ بهذه الكلمة فقط: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ [المائدة:٧٥]، **إذن:** انتهىٰ الأمر، لا يستحق أن يُعبد المسيح ولا يستحق

أن تُعبد أمه عليهما الصلاة والسلام.

وقل مثل هذا في أدلة كثيرة يصف الله ﷻ جميع المعبودات بالنقص، ومر بنا قريبًا قوله تعالىٰ عن إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢﴾ [مريم:٤٢]، **إذن:** هذه معبودات باطلة، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [الحج:٧٣] خطاب لجميع البشر، ﴿ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ﴾ [الحج:٧٣]، (استمعوا) فعل أمر يقتضي الوجوب، واجب علىٰ جميع الناس أن يستمعوا إلىٰ هذا المثَل، ﴿ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ [الحج:٧٣].

إذن: العابد ناقص والمعبود ناقص، فلأيِّ شيء يُعبد؟ هذه الذبابة التي هي مخلوق صغير من أصغر مخلوقات الله، حشرة من الحشرات، لو اجتمع جميع ما يُعبد من دون الله لأجل أن يخلقوا ذبابة واحدة واللهِ إنهم عاجزون عن ذلك، بل دعك من هذا، واللهِ لو اجتمعوا علىٰ أن يستنقذوا شيئًا استولىٰ عليه هذا الذباب، لو وقع علىٰ طعام أو شراب فمصه ودخل جوفه، لو اجتمعوا جميعًا العابد والمعبود علىٰ أن يستردوا الشيء الذي فُقِد واللهِ إنهم عاجزون، ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ [الحج:٧٣].

إذن: عندنا ثلاثة أدلة دلت العقل السليم علىٰ أن الله ﷻ متفرد بالعبودية، وأن عبودية ما سواه باطلة، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [لقمان:٣٠].

يبقى معنا الأمر الثالث وهو معرفة الله ﷻ بأسمائه وصفاته، والقاعدة في هذا الباب: أنه يجب علينا معشر المسلمين أن نعرف وأن نوقن بأنَّ الله ﷻ متصف بالكمال من جميع الوجوه، فله الكمال في ذاته، وله الكمال في صفاته.

وثانيًا: أنه منزَّه ﷻ في كماله عن أن يكون له نظير أو مثيل أو شريك.

ونعتقد -ثالثًا- أنه تعالىٰ منزه عن كل نقص أو عيب أو ما لا يليق بكماله. فهذا قَدْرٌ واجب علينا أن نوقن به، نعرف الله ﷻ بأسمائه وصفاته من خلال هذه الأمور، فالله ﷻ له الكمال المطلق كما أفصحت عن هذا الآيات والأحاديث النبوية التي أخبرنا الله ﷻ في كتابه أو أخبرنا رسوله ﷺ في سنته، كل ذلك مما ثبت له من الأسماء ونعوت الجلال والجمال والكمال له ﷻ فإنه واجب علينا أن نعتقده، فله الكمال المطلق من جميع الوجوه.

ثم أن نعتقد أنه في كماله متوحِّد، وأنه لا يَشْرَكُهُ أحد في هذا الكمال ألبتة، فليس له مثيل ولا نظير في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته، وأنه منزه عن كل نقص وعن كل عيب، وعن كل ما لا يليق بهذا الكمال. وهذا الموضوع له تفصيلاته وله بحثه الطويل الذي يُبحث في باب الأسماء والصفات.

إذن: هذا هو مبدأ الكلام عن الأصول الثلاثة: معرفة العبد ربه، يعرف ربه بربوبيته، يعرف ربه بألوهيته، يعرف ربه بأسمائه وصفاته.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟

فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ.

وَمِنْ آيَاتِهِ: اللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ.

وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ: السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَالأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا.

الشَّرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعقيبًا علىٰ بيانه الأصل الأول وهو معرفة العبد ربه بسؤال، وعرفنا نهج المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الرسالة، وأنه بنىٰ هذه الرسالة علىٰ طريقة السؤال والجواب.

إذا قيل لك يا عبد الله: كيف عرفت ربك؟ ولاحظ أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتكلم لوجازة الرسالة واختصارها عن أمر واحد فقط يتعلق بمعرفة الله وهو معرفة الله عَزَّوَجَلَّ بربوبيته، كلام المؤلف هاهنا محصور في موضوع الربوبية، والربوبية مفتاح الألوهية، باب الألوهية هو الربوبية، أول ما يَقَرُّ في القلب: توحيد الربوبية ثم يترقىٰ الإنسان إلىٰ توحيد الألوهية.

إذن يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كيف عرفت ربك؟ لا يزال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يؤكد لنا أن الإيمان الراسخ هو الإيمان المبني علىٰ الدليل، وهذه المباحث أهم المباحث وأهم المطالب، وإذا كان الإنسان جاهلًا بأدلتها فأيَّ شيء يعرف!

بأي شيء عرفت ربك؟ كيف عرفت أنه هو الرب ﷻ؟ قال المؤلف ﵀ في بيان الجواب: (بآياته ومخلوقاته) ، الآيات والمخلوقات، ما وجه العطف بين الآيات والمخلوقات؟ هل هما أمران بعيدان عن بعضهما؟ الآيات شيء والمخلوقات شيء أم بينهما مناسبة؟

الذي يظهر -والله تعالىٰ أعلم- أن عطف المخلوقات علىٰ الآيات من باب عطف الخاص علىٰ العام، وجه ذلك: أن الآيات تنقسم إلىٰ قسمين، آيات الله ﷻ تنقسم إلىٰ قسمين:

- آيات متلوة.
- آيات مخلوقة.

الآيات المتلوة منها كتُب الله ﷯ التي تكلم بها وأنزلها علىٰ رسله عليهم الصلاة والسلام وفيها الهدىٰ والنور، وأما الآيات المخلوقة فجميع ما خَلَقَ الله ﷻ، جميع ذلك آياتٌ دالة علىٰ الله ﷻ، تُعرِّف العباد ربها وإلهها ومعبودها ومحبوبها ﷻ.

إذن: العطف هاهنا من باب عطف الخاص علىٰ العام.

ما هي الآيات؟ وما هي المخلوقات؟ ذكر المؤلف ﵀ مثالًا علىٰ هذا ومثالًا علىٰ هذا، قال: من الآيات: الليل والنهار، والشمس والقمر ، ومن المخلوقات: السماوات السبع وما فيهن، والأرضون السبع وما فيها وما بينهما.

هل نفهم من هذا أن هذه الآيات ليست مخلوقة؟ لأنه قال: من آياته كذا ومن مخلوقاته كذا، لا شك أن هذه الأربعة المذكورة في الآيات مخلوقة لله،

والله ﷻ يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ [الأنبياء:٣٣]، **إذن**: هي مخلوقات كالسماوات والأرض.

إذن: ما وجه هذا الأسلوب الذي ذكره المؤلف ﵀؟ ذكر آيات وهي أربع، وذكر مخلوقات وهي أمران وما فيهما وما بينهما.

الذي يظهر -والله تعالىٰ أعلم- أن هذا كان من المؤلف من باب التنويع في الأسلوب لا أكثر، وإلا فجميعها ينطبق عليها أنها مخلوقات، وجميعها ينطبق عليها أنها آيات، إنما أراد المؤلف ﵀ التنويع في الأسلوب لا أكثر.

بعض الشراح ذكروا أن الآيات أدلُّ من المخلوقات، يعني: تدل بأوضح -يعني: بدلالة أوضح- من المخلوقات، والذي يبدو -والله أعلم- أن هذا غير دقيق، فبالنظر إلىٰ دلالة هذا ودلالة هذا فإننا لا نجد فرقًا، بل ربما يكون في المخلوق ما هو أوضح دلالة مما ذكره في الآيات.

الذي يبدو -والله تعالىٰ أعلم- أن هذا تنويع في الأسلوب، وإلا فالكل مخلوق، والكل آية مخلوقة له ﷻ.

إذن: المؤلف ﵀ أورد لنا دليلًا علىٰ ربوبية الله ﷻ، وهذا ما كان منه في ستة أشياء، الليل والنهار، والشمس والقمر، والسماوات والأرض.

لو تأملت في هذه لوجدت أنها جمعت بين دليلين من أعظم أفراد الأدلة الواردة في الكتاب والسنة وهما: دليل الآفاق ودليل الأنفس، ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلۡأٓفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣].

ودليل الآفاق: هو الليل والنهار، والشمس والقمر، والسماوات والأرض، والأنفس في قول المؤلف ﵀: وما فيهن، سواء كان في السماوات أو في الأرض فإن ذلك يشمل الملائكة والجن والإنس والحيوانات وما إلىٰ ذلك من المخلوقات.

إذن: جمع كلام المؤلف ﵀ هذين النوعين من أفراد الأدلة التي يتجلىٰ فيها ما ذكرناه سابقًا من دلالة الاختراع أو دلالة العناية أو دلالة التسخير، إلىٰ آخر ما ذكرنا.

أول ما ذكر المؤلف ﵀: الليل والنهار، (ومن آياته: الليل والنهار). وقلنا: إن الليل والنهار -مع بقية هذه الأمور- من أعظم ما استدل الله ﷻ به علىٰ ربوبيته وألوهيته وكماله ﷻ، ولذا نَجِدُ أن الله ﷻ أقسم بهذه الأمور الستة، والله لا يقسم إلا بما يستحق الإقسام منه ﷻ عليه، لأنه من أعظم الأدلة التي دلت عليه، قال ﷻ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦﴾ [الشمس:١-٦].

إذن: ذكر الله ﷻ هذه الأدلة الستة وقد أقسم بها ﷻ.

الليل والنهار آيتان دالتان علىٰ عظمة خالقهما ﷻ، ذلك أن فيهما من عجيب الخلق والتدبير والتسخير ما يدل العقول علىٰ أن لها ربًا، وأن هذا الرب هو المستحق للعبادة ﷻ.

تأمل كيف أن مصالح العباد إنما كانت في مزاوجة الأوقات التي يحياها الناس في هذه الدنيا بين ليل ونهار، لا تكتمل حياة الناس ومصالحهم ولا تتم

لهم معاشاتهم إلا باجتماع الأمرين: باجتماع الليل والنهار، وإلا فلو كان الوقت ليلًا متصلًا أو نهارًا متصلًا لكان في هذا من التكدير والتنغيص علىٰ العباد ما لا يخفىٰ علىٰ ذي لُب.

والله ﷻ نبَّهنا إلىٰ هذا الأمر العجيب وهو المزاوجة بين الليل والنهار: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص:٧١-٧٣].

إذن: هاتان نعمتان تستحقان الشكر، فمن شكر الله ﷻ عليهما، من رفع يديه وقال: اللهم لك الحمد علىٰ نعمة الليل والنهار، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص:٧٣].

إذن: هذه نعمة تستحق الشكر لمُسْدِيها والمنعم بها وهو الله ﷻ، لن تستقيم حياة الناس إلا بوجود هذين الأمرين: نهار يحصل فيه الخروج إلىٰ فجاج الأرض والكد والجد والاجتهاد والنشاط وعمارة الأرض، وليل يحصل فيه الطمأنينة، ويحصل فيه السكون، ويحصل فيه الهدوء، وتحصل فيه الراحة.

الله ﷻ جعل الليل لباسًا وجعل النهار معاشًا وكل ذلك فيه مصالح للعباد، تترتب أحوال الناس، تنتظم مواعيدهم وتترتب جداولهم وأعمالهم بوجود ليل وبوجود نهار، وبذلك تتم مصلحتهم في هذه الحياة.

قال: (ومن آياته: الليل والنهار، والشمس والقمر) ، حدِّث ولا حرج عن هاتين الآيتين العجيبتين: الشمس والقمر، ماذا يقول الإنسان؟ هذه الآية العجيبة الشمس، هذه الكرة الملتهبة العظيمة الخلْق، التي هي بمكان بعيد ومسافة شاسعة عن الأرض، ولا يمكن أن تكون حياةٌ إلا بوجودها، لا يمكن أن تكون حياة إلا بوجود الشمس، وإلا فكيف سيحيا الناس والدواب والأسماك والنبات؟ كيف تستقيم للناس علىٰ هذه الأرض حياة دون وجود هذه الشمس؟ آية عجيبة من آيات الله ﷻ، وجودها وحرارتها ومكانها كل ذلك آية من آيات الله ﷻ؟

تعرف المسافة التي بيننا وبين الشمس؟ كم بيننا وبين الشمس؟ علم الفلك الحديث يقول: إن المسافة بين الأرض وبين الشمس مليون وخمسمائة ألف كيلو متر تقريبًا، أقل من هذا بقليل، هل تعلم أن هذه الشمس لو قَرُبَتْ شيئًا يسيرًا إلىٰ الأرض لانتهت الحياة علىٰ هذه الأرض، تنتهي الحياة تمامًا، ولو ارتفعت وابتعدت شيئًا يسيرًا لانتهت الحياة علىٰ هذه الأرض أيضًا.

إذن: وجود هذه الشمس وحرارتها ومسافتها التي هي عليها آية عجيبة من آيات الله ﷻ، هذا الحجم الهائل الذي هي عليه، أيهما أكبر: الشمس أو الأرض؟ باتفاق أهل الهيئة والفَلَك في القديم والحديث أن الشمس أكبر، بل تدري أن علم الفلك الحديث يقول: إن حجم الشمس بالنسبة للأرض أكبر بما لا مقارنة، بمعنىٰ: أنه لو قُدِّر أن هذه الشمس كرة أمكن فتحها ووضعنا فيها هذه الكرة الأرضية وأمثالها حتىٰ تمتلئ نحتاج إلىٰ مليون وثلاثمائة ألف كرة أرضية حتىٰ تملأ هذه الشمس.

إذن: آية عجيبة من آيات الله، جعلها الله ﷻ آية دالة على خالقها ﷻ، وأنه هناك خالق عظيم متصف بالكمال المطلق، وهذا الخالق العظيم هو الذي يستحق أن يُعبد وحده لا شريك له.

وقل مثل ذلك في القمر، ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [يونس:٥].

القمر، هذه الآية من آيات الله ﷻ في هذا المكان الشاسع، يقولون: إنها تبتعد عنا حوالي ثلاثمائة وخمسة وثمانين ألف كيلو متر، ومع ذلك وجودها في هذا المكان بل وفي هذا المكان الدقيق وفي هذا المسار المعين فيه منافع عظيمة للناس على هذه الأرض، بل لدوابها، بل لبحارها وأسماكها.

ومن ذلك: أن الله ﷻ جعل توقيت الناس الذي يحتاجون إليه في هذه الدنيا مرتبطًا بهذا القمر، ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ [يونس:٥].

إذن: هاتان آيتان من آيات الله ﷻ، ما خلقهما الله ﷻ عبثًا، ما خلقهما الله إلا بالحق، كل ذلك لأجل أن نعرف الله ﷻ بكماله ثم أن نقوم بواجب هذه المعرفة من العبودية له ﷻ.

ثم ذكر بعد ذلك: ومن مخلوقاته: السماوات السبع والأرضون السبع، السماوات والأرض.

كلام المؤلف ﷺ يبيِّنُ لك بأن الأرضين سبع كما أن السماوات سبع، وهذا ظاهر كتاب الله ﷻ، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢].

ويدل على هذا -أيضًا- صريحًا ما ثبت في «الصحيحين» من قول النبي ﷺ: «مَن اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا طُوِّقه من سبع أرضين يوم القيامة»، وهذا إجماعٌ بين أهل العلم، نقل هذا شيخ الإسلام رحمه الله في المجلد السادس من «مجموع الفتاوىٰ» عن أبي بكر الأنباري رحمه الله أنه نقل إجماع أهل السنة والحديث علىٰ أن الأرضين سبع كما أن السماوات سبع، كما أن السماوات سبع بعضها فوق بعض كذلك الأرضون سبع بعضها فوق بعض.

والسماوات والأرض يتعلق بهما مباحث كثيرة، من ذلك: أن الله جل وعلا لحكمته خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وهذا صريح كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في عدد كثير من الأدلة، خلق السماوات والأرض في ستة أيام.

هنا بحث عند أهل العلم: ما هي هذه الأيام الستة؟ أهي أيام كأيامنا التي نعرفها؟ وهذا ما ذهب إليه طوائف من أهل العلم، ومن أولئك الذين قَوّوا هذا الراي: ابن كثير رحمه الله في «تفسيره»، فإنه رأىٰ أن ظاهر الأدلة وأن ما يقع في النفوس من هذه الأدلة أو ما يُفهم وتفهمه الأذهان من هذه الأدلة هو أن هذه الأيام الستة إنما هي مثل أيامنا التي نعرفها، هذا اليوم الذي هو أربعة وعشرون ساعة.

والقول الثاني: أنها ليست الأيام المعروفة عندنا، إنما هي الأيام عند الله سبحانه وتعالى، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج:٤٧]، وهذا القول ذهب إليه الإمام أحمد رحمه الله، وقبله ذهب إليه مجاهد رحمه الله، بل روي عن ابن عباس كما جاء في رواية الضحاك عنه رحمة الله عليهم ورضي الله عنهم أجمعين.

مهما يكن من شيء، سواء كان الحق في هذا أو في ذاك ينبغي أن نعلم أن الله ﷻ قادر على أن يخلق السماوات والأرض في لمح البصر، بل في أقل من ذلك، إنما هي حكمة يعلمها الله ﷻ في أنْ خلق السماوات والأرض في هذه المدة التي أعلمنا الله ﷻ بها.

هذه السماوات والأرض -كما ذكرنا- خُلِقت في ستة أيام، مبدؤها يوم الأحد ومنتهاها يوم الجمعة، والله ﷻ بيَّن كيف كان ذلك، ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت:٩-١٢].

إذن: الله ﷻ خلق الأرض في يومين، وأتم ما فيها في يومين، فكان قوله تعالىٰ: ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ [فصلت:١٠] يعني: في تتمة أربعة أيام، فجعل فيها الرواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها هذا في يومين، مع ابتداء خلق الأرض يومان، **إذن:** المجموع أربعة، وخلق السماوات كان في يومين، أصبح المجموعة ستة.

قد يقول قائل: وماذا حينما تقول: إن الأرض مخلوقة قبل السماء، وهذا لا نزاع فيه بين أهل العلم كما يقول ابن كثير ﷺ، إلا ما يُروىٰ عن قتادة، وإلا فجماهير أهل العلم بل الإجماع منقول علىٰ أن السماوات خُلِقت بعد الأرض،

وأن الأرض قبل السماوات، الله ﷻ خلق الأرض ثم استوىٰ إلىٰ السماء كما في كتاب الله ﷻ في سورة البقرة وفي غيرها، خلق الأرض ﷷ ثم بعد ذلك استوىٰ إلىٰ السماء فسواهن سبع سماوات.

أقول: قد يقول قائل: وماذا أنت قائلٌ في قوله تعالىٰ: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ٢٩ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾ [النازعات:٢٧-٣٠]، ظاهر هذه الآية أو قد يُفهم من هذه الآية أن الأرض مخلوقة بعد السماوات، وما مر بنا يدل علىٰ أن السماوات مخلوقة بعد الأرض، ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾ [فصلت:١١-١٢].

والجواب عن هذا كما قال ابن عباس رضي الله عنهما فيما علق البخاري رحمه الله في أسئلة نافع بن الأزرق له، سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن هذا الاشتباه الذي وقع لنافع، كون بعض الأدلة تدل -كما مر بنا- علىٰ أن السماوات مخلوقة بعد الأرض، وهذه الآية تدل علىٰ أن الأرض مخلوقة بعد السموات.

والجواب عن هذا -كما قال ابن عباس رضي الله عنهما- أن الله ﷻ خلق الأرض أولًا، الأحد والاثنين كان لخلق الأرض، ثم استوىٰ إلىٰ السماء، ارتفع إلىٰ السماء فسواهن سبع سماوات في يومين، وبالتالي تكون الثلاثاء والأربعاء، ثم إنه تعالىٰ بعد ذلك جعل في الأرض رواسي وقدَّر فيها أرزاقها، ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾ [النازعات:٣٠]، فتكون الخميس والجمعة.

إذن: يومان لخلق الأرض دون أن يكون دحْيٌ لها، ثم خلْق السماوات، ثم بعد ذلك دحي الأرض، ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠﴾ [النازعات:٣٠] ما معنىٰ (دحاها)؟ أكمل الآية: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١﴾ [النازعات:٣١]، **إذن:** هذا الذي كان بعد خلق السماوات، فالمجموع الآن صار ستة أيام.

الله ﷻ خلق السماوات والأرض وجعلهما آيتين تدلان علىٰ أن الله ﷻ هو الخالق وحده، وعلىٰ أنه سبحانه هو المعبود وحده، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢] كل ذلك –يا عبد الله– لم؟ ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾ [الطلاق:١٢].

ماذا يقول الإنسان عن خلْق هذه السماوات العجيبة وما فيها، وخلْق هذه الأرض العجيبة وما فيها؟ الله ﷻ جعلهما آيتان تدلان علىٰ دقة في الصنع وعجائب في الخلق، يعجز الإنسان أن يحيط علمًا بذلك، والعلم الحديث علم الفلك وما يتعلق بالأجرام السماوية في كل يوم يكتشف شيئًا جديدًا عن هذه السماوات وعن هذه الأرض وما فيهما وما بينهما، كيف أن الله ﷻ جعل هذه السماوات محكمة، بناها بأيدٍ يعني: بقوة، وجعل لها ﷻ أبوابًا، وجعلها سبعًا طباقًا، وقدَّر فيها ﷻ من الآيات العجيبة، وأسكنها ملائكته ﷻ، وزيَّنها بهذه النجوم التي هي زينة لهذه السماوات.

وكذلك الأرض، كل ذرة فيها تراها وتعبرها وتمر عليها كلها أدلة دالة علىٰ خالقها وإلهها ومعبودها وهو الله ﷻ، سماوات وأرض وما فيهما وما بينهما، كل ذلك دليل علىٰ هذا الخالق العظيم وعلىٰ هذا الإله الحق ﷻ.

هذه آيات وأدلة ما خلقها الله ﷻ عبثًا، يجب علىٰ الإنسان أن يعطي نفسه حظها من التأمل والتفكر، ولا يكون حاله كحال المشركين الذين وصفهم الله ﷻ بأنهم عن آياتها معرضون، بل ينبغي علىٰ الإنسان أن يكثر التأمل في هذه السماوات والأرض وما فيهما، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية:١٧-٢٠].

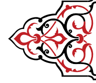
هذه آيات عجيبة ينبغي أن يقف الإنسان عندها، نحن -مع الأسف الشديد- في هذه الحياة المدنية المعاصرة التي نعيش فيها وما هي عليه من صخب وأشغال وقلق وإضاءة وكهرباء تجعل الإنسان بعيدًا عن التأمل والتفكر في هذه الآيات العجيبة التي ينبغي علىٰ الإنسان أن يقف معها وقفة، كان نبينا ﷺ كثيرًا ما يرفع رأسه وبصره إلىٰ السماء، كما ثبت هذا في «صحيح مسلم» من حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ رفع رأسه إلىٰ السماء وكان كثيرًا ما يرفع رأسه إلىٰ السماء، ثم قال لأصحابه رضي الله عنهم وصلىٰ الله علىٰ نبينا وسلم: «النجوم أَمَنَة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتىٰ السماء ما توعد، وأنا أَمَنَة لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتىٰ أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أَمَنَة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتىٰ أمتىٰ ما توعد».

المقصود: أن النبي ﷺ من سنته وهديه أنه كان يرفع رأسه ويتأمل في هذا الملكوت، أما أن تمر علىٰ الإنسان الساعات والأيام والليالي وربما الشهور

وهو ما تأمل ولا وقف ولا فكر مع كثرة الأدلة التي تأمرنا وتحثنا علىٰ التأمل والتدبر والتفكر، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠﴾ [آل عمران:١٩٠]، يمر الإنسان علىٰ هذه الآيات ولا تحرك فيه ساكنًا، ولا تعني له شيئًا، أليس هذا من الأمر المؤسف والأمر المحزن؟

إذن: هذه أمور ينبغي علىٰ الإنسان أن يقف عندها ويتأمل ويتدبر، واللهِ إن ساعة تتدبر فيها في هذا الملكوت، في هذا الخلق الذي خلقه الله ﷻ لهُوَ أنفع لك من شيء كثير تمضي فيه أوقاتك وساعاتك سدىٰ دون فائدة من ذلك، والله المستعان!



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:


وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧].

الشَّرْح

الآية الأولىٰ إن كانت ثابتة في هذه النسخة فهذا دليل علىٰ أن خلْق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، وهذا معلوم بالحس والمشاهدة، وإذا كان الله ﷻ خلق هذا الشيء العظيم فإن خلْق الإنسان وإعادته بعد خلقه هيِّن علىٰ الله ﷻ، فإن من قَدِر علىٰ العظيم فقدرته علىٰ ما دونه أوضح وأظهر.

قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت:٣٧] هذا أمر من الله ﷻ بعبادته وحده، ونهي عن عبادة الشمس والقمر، وذلك لأن مِن الناس مَن كان يعبد الشمس والقمر، الصابئة كانوا يعبدون الشمس والقمر ويعبدون الكواكب، وكانوا يجعلون لكل واحدة من هذه بيتًا ومعبدًا، أو ما يسمونه هياكل يتعبدون فيها لها، ويعتقدون أنهم إذا دعوا وسألوا فإن روحانيات الشمس أو القمر أو المشتري أو زُحل أو غيرها من الكواكب فإنها تنزل فتقضي لهم حوائجهم، وهؤلاء مشركون ضالون، والعياذ بالله! وعند هؤلاء أدعية، ويؤلِّفون مؤلفات فيها دعاء الشمس ودعاء القمر ودعاء المشتري ودعاء زُحل، ولهم بقية باقية إلىٰ

هذا الزمان.

وبعض الزنادقة الذين هم علىٰ هذا الاعتقاد فدخلوا في دين الله الإسلام زورًا وبهتانًا ونفاقًا قد تشبعت قلوبهم بهذا الاعتقاد، لكن ما أمكنهم أن يصرحوا بهذا الكفر المبين، فيبثوا في الناس هذه الكتب التي فيها الشرك، دعاء الشمس والقمر والتعبد لها، ولا أن يبنوا هذه الهياكل، فماذا صنعوا؟ أتوا بالخرافات التي تعيد الناس إلىٰ هذا الضلال لكنها غير صريحة كما فصَّل هذا ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «مفتاح دار السعادة»، فأتوا للناس بالطلاسم التي هي علىٰ هيئة أحرف أو علىٰ هيئة أرقام، ويزعمون فيما بينهم ولا يُعْلِمون العامة والجهال بذلك أنه إذا تركبت هذه الحروف مع بعضها علىٰ هيئة معينة، أو تركبت الأرقام علىٰ هيئة معينة تجدها علىٰ شكل جداول، ربما وقفت علىٰ شيء منها، في هذه الجداول والمربعات تجد أرقام أو تجد حروفًا ولها طرائق وقواعد وضوابط عندهم يزعمون أنها إذا تشكلت علىٰ هذا الشكل فإن روحانيات الشمس تنزل فتقضي حاجة كذا، وإذا تشكلت علىٰ هذا الشكل فإن المشتري أو زُحل روحانيات هذه أو تلك تنزل، ولهم في هذا قواعد، يعني: للنجاح شيء، وللشفاء شيء، وللزواج شيء، وهكذا من هذه الترهات والكفر المبين، الله جَلَّ وَعَلَا ينهىٰ عباده عن أن تتعلق قلوبهم بالشمس والقمر أو غيرها من هذه المخلوقات، ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت:٣٧].

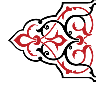
يا لله العجب! تسجدون للشمس والقمر ، والشمس والقمر تسجد لله!! الشمس والقمر تسجد لله، بل كل هذا الكون يسجد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ

﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج:١٨] كل ذلك يسجد لله ﷻ، تَدَعون المعبود الحق ﷻ الذي الشمس والقمر والكواكب تسجد له ثم تذهبون وتسجدون لهذه العابدات لله ﷻ؟ أليس هذا سخيفًا في العقل مخالفًا للفطرة؟

إذن: الله ﷻ هو الذي يجب أن يُعبد، ويجب أن يُسجد وأن يُركع وأن يُقنت وأن يُدعىٰ الله وحده لا شريك له، أما ما سواه فإنه لا يجوز لإنسان أن يتعبد لذلك، هذه الشمس والقمر والسماوات والأرض كلها مخلوقة لله ﷻ، خلقها الله ﷻ لتكون آية دالة لنا علىٰ وحدانيته ﷻ، ومَن تعلق قلبه بذلك فإنه قد أضاع حظ نفسه وجلب التعاسة علىٰ نفسه، والعياذ بالله! واللهُ ﷻ هو الواحد الأحد لا شريك له.

أين وجدتم في هذه المخلوقات التي تدَّعونها آلهة مع الله ﷻ أنها خلقت شيئًا؟ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان:١٠] ثم قال: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان:١١]، أروني ماذا خلقت اللات والعزىٰ؟ ماذا خلقت الشمس وماذا خلق القمر؟ أروني ماذا خلق الأموات وماذا خلق الأحياء؟ ماذا خلقت الأنبياء وماذا خلقت الأولياء الذين يُدعون مع الله ﷻ؟ واللهِ ما خلقوا شيئًا، ولن يخلقوا شيئًا، إنما الله ﷻ هو الخالق، ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان:١١].



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: 

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟

فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ: اللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ، وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧]، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

الشَّرْح

وقفنا عند قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤].

تكلمنا عن خلق السماوات والأرض، وأن الله ﷻ خلق السماوات السبع والأرضين السبع في ستة أيام، لِمَا اقتضته حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من ذلك.

وهذه الآية بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها أنه بعد خلْق السماوات والأرض استوىٰ علىٰ العرش، قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤].

وهذه الآية هي أولىٰ الآيات الواردة في المصحف التي دلت علىٰ هذه الصفة للباري ﷻ وهي الاستواء علىٰ العرش، فإنه قد وردت هذه الصفة في سبعة مواضع في القرآن:

أعراف يونس رعد ثم في طه فرقان سجدة والحديد بها استوىٰ

فهذه آية الأعراف أول هذه المواضع السبعة التي جاء فيها التنصيص علىٰ ثبوت هذه الصفة لله ﷻ وهي استواؤه علىٰ العرش، وفيها بيان أن استواءه علىٰ العرش كان بعد خلْق السماوات والأرض.

والكلام هاهنا في مقامين: الأول يتعلق بالعرش.

والعرش دلت الأدلة علىٰ أنه مخصوص بأربعة أمور، وقبل بيانها نذكر أن العرش في اللغة هو: سرير المُلْك، أي: السرير الذي يجلس عليه المَلِك، كما قال ﷻ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل:٢٣]، ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل:٤١]، وقال: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف:١٠٠]، هذا هو العرش في اللغة.

أما في الآيات التي دلت علىٰ استواء الله ﷻ علىٰ العرش فالعرش مخلوق من مخلوقات الله ﷻ، موصوف بأنه كريم، وبأنه عظيم، **خصه الله -كما أسلفت- بأربعة أمور:**

أولًا: أنه أكبر المخلوقات فيما نعلم، وقد دل علىٰ هذا قوله ﷺ عن الكرسي، قال: «**ما السماوات والأرض في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في فلاة، وفضل العرش علىٰ الكرسي كفضل الكرسي علىٰ السماوات والأرض**»، فهو مخلوق عظيم، بل هو أكبر المخلوقات.

ثانيًا: أن العرش أعلىٰ المخلوقات، وهو سقف الجنة، وعليه؛ فهو أعلىٰ المخلوقات.

الأمر الثالث: أنه أثقل المخلوقات، دل علىٰ هذا ما ثبت في «صحيح مسلم» من قوله ﷺ: «**سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته**»، قال أهل العلم: المقام هاهنا يقتضي ذِكْر أكبر الأشياء، فلما جاء ذكر الثِّقل والزِّنة -يعني: الوزن- ذكر النبي ﷺ العرش، قال: «**وزنة عرشه**»، فدل هذا علىٰ أنه أكثر المخلوقات وزنًا، يعني: أنه أثقل المخلوقات.

الأمر الرابع: أن الله ﷻ خصه باستوائه عليه، فلا يُعلم في الكتاب والسنة أن الله ﷻ استوىٰ علىٰ شيء إلا علىٰ هذا العرش العظيم الكريم.

إذن: هذه خصائص أربع خص الله ﷻ بها هذا العرش العظيم.

المقام الثاني: الكلام عن الاستواء، استواء الله ﷻ.

الاستواء جاء في القرآن علىٰ ضربين:

١. جاء معدىً بـ(إلىٰ)

٢. جاء معدىً بـ(علىٰ).

أما بـ(إلىٰ) التي تدل علىٰ انتهاء الغاية فإن الله ﷻ بيَّن في كتابه في موضعين: أنه استوىٰ إلىٰ السماء، يعني: قصد إليها علوًا وارتفاعًا، ارتفع إليها كما يليق به ﷻ.

وأما الضرب الثاني فهو: مجيء الاستواء معدىً بـ(علىٰ)، وهذا -كما أسلفت- جاء في سبعة مواضع فيها استواؤه ﷻ علىٰ العرش.

واستواء الله ﷻ على العرش صفة تليق به، لا يشبه فيها سبحانه أحد من خلقه، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وكلام السلف في تفسير الاستواء على العرش يدور على معنى العلو والارتفاع، وعليه فاستوى على العرش يعني: علا وارتفع عليه كما يليق به ﷻ.

والكلام عن موضوع الاستواء كلام طويل، لكن هذه خلاصة مذهب أهل السنة والجماعة: أنهم يعلمون المعنى الذي دل عليه القرآن والسنة مع تفويضهم العلم بكيفية استواء الله ﷻ على العرش، فإن العباد يجهلون ذات الله ﷻ كما أنهم يجهلون صفاته، لأنهم ما رأوه، ولا رأوا مثيلًا له، تعالى الله عن أن يكون له مثيل! فوجب إذن أن يقفوا عند حد ما ورد، والله ﷻ بيَّن لنا أنه استوى على العرش وما بيَّن لنا كيف استوى على العرش، فنقول بما جاء في القرآن والسنة ونسكت عما سوى ذلك، مع علمنا اليقيني بأن استواء الله ﷻ استواء لا يماثل استواء المخلوقين، فثمة قَدْر مشترك بين صفة الخالق وصفة المخلوقين هي في أصل المعنى اللغوي، وثبت -أيضًا- قدْر مختص اختص الله ﷻ به ولا يشاركه أحد من الخلق كما أن للمخلوق استواءً يختص به لا كاستواء الله ﷻ.

وإذا كان المخلوقات مع اشتراكها في هذا الوصف -وهو كونها مخلوقة- تفاوت الكُنْه والحقيقة على وجه التعيين في كيفية الاستواء، فلأن يثبت هذا الاختلاف بين الخالق والمخلوق من باب أولى.

تأمل معي -يا رعاك الله- في ثلاث آيات في كتاب الله.

أولًا في قوله تعالىٰ: ﴿ لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ [الزخرف:١٣]، **وثانيًا** في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون:٢٨]، **والآية الثالثة** في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ [هود:٤٤]، والآية هاهنا دلت علىٰ استواء سفينة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ علىٰ جبل الجودي.

الآن عندنا استواء واستواء واستواء، ثلاث آيات فيها استواء المخلوقات علىٰ ما استوت عليه، والسؤال الآن: هل هناك تماثل في الكُنْه والكيفية بين هذا الاستواء وهذا وهذا؟ بمعنىٰ: هل استواء المخلوق أو الإنسان علىٰ ظهر الدابة، كونه يستقر ويرتفع علىٰ ظهر الدابة هل هو كاستوائه علىٰ السفينة؟ تخيل معي هيئة المستوي علىٰ الدابة والمستوي علىٰ ظهر السفينة، هل هما سواء؟ الجواب: ليسا سواء، هذا وهو مخلوق واحد، لكن لما اختلف ما استوىٰ عليه تفاوت الكُنْه في هذا الاستواء.

وقل مثل هذا في استواء الإنسان علىٰ السفينة واستواء السفينة علىٰ الجبل، ﴿ لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ [الزخرف:١٣]، ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ [هود:٤٤]، هل هما سواء؟ هل الهيئة والكُنْه والكيفية واحدة؟ الجواب: بالتأكيد لا.

إذن: هذه مخلوقات ومع ذلك ما تماثلت في الكُنْه والكيفية، فكيف يُقال بعد ذلك: إن استواء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ العرش كاستواء الإنسان علىٰ الدابة أو علىٰ سرير المُلْك أو علىٰ السفينة؟

إذن: هذا من المواضع المهمة التي ينبغي علىٰ المسلم أن يدركها ويعرفها،

وهي أنه قد تدل الأدلة علىٰ اتصاف الله ﷻ بصفات ودلت الأدلة -أيضًا- علىٰ أن المخلوق يتصف بأصل هذه الصفات من حيث اللغة، وهذا الاشتراك لا يدل علىٰ التماثل الممنوع.

فتأمل -مثلًا- في قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١]، أثبت الله ﷻ هاهنا لنفسه أنه سميع بصير، وفي مقابل هذا نجد أن الله سبحانه وتعالى قال عن المخلوق: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان:٢]، وهل السميع كالسميع؟ وهل البصير كالبصير؟ وهل السمع كالسمع؟ وهل البصر كالبصر؟ الجواب في كل ذلك: لا.

إذن: المخلوق سميع سمعًا يليق به، والله ﷻ سميع سمعًا يليق به، المخلوق بصير بصرًا يليق به، والله جل وعلا بصير بصرًا يليق به.

إذن: هذا الاشتراك في أصل المعنىٰ لا محذور فيه، بل هذا مقتضىٰ الإيمان بالنصوص أن نثبت لله ما أثبت لنفسه وما أثبت له رسوله ﷺ، لكن لابد أن نجمع مع هذا اعتقادنا بأن صفة الله ﷻ في كيفيتها لائقة به سبحانه وتعالى، وبالتالي فلا يمكن بحال أن يُعتقد أو يقال: إن ما اتصف الله ﷻ به في كيفيته مثل ما اتصف به المخلوق، القاعدة: إثبات الصفات لله ﷻ مع منع التماثل مع المخلوقين، ومن شبه الله ﷻ بخلقه فقد كفر، كما أجمع علىٰ هذا السلف الصالح.

قال جل وعلا: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف:٥٤]، ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ يعني: يُلْحِق الليل بالنهار. هذا وجه.

والوجه الثاني: يلحِق النهار بالليل. وجهان محتملان في الآية، وكلاهما صحيح.

ومعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أنه يكون له كالغشاء، يعني: كالغطاء، بمعنىٰ: أن نور النهار يغطي ظلمة الليل، كما أن ظلمة الليل تغطي نور النهار، وهذا من آيات الله ﷻ، قال: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ بمعنىٰ: أنه يكون مسرعًا في هذه التغطية، بحيث لا يكون هناك واسطة ولا حالة ثالثة، إنما نهار يكور الله ﷻ عليه الليل، وليل يكور الله ﷻ عليه النهار، ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾.

قال: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف:٥٤]، الله ﷻ يبين في هذه الآية أنه مهما عظمت هذه الآيات في أعينكم، ومهما كانت كبيرة في قلوبكم اعلموا أنها مخلوقة مدبرة، وأنها مسخرة بيد من خلقها ومن يدبرها وهو الله ﷻ، أجرام عظيمة وأفلاك كبيرة ومع ذلك فهي مسخرة من الله ﷻ، لا تملك لنفسها شيئًا، إنما هي مأمورة يدبرها الله كيف يشاء، ويأمرها الله سبحانه بما يشاء، وهي مطيعة لا يمكن أن تعصي الله ﷻ.

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤] الله ﷻ له الخلق وله الأمر.

أما الخلْق فإنه الإيجاد من العدم، وهذا مما اختص الله ﷻ به، فهو الذي يُوجِدُ من العدم ولا يشاركه أحد في هذه الصفة، ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:٣]، ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر:٦٢]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٠١]، فلا خالق إلا الله ﷻ.

إذن: له الخلْق، صفة اختص الله سبحانه وتعالى بها.

كذلك له الأمر، والأمر قد دلت الأدلة علىٰ انقسامه إلىٰ قسمين، أمْر الله جل وعلا الذي اختص به سبحانه وتعالى فهو صفة من صفاته ينقسم إلىٰ قسمين:

١- أمر كوني.

٢- أمر شرعي.

أما الأمر الكوني فإنه الذي يدبر الله سبحانه وتعالى به شأن مخلوقاته، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾ [النحل:٤٠]، هذا من أمْر الله الكوني.

وثمة أمْره الشرعي وهو ما يأمر به سبحانه وتعالى عباده علىٰ ألسنة رسله عليهم السلام وفيما أنزل من كُتبه علىٰ هؤلاء الرسل الكرام، فهذه أوامر شرعية، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨]، هذا يسمىٰ أمرًا شرعيًا.

وتنبه -يا رعاك الله- إلىٰ أن أمْر الله الكوني لا بد من وقوع المأمور فيه، كل ما أمر الله عز وجل كونًا فلابد من وقوعه، الشيء الذي يأمر الله عز وجل به فإنه واقع لا محالة، أما ما يأمر الله عز وجل به شرعًا فإنه قد يقع من العباد وقد لا يقع، الأمر من أمْر الله عز وجل شرعًا قد يقع وقد لا يقع، وذلك راجع إلىٰ حكمة الله سبحانه وتعالى، فالمقام هاهنا راجع إلىٰ ما تكلمنا عنه في دروس سابقة وهو التفريق بين الإرادتين: الإرادة الكونية والإرادة الشرعية.

الأمر الكوني: كل ما أمر الله ﷻ به كونًا فإن الله أراده كونًا، وكل ما أراده الله كونًا فإنه واقع لا محالة، الله ﷻ لا يُدافَعُ في خلقه، والله ﷻ لا رادَّ لقضائه ﷻ.

أما أمْره الشرعي فإنه راجع إلىٰ إرادته الشرعية، وقد قلنا: إن المراد شرعًا قد يقع وقد لا يقع لكنه محبوب لله ﷻ بكل حال، مقطوع بأنه محبوب لله ﷻ، لكن قد يشاء الله ﷻ أن يقع، وقد يشاء ﷻ أن لا يقع، وذلك لحكمة منه ﷻ.

قال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤] أثبت الله ﷻ لنفسه أنه رب العالمين، فهذا شاهد علىٰ ما نحن بصدد الكلام عنه وهو إثبات الربوبية لله ﷻ، الله ربُّ العالمين، وتكلمنا عن معنىٰ العالمين وعرفنا المراد بهذه الكلمة، وأنها جمع علىٰ الصحيح.

هنا يقول الله ﷻ: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾، (تَبَارَكَ) بمعنىٰ: بلغ الغاية في الخير والعظمة، وهذا فِعْل يختص الله ﷻ به.

عندنا في هذا المقام ثلاث كلمات: تبارك، وعندنا: بارك، وعندنا: مبارَك، بارك فهو مبارِك، وعندنا: مبارَك.

إذن عندنا تبارك وبَارَك ومبارَك، كلمتان منهما يختص بهما الله ﷻ، والكلمة الثالثة يختص بها المخلوق.

أما (تبارك) فلا يجوز أن تُقال هذه الكلمة أو يُضاف هذا الفعل لغير الله ﷻ، وقد أحسن ابن القيم ﷺ الكلام عن هذه المسألة في كتابه «بدائع الفوائد»، فارجع إلىٰ هذا الكتاب إن كنت طالبًا للفائدة يا طالب العلم.

وعليه يُعلم أن ما تقوله العامة من إضافة هذا الفعل لغير الله ﷻ يُعلم أن هذا قول باطل، فلا يجوز أن يقول أحد: فلان تبارك علينا، بعض الناس إذا زاره أحد يقول: فلان تبارك علينا. نقول: هذا غلط ولا يجوز، فالتبارك إنما هو لله ﷻ لا غير.

أيضًا ونحن على عهد قريب -إن شاء الله- من العيد بعض الناس في تهنئة العيد إذا قيل له: مبارَك عليك العيد، تجد أنه يرد فيقول: علينا وعليك يتبارك، وهذا -أيضًا- غلط، وتأمل في موارد هذه الكلمة في الكتاب والسنة تجد أنها ما أضيفت قط إلا لله ﷻ.

الكلمة الثانية: (بارك) بمعنى: أعطى البركة، منح البركة، تفضل بالبركة، وهذا -أيضًا- يختص الله ﷻ به، فالله وحده المبارِك، البركة منه لا من غيره، البركة: الزيادة في الخير ونماؤه، الشيء الذي يجعل الله ﷻ فيه البركة هو الذي يكون أكثر خيرًا من غيره ومن أمثاله.

والبركة شأنها شأن العافية والصحة والنصرة والتوفيق وأمثالها مما يرجع إلى فعل الله ﷻ الذي يمن به على من يشاء، فهو الذي يعطي البركة إذا شاء، وهو الذي يمنع الشيء بركته إذا شاء.

في «صحيح البخاري» أن النبي ﷺ كان مع بعض أصحابه في سفر -والحديث يرويه لنا ابن مسعود رضي الله عنه- فقَلَّ الماء مع الصحابة، أصبح الماء قليلًا، فاشتكوا إلى النبي ﷺ فطلب شيئًا من ماء فأتوا إليه بإناء فيه شيء قليل من ماء،

فوضع النبي ﷺ يده الشريفة في الإناء وقرأ، يقول ابن مسعود: فلقد رأيت الماء يفور من بين أصابع النبي ﷺ، قال عندها النبي ﷺ: «حي علىٰ الطهور المبارَك، والبركة من الله».

(حي) يعني: هلموا، خذوا، «حي علىٰ الطهور المبارك» ثم قال: «والبركة من الله».

إذن: هذه قاعدة ينبغي أن يحفظها المسلم: البركة من الله لا من غيره، النبي ﷺ قطع طريق الشرك علىٰ هذه الأمة حينما قال هذه الكلمة، فلا يُظن أن البركة كانت منه ﷺ، إنما كان عليه الصلاة والسلام وسيلة، وإلا فإن البركة إنما يمنحها الله سبحانه وتعالى، وعليه فإذا كنت راغبًا في البركة، أن يبارك الله عز وجل في ولدك، أن يبارك الله في عمرك، أن يبارك الله في مالك، فاطلب البركة ممن يملكها وممن هو قادر علىٰ إعطائها وهو الله سبحانه وتعالى.

إذن: المبارِك هو الله عز وجل، والبركة منه سبحانه وتعالى.

الكلمة الثالثة: (مبارَك) الله مبارِك والعبد مبارَك، اسم الفاعل لله، واسم المفعول للمخلوق، كما قال عيسىٰ عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم:٣١]، لم يكن عيسىٰ عليه الصلاة والسلام مبارَكًا من ذاته، إنما كان مباركًا لما جعله الله عز وجل كذلك، ولذا أنت -يا عبد الله- إذا كنت في صلاتك وذكرت الصلاة الإبراهيمية تقول: وبارِك، يا الله أنت الذي تبارِك، وبارِك علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد كما بارَكت -أنت لا غيرك- علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم.

إذن: الله ﷻ هو الذي يبارك، الله المبارِك والعبد هو المبارَك.

هذا عن الآية التي أوردها المؤلف رحمه الله دليلًا علىٰ ربوبيـة الله ﷻ، وعلىٰ أن الليل والنهار وجميع هذه المخلوقات آيات علىٰ ربوبية الله سبحانه، دلـت علىٰ أن الله ﷻ خالقها ومدبرها جل ربنا وعز.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَالرَّبُ هُوَ الْمَعْبُودُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

الشَّرح

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَالرَّبُ هُوَ الْمَعْبُودُ)، عندنا هاهنا كلمتان: الرب والمعبود، مر بنا أن الرب يختلف عن المعبود، يعني: هذه الكلمة شيء والمعبود شيء آخر، (المعبود) معنىٰ هذه الكلمة: الإله، قلنا: إن (إله) فعال بمعنىٰ مفعول، إله بمعنىٰ مألوه، وأصل هذه المادة يرجع إلىٰ العبادة، أَلَه يعني: عَبَد، تألَّه يعني: تعبَّد.

لله دَرُّ الغانيات المُدَّه سَبَّحْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ من تَأَلُّهِ

يعني: من تعبُّدي.

إذن: (إله) بمعنىٰ مألوه، يعني: معبود.

إذن: (إله ومعبود) كلمتان مترادفتان، لا إله إلا الله يعني: لا معبود حق إلا الله.

لكن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (والرب هو المعبود) هل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يجهل أن هاتين الكلمتين ليستا مترادفتين؟ الجواب: لا، المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أكثر الناس معرفة بالفرق بين الرب والمعبود، إنما أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يبين لنا أن الرب هو

الذي يستحق أن يكون المعبود، من كان هو الرب حقًا وجب أن يكون المعبود وحده، إذا ثبت عندكم أن الله ﷻ هو الرب يعني: أنه الخالق الرازق المدبر السيد المتصرف المالك ﷻ إذن يجب قطعًا أن يكون هو المعبود لا غير.

خذ قاعدة: الربوبية تستلزم الألوهية، والألوهية تتضمن الربوبية. ما معنىٰ هذا الكلام؟

نقول: الربوبية تستلزم الألوهية، بمعنىٰ: أن من أقر بأن الله ﷻ له الربوبية وحده لا شريك له إذن لازم ذلك هو ملزَم أن يعبد الله ولا يشرك معه أحدًا في العبادة، هذا ما يقتضيه العقل الصريح، كيف يخلقك الله ويرزقك الله ويحييك الله ويميتك الله ثم تتوجه بالعبادة لغيره؟ هذا أمر لا يتأتىٰ عند أصحاب العقول السليمة الذين تجردوا من الأهواء، بما أن الله خالقك إذن يجب أن يكون معبودك، إذا كان الله قد خلقك إذن يجب أن يكون معبودك، وتذكرون مر بنا حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه وفيه: «**وآمركم أن تعبدوا الله وحده**» هكذا قال يحيىٰ بن زكريا لما أمره الله ﷻ بذلك، والنبي ﷺ بيَّن لنا في آخر الحديث أنه يأمرنا بما أمر به يحيىٰ بن زكريا، وزاد عليها أوامر عليه الصلاة والسلام.

الشاهد أنه قال: «**آمركم أن تعبدوا الله وحده، فإن مَثَل ذلك مثَلُ رجل اشترىٰ عبدًا من خالص ماله من ذهب أو وَرِق وقال: هذا عملي وهذه داري، فاعمل وأدِّ إلي، فكان يعمل ويؤدي إلىٰ غيره، فأيكم يرضىٰ من عبده ذلك؟**»، إذا كان الله ﷻ قد خلقنا ورزقنا إذن يجب أن نعبده وحده لا شريك له.

شأن العباد شأن عجيب، الله يخلق وغيره يُعبد، والله يرزق وغيره يُشكر، خيره سبحانه إلىٰ العباد نازل وشرُّهم إليه صاعد، فالله المستعان!

إذن: هذا أمر مر بنا سابقًا وقلنا: إن التلازم حاصل بين الربوبية والألوهية، فمن أقر بربوبية الله ﷻ فلازم ذلك أن يذعن ويقر بألوهية الله وحده لا شريك له.

واستدل المؤلف علىٰ هذا بأول آية في القرآن فيها الأمر بعبادة الله وحده، قال: وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١] كأن قائلًا قال: يا رب، ولماذا نعبده؟ الجواب: لأنه هو ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة:٢١] إلىٰ آخر السياق.

إذن: بيَّن الله ﷻ أن دليل وجوب عبادته وحده لا شريك له كونه الرب الذي خلق، والذي أنزل من السماء ماءً، والذي أحيا العباد، والذي يميتهم، والذي يتولىٰ شأنهم، ثم ختمها بالتأكيد علىٰ ذلك فقال: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة:٢٢] وأنتم تعلمون أن الله ربكم.

إذن: إذا كنتم تقرون وتعلمون وتؤمنون بأن الخلق والرَّزْق والتدبير والإحياء والإماتة إنما هي مما اختص الله ﷻ به إذن يجب عليكم أن تعبدوا الله، فلا تتوجهوا بالعبادة لغيره.

إذن: هذا مراد المؤلف ؒ من قوله: (وَالرَّبُ هُوَ الْمَعْبُودُ) يعني: إذا كان هو الرب فإنه يجب -أيضًا- أن يُضم إلىٰ هذا أن يكون المعبود، بما أنه الرب

فواجب أن يكون المعبود، وكلاهما ثابت لله ﷻ، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ [الناس:١-٢]، لاحظ لما كان رب الناس ولما كان ملك الناس استحق عندها أن يكون إله الناس، يعني: معبودهم، فكونه معبود الناس الذي يجب على الناس أن يعبدوه، يجب أن يتوجهوا له بالعبادة دليل ذلك أنه ربهم وملكهم ومالكهم ﷻ.

وهذا ذكرنا له أدلة فيما مضى، ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤﴾ [الصافات:٤] إن معبودكم واحد، لا يجوز أن يكون لكم معبودان ولا ثلاثة ولا أكثر من ذلك، يجب أن يكون معبودًا واحدًا وهو الله، لم؟ لأنه ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾ [الصافات:٥].

إذن: هذا منهجَ واضح في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهو: أن الإقرار بالربوبية يستلزم الإقرار بالألوهية، إذا وحَّدت الله في الخلق والرَّزق والتدبير فواجب أن توحده في العبودية لا شريك له.



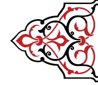
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءَ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ.

الشَّرح

هذه كلمة حسنة من ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تدلُّك علىٰ ما ذكرت وهو: أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستحضر جيدًا أن كلمة (الرب) مختلفة عن كلمة (المعبود) لكنه أراد هذا المعنىٰ الذي ذكره ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولأجل هذا أورد هذه الكلمة حتىٰ يتبين مقصوده.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: 

وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثْلُ: الإِسْلامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ، وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاسْتِعَانَةُ، وَالاسْتِعَاذَةُ، وَالاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلَكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا، كُلُّهَا للهِ تَعَالَى.



الشَّرح

انتقل المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن بيَّن أن الله جَلَّ وَعَلَا هو الرب، يعني: الخالق والرازق والمدبر والمحيي والمميت، وبيَّن لنا دليل ذلك، وأن دليل هذا آياته ومخلوقاته، ومن آياته: الليل والنهار، والشمس والقمر، ومن مخلوقاته: السماوات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن وما بينهما، عطف علىٰ هذا بأن بيَّن لنا وجوب أن يُعبد الله وحده لا شريك له، تقرر وتمهد لنا الطريق إلىٰ إثبات توحيد الله في العبودية، لأننا قلنا: إن باب توحيد الألوهية: توحيد الربوبية، الباب الذي يفتح إلىٰ عبادة الله وحده هو الإقرار بربوبية الله جَلَّ وَعَلَا.

بيَّن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن قولنا: (المعبود) يعني: الذي نتوجه إليه بالعبادة، فما هي هذه العبادة؟ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: (مِثْلُ: الإِسْلامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ)، بدأ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بالكلام عن الأمور العامة في باب العبادة، فذكر مراتب الدين الثلاث التي تعود أفراد العبادة إليها، هذه المراتب هي: الإسلام، الإيمان،

الإحسان، كما بيَّنها لنا حديث جبريل الذي رواه لنا ابن عمر عن أبيه رضي الله عنهما.

الإسلام والإيمان كلمتان إذا ذُكِرتا في سياق واحد كالسياق الذي ذكره المؤلف رحمه الله هاهنا فإن بين الكلمتين فرقًا، ما هو هذا الفرق؟ الإسلام: العبادات الظاهرة، والإيمان: العبادات الباطنة.

إذا ذُكِر هاتان الكلمتان في سياق واحد فقيل: الإسلام والإيمان أو الإيمان والإسلام؛ فالمراد بالإسلام: العبادات الظاهرة، كل العبادات الظاهرة تندرج تحت هذه الكلمة وهي: الإسلام، والإيمان هو العبادات الباطنة، كل العبادات الباطنة تندرج تحت هذه الكلمة.

بقينا الآن في (الإحسان)، الإحسان تكميل الظاهر والباطن، كمال الدرجة العليا من الأعمال الظاهرة، ومن الأعمال الباطنة هي مرتبة الإحسان.

إذن: تكميل الظاهر والباطن هو الإحسان، والإحسان علىٰ درجتين:

١-درجة المشاهدة.

٢-درجة المراقبة.

كما بيَّن هذا النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه**» هذه درجة المشاهدة، المشاهدة القلبية، وقال بعد ذلك صلى الله عليه وسلم: «**فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» وهذه درجة المراقبة.

هذا الموضوع سنتكلم عنه بالتفصيل إن شاء الله إذا وصلنا إلىٰ الكلام عن أصل معرفة الإسلام.

ثم سرد المؤلف ﵀ جملة كبيرة من أفراد العبادات التي يجب أن يتوجه العبد بها إلىٰ الله ﷻ.

قبل أن نتكلم عن هذه العبادات لابد أن نفهم ما معنىٰ العبادة، العبادة تكلم العلماء عنها كثيرًا، لكن أحسن تعريف لها ما بيَّنه شيخ الإسلام أبو العباس ﵀ في «رسالة العبودية»، قال: اسم جامع. يعني: هذه كلمة عامة يندرج تحتها أفراد كُثُر.

قال: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

إذن: ضابط العبادة ما جمع هذين الوصفين:

١-أن يكون محبوبًا لله.

٢-أن يكون رضيه، يعني: شرعه لعباده.

أيُّ شيء توفرت فيه هذان فاعلم أنه عبادة.

الصوم هل يحبه الله؟ يحبه الله. شرعه لنا؟ أمرنا به أمرًا شرعيًا؟ الجواب: نعم، **إذن:** هو عبادة.

الصلاة، السجود، الركوع، الجهاد في سبيل الله، حج بيت الله، أهذه الأمور عبادات؟

نعم.

ما دليلكم؟ أنه يحبها وشرع هذه الأمور لعباده، رضيها لنا عبادات ﷻ.

إذا ثبت في شيء أنه عبادة فما الذي يترتب عليه؟

الذي يترتب عليه أمران:

الأول: أن يُتوجَّه بالعبادة له، لا يجوز أن يُتوجه بذلك لغيره، علمنا أن الصوم عبادة، أيجوز أن نصوم للجن؟ أيجوز أن نصوم للملائكة؟ الجواب: لا، يجب أن نصوم لله، لم؟ لأن العبادة حق خالص لله ﷻ.

الأمر الثاني: أنه متىٰ ما صُرِفت هذه العبادة، يعني: تُوجِّه بها لغير الله فإن هذا الإنسان يكون قد وقع في وسط الشرك، وقع في حمأة الشرك، فما هو الشرك الذي أكثر الله من ذِكْره في كتابه وأكثر نبيه ﷺ في حديثه من ذِكْره، ما هو هذا الشرك؟ الجواب: هو التوجه بالعبادة لغير الله.

إذن: هما أمران متضادان، إما عبادة وإما شرك، فإما أن يكون العبد عابدًا لله أو يكون مشركًا مع الله، لا يمكن أن يكون في الشيء الواحد جامعًا بين الأمرين، إما أن يكون عابدًا لله أو يكون مشركًا مع الله، أمران متقابلان، قال ﷻ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء:٣٦] هما أمران: إما عبادة وإما شرك.

نستفيد من هذا فائدة وهي: أن ثبوت كون الفعل أو القول أو الاعتقاد عبادة كافٍ في الدلالة علىٰ أن التوجه به لغير الله شرك، بمعنىٰ: لو قال لنا قائل: هاتِ الدليل علىٰ أن السجود لغير الله شرك؟ لو سجد الإنسان إنسان لصنم، سجد لحجر، سجد للشمس، ماذا تقولون فيه ؟ موحد وإلا مشرك؟ مشرك، إذا سجد لغير الله يكون وقع في الشرك؟ نعم.

أعطوني الدليل، هاتوا آية أو حديثًا فيه: السجود لغير الله شرك، ماذا نقول؟ يكفي أن يثبت عندنا أن السجود عبادة = تلقائيًا سنفهم وندرك أن التوجه بهذه العبادة لغير الله شرك.

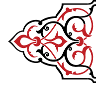
إذن: الدليل على الأفعال أو الأقوال أو الاعتقادات الشركية قد يكون على وجهين: يعني قد يكون على وجه أن يأتي دليل صريح على أن هذا الفعل شرك، كدعاء غير الله، ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤]، **إذن:** أشركتم إذا دعوتم غير الله. هذا واحد.

وقد يكون بمجرد إثبات أن هذا الفعل عبادة، هذا كافٍ في الدلالة على أن التوجه بهذا لغير الله شرك، لم؟ لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦].

الزكاة لغير الله، قصد بها الإنسان التوجه لغير الله ما حكمها؟ شرك، ما الدليل؟ أن الزكاة عبادة.

الركوع، من ركع لإنسان مثله أو ركع لقمر أو ركع لغير ذلك، ما حكمه؟ شرك، ما الدليل؟ أن نقول: الركوع عبادة، هذا القَدْر كافٍ في أن يثبت أن الركوع لغير الله ﷻ شرك.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: 

وَالرَّبُ هُوَ الْمَعْبُودُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءَ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ.

وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثْلُ: الإِسْلامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ، وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاسْتِعَانَةُ، وَالاسْتِعَاذَةُ، وَالاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلَكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا، كُلُّهَا للهِ تَعَالَىٰ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن:١٨].

فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ؛ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ.



عرفنا فيما مضىٰ ضابط العبادة وهي: كل ما اجتمع فيه أمران: محبة الله ﷻ له، ورضاه له، يعني: كونه يشرعه لعباده، فمتىٰ ما اجتمع الأمران في قول أو فعل أو اعتقاد فإنه يُسمىٰ عبادة.

وهذا الباب بابٌ من الأهمية بمكان أن يضبطه المسلم، العبادة شأنها عظيم، هي

الغاية التي خلق الله الخلق من أجلها، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦]، فأيَّ شيء يعلم الإنسان إذا كان يجهل الشيء الذي خلقه الله سبحانه من أجله؟

ومن المهم أن تضبط هاهنا قواعد في غاية الأهمية:

القاعدة الأولى تتعلق بمعرفة ما هي العبادة، فعرفنا أن العبادة هي ما أحبه الله وشرعه لعباده، ويُعرف هذا بأوجه من الدلالات، من ذلك: أمْر الله ﷻ بهذا الشيء، هذا دليل على أنه يحبه ويشرعه لعباده، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:٤٣]، عرفنا إذن أن الصلاة والزكاة عبادة؛ لأن الله ﷻ أمر بها.

من ذلك -أيضًا-: الثناء على فعلها.

من ذلك -أيضًا-: ترتيب الثواب على فعلها.

هذه وغيرها من أوجه الدلالات التي يُستدل بها على أن هذه عبادة من العبادات.

أيضًا قاعدة ثانية وهي: معرفة ما هو الشرك، الشرك -كما قد تعلمنا- نقيض التوحيد وضده، فهما أمران لا يجتمعان: إما أن تكون عبادة أو أن يكون شرك، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦]، فإما أن يكون عابدًا لله -هذا الإنسان- أو أن يكون مشركًا بالله، إما أن يكون قائمًا بالعبادة، وإما أن يكون قائمًا بالشرك، عياذاً بالله!

وضابط الشرك: هو أن يتوجه العبد بالعبادة لغير الله، كل ما عُلِم أنه عبادة

فصرفه لغير الله شرك، هذه قاعدة ينبغي أن يتنبه لها المسلم، كل ما عُلِم أنه عبادة فصرفه لغير الله شرك، هذا هو الشرك الذي أكثر الله ﷻ في كتابه من التحذير عنه، هذا هو الشرك الذي تواردت الأحاديث الكثيرة عن رسول الله ﷺ في بيان خطره، وأنه موجب للخلود في النار، وموجب لغضب الجبار ﷻ.

أيضًا من القواعد المهمة في هذا الباب: أنه لا فرق بين صرف نوع واحد من العبادة لغير الله أو صرفها جميعًا، نبَّه علىٰ هذه القاعدة المؤلف الإمام المجدد ﵀ في بعض رسائله، لا فرق عند أهل السنة بين صرف نوع واحد أو صرفها جميعًا، كل ما ثبت أنه عبادة فإنه لا فرق في حق صاحبه -يعني: في الحكم عليه- بين أن يصرف نوعًا واحدًا منها أو أن يصرف فردًا من نوع منها وبين أن يصرفها جميعًا لغير الله ﷻ، المشرك مشرك، ولو أنه عبد الله ﷻ بكل أنواع العبادة إلا بنوع واحد فإنه يصرفه لغيره.

من كانت صلاته لله، وزكاته لله، وصيامه لله، وحجُّه لله، ودعاؤه لله، لكن ذبحه لغير الله، ماذا نحكم عليه؟ نحكم عليه بأنه مشرك، فلا فرق بين أن يصرف العبد نوعًا من أنواع العبادة وبين أن يصرف كل أنواع العبادة لغير الله ﷻ.

بل لو أنَّ إنسانًا توجه بكل أنواع العبادة لله ﷻ ونوع واحد خلط فيه الأمر: تارة يذبح لله، وتارة يذبح لغير الله، فالجواب أن نقول: إنه مشرك بالله ﷻ، فلا فرق بين قليل الشرك وكثيره، كل ذلك يوجب ما يترتب علىٰ وقوع الشرك من الأحكام: من الخروج من الملة الإسلامية، ومن حبوط جميع الأعمال، ومن وجوب النار المخلَّدة أبدًا -والعياذ بالله- لمن وقع في ذلك.

ومن أدرك هذا الأمر عرف خطورة الأمر وعرف حقيقة الإسلام وحقيقة ما أمر الله ﷻ به، الله ﷻ يقول عن نفسه: «أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه».

هكذا دلت دلائل كثيرة في كتاب الله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا ۖ﴾ [النساء:٣٦] أيّ شيء لا يجوز أن يُشرك مع الله.

إذن: هذا من الأمر المهم الذي ينبغي علىٰ المسلم أن يعرفه.

تكلم المؤلف ﵀ وسبق الشرح فيما يتعلق بمراتب الدين الثلاثة وهي: مرتبة الإسلام والإيمان والإحسان.

ثم ساق ﵀ بعد ذلك أربعة عشر نوعًا من أنواع العبادة، وهذه مندرجة تحت المراتب الثلاثة التي ذكرها، هذه العبادات أمثلة لما ينطبق عليه حد العبادة وهو كون الله ﷻ يحبها ويرضاها ويشرعها لعباده، هذه حق الله ﷻ علىٰ العبد، لا يجوز أن يُزاحَم الله ﷻ في حقه، ولا يجوز أن يُشرك مع الله ﷻ فيها.

ولو تأملت -يا رعاك الله- فيما ذكر المؤلف ﵀ تجد أنه قد جمع في هذه الأمثلة بين نوعي العبادة: بين الظاهر والباطن، فمن أنواع العبادة التي ذكرها:

عبادات ظاهرة، فالاستغاثة والدعاء والذبح والنذر عبادات ظاهرة.

وثمة عبادات باطنة، فالتوكل والإخلاص والخوف والرجاء هذه عبادات باطنة، وكلها ينطبق عليها وصف العبادة، وكلها مما يجب أن يتوجه العبد به لله ﷻ.

قال المؤلف ﵀: (**فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ؛ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ**) (صَرَفَ)

لو تأملت -يا رعاك الله- لوجدت أنه قد اطَّرد في كلام أئمة الدعوة ﵏ وكذا في كلام بعض المتقدمين كابن القيم وغيره من أهل العلم أنهم يستعملون هذه الكلمة في هذا السياق، يقولون: صرف، صرف شيئًا من أنواع العبادة، أو صرف عبادة لغير الله ﷻ فإنه يكون بذلك مشركًا، وهذا الاستعمال سائغ من جهة اللغة لا حرج فيه، فإن هذه المادة مادة (صرف) في اللغة مادة ثَريَّة ولها تفريعات واستعمالات عِدَّة عند العرب، ومن ذلك: أنهم يستعملون كلمة التصريف بمعنىٰ التوجه بالشيء، أو بمعنىٰ تقديم الشيء، وذلك يقولون: صرَّف البَياعات أو البِياعات أو صرَّف الدراهم، يعني: أنه قدَّمها، يعني: أنه بذلها، وهذا مما يمكن أن يُحمل عليه هذا الاستعمال، فصرف العبادة بمعنىٰ التوجه بها وبذلها لمن توجه إليه العبد، سواء كان ذلك لله ﷻ أو كان لغيره، كما أنه يمكن أن تُحمل هذه الكلمة علىٰ محمل أو محامل أخرىٰ.

المقصود أن هذا سائغ لا إشكال فيه من جهة اللغة.

قال: (فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ؛ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ) تلاحظ أن المؤلف ﵀ بيَّن لنا هنا أن هذا الذي توجه بالعبادة لغير الله يُحكم عليه بالشرك ويُحكم عليه بالكفر، الذي يتوجه بأيِّ عبادة لغير الله فإنه يُقال في حقه: إنه مشرك، ويقال في حقه: إنه كافر.

وهاهنا مسألة وهي: ما الفرق بين الشرك والكفر؟

أكثر أهل العلم علىٰ أن الكفر أعمُّ من الشرك، فالكفر ضد الإيمان، فما كان ضدًا للإيمان بالله ﷻ -وقد عرفت ما هو الإيمان بالله- فإنه حينئذٍ يكون هو

الكفر. والشرك فرد من أفراده، فالشرك هو أن يتوجه الإنسان بالعبادة لغير الله، يعبد الله ويعبد غيره فيكون مشركًا، وبالتالي يكون كافرًا؛ لأن الوصف بالأخص يستلزم الوصف بالأعم.

وقد يكون الكفر بغير الشرك، فمن جحد شيئًا مما أوجبه الله، من كذَّب شيئًا من حديث رسول الله ﷺ، من سب الله أو رسوله ﷺ، أو استهزأ بكتاب الله، أو ألحد فأنكر وجود الله ﷻ، أو أنكر نبوة النبي ﷺ، كل هذه أفراد للكفر.

إذن: هذه أنواع أو أقسام تُعتبر قسيمة للشرك، وبالتالي يمكن أن نقول: إن كل شرك كفر، وليس كل كفر شركًا. هذا الذي ذهب إليه كثير من أهل العلم.

وطائفة من أهل العلم ترىٰ أن هذين اللفظين مترادفين، يرىٰ هؤلاء أن هذين لفظان مترادفان، فالشرك هو الكفر والكفر هو الشرك، والمشرك هو الكافر، والكافر هو المشرك، واستدل هؤلاء بجملة من الأدلة.

من ذلك قوله ﷻ في سورة الكهف: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ [الكهف:٣٧-٣٨]، ثم قال ﷻ بعد ذلك -أيضًا-: ﴿وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف:٤٢] مع أنه كان موصوفًا بالكفر، ومع أن كفره كان من جهة الجحود لا من جهة أنه عبد مع الله ﷻ غيره.

كذلك ما جاء في حديث النبي ﷺ المتعلق بالحلف بغير الله ﷻ بأنه كَفَر أو أشرك. وغير ذلك من الأدلة.

وهذا متجه من جهة أن كل من كفر بالله ﷻ فإنه واقع في الشرك ولابد، ولو لم يكن إلا أنه قد اتخذ إلهه هواه. حتىٰ هذا الملحد المعطل الجاحد الذي ينكر وجود الله ﷻ هو في حقيقته ما انخلع من العبودية، هو هرب من عبودية الله ﷻ فصار عبدًا للشيطان وعبدًا لهواه، فما انفك ألبتة من الشرك بالله ﷻ.

والذي يظهر -والله تعالىٰ أعلم- أن هذا القول وجيه بالنظر إلىٰ حقيقة هذا وهذا، يعني: بالنظر إلىٰ حقيقة الكفر والشرك فالذي يظهر -والله أعلم- أنهما أمران مترادفان.

أما من جهة الموصوف فإنه يصح التفريق بين الأمرين، بدليل أن الله ﷻ فرَّق بين المشرك وغيره، فقال ﷻ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة:١] فسمىٰ هؤلاء أهل كتاب وسمىٰ هؤلاء مشركين، وبالإجماع هذا وهذا كافر بالله ﷻ، الكتابي والمشرك عابد الأصنام كلاهما كافر بالله ﷻ، فمن جهة الاصطلاح بالنظر إلىٰ الموصوف فإنه يُفرَّق بين هذا وهذا، أما من جهة حقيقة الأمر فالأمران سيان، والكل متفق علىٰ أن الحكم واحد لا فرق، بالإجماع عند أهل العلم لا فرق بين الكافر والمشرك من جهة الحكم الدنيوي أو من جهة الحكم الأخروي كلاهما -أعني الكافر والمشرك- خارجان عن ملة الإسلام، كلاهما خالدان في النار، عياذاً بالله ﷻ.

واستدل المؤلف رحمه الله علىٰ أن ما سبق ذكره من العبادات حق لله ﷻ، واجب أن يتوجه العبد بها لله ﷻ، وأن من توجه بشيء منها لغير الله فإنه كافر مشرك،

استدل على هذا بدليل، ولا يزال المؤلف ﷺ يعلِّمنا ويربِّينا على نهج في العلم مهم وهو: أن نأخذ الحق بدليله، أن نتلقى العلم بالدليل.

الدليل الذي استدل به ﷺ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧].

الاستدلال بهذه الآية مبني على فهم مسألة، لاحظ - رعاك الله- أن المؤلف ﷺ يستدل بهذه الآية على أن من صرف كل العبادات أو الدعاء خاصة؟ ما الذي أراد المؤلف أن من صرف هذا لغير الله فهو مشرك، هل أراد من صرف كل أنواع العبادة أو شيئًا من أنواع العبادة، أو أنه يستدل على الدعاء الذي هو المسألة فقط؟ تلاحظ أن كلامه يتعلق بكل تلك الأنواع، من صرف أيَّ شيء منها لغير الله فإنه يكون كافرًا مشركًا، لكن الآية فيها ذِكْر الدعاء، قال: ﴿وَمَن يَدْعُ﴾ [المؤمنون:١١٧].

إذن: فهمنا لهذا الاستدلال ينبني على فهم أن الدعاء في النصوص الشرعية جاء على ضربين:

١) جاء بمعنى دعاء المسألة.

٢) جاء بمعنى دعاء العبادة.

وبالتالي فهذه الآية يصح الاستدلال بها على أن من توجه بالعبادة، أيّ عبادة لغير الله فإنه يكون كافرًا مشركًا.

أما دعاء المسألة فإنه الدعاء المعروف، وهو الذي يتبادر إلى الذهن عند ذِكْر هذه الكلمة، وأكثر الأدلة التي جاء فيها كلمة الدعاء ينصرف فيها المعنى إلى

هذا النوع وهو دعاء المسألة، وهو أن تسأل الله، أن تتوجه إلىٰ الله ﷻ بالطلب، أن تستغيث بالله، فإذا قلت: يا الله، يا كريم، يا رحمن، هذا هو دعاء المسألة.

أما دعاء العبادة فإنه جميع أنواع العبادة، كل أنواع العبادة فإنها داخلة في دعاء العبادة، لماذا تُسمىٰ الصلاة أو الزكاة أو الحج دعاءً بهذا المعنىٰ؟ الجواب: أن القائم بالعبادة، أن العابد لله ﷻ بهذه العبادة هو سائلٌ لله ﷻ بلسان الحال، هو ما زكّىٰ ولا صام ولا حج إلا وهو طالب لله ﷻ عفوه، وطالب لله فضله وثوابه، فصح أن يُسمىٰ بهذا داعيًا.

إذن هل يصح أن نقول: إن الصلاة دعاءٌ؟ الجواب: نعم، بمعنىٰ: دعاء العبادة. هل يصح أن نقول: إن الصدقة دعاء؟ الجواب: نعم، بمعنىٰ: دعاء العبادة.

يقول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون:١١٧]، هنا مسألة وهي مسألة مهمة، وفهم كلمة التوحيد ينبني علىٰ فهمها، أساسٌ مهم حتىٰ تفهم (لا إله إلا الله) أن تدرك هذه المسألة، وأن تعرف هذا الأساس وهو ما معنىٰ كلمة (إله)، فإن (لا إله إلا الله) جاء فيها لفظ (إله)، وجاء النفي هاهنا متعلقًا بهذه الكلمة (لا إله إلا الله)، فمن لم يعرف هذه الكلمة كيف يعرف كلمة التوحيد التي هي أساس الملة ومفتاح الإسلام ومفتاح دار السلام.

إذن: هذا من الأمر المهم، ما معنىٰ (إله)؟ إله فعال بمعنىٰ مفعول، إمام بمعنىٰ مؤتم به، فراش بمعنىٰ مفروش، كتاب بمعنىٰ مكتوب، إله بمعنىٰ مألوه، يعني: من تُوِّجه له بالإلهية، والإلهة والإلهية بمعنىٰ العبادة بإجماع أهل اللغة،

أهل لغة العرب لا يعرفون من كلمة (أَله يأله) إلا معنىٰ عبد يعبد، وبالتالي إله بمعنىٰ: معبود، ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون:١١٧] بمعنىٰ: ومن يدع مع الله معبودًا آخر.

بعض الناس يقول: الإله في اللغة هو المعبود بحق، هل هذا الكلام صحيح؟ الجواب: باطل بنص الآية، لأن الله ﷻ أبطل فيها -كما هو الشأن في أدلة أخرىٰ- إلهية هذا المألوه، فكيف نقول: إن الإله هو المعبود بحق؟ ولذا تجد بعض الناس الذين قد يتكلمون عن كلمة التوحيد إذا جاء إلىٰ تفسير (إله) يقول: الإله هو المعبود بحق. وهذا غلط غير صحيح، الإله هو المعبود. من أين نستفيد كلمة (بحق)؟ هذه ضرورية في فهم لا إله إلا الله.

الجواب: من جهة الخبر المقدر لا من جهة كلمة (إله).

إذن: كل من عُبِد فهو إله، يوصف بأنه إله وإن كان هذا الوصف ثابت من جهة منفي من جهة أخرىٰ، ما معنىٰ هذا الكلام؟ وصْف الإله، كل من عبد شيئًا فهو إله في حقه، من عبد الشمس نقول: الشمس بالنسبة لهذا العابد إله، وهي إلهه، لأنه عبدها، هي معبوده، **إذن:** هي إله له. هذا الوصْف ثابت من جهة الواقع منفي من جهة الاستحقاق.

هذه قاعدة مهمة: كل ما فيه إنه إله سواه ﷻ فإنه يصح الوصف من جهة وينتفي من جهة، الوصف ثابت من جهة الواقع، واقع الحال، واقع الأمر أن هذا إله بالنسبة له، الذي يعبد بوذا، الذي يعبد اللات، الذي يعبد المسيح عليه السلام، هذه آلهة بالنسبة له، هذا ثابت من جهة الواقع، لكنه منفي من جهة الاستحقاق، هي

آلهة نَعَمْ لكنها آلهة باطلة، والإله الحق هو الله لا غير، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

إذن: لولا أن الشياطين اجتالت من اجتالت من بني آدم ما كان يصح أن تُطلق هذه الكلمة على غير الله ﷻ، لكن لما اجتالت الشياطين هؤلاء المشركين استُعملت هذه الكلمة في غير الله، وصار لها جمع والأصل أن لا تُجمع، لو بقي الناس على التوحيد لما كان هناك كلمة (آلهة)، ما كان هناك شيء اسمه آلهة، لكن لما وُجِد الشرك صارت هناك آلهة، وصار واجبًا على العبد أن يكفر بها جميعًا، كل ما يُقال في حقه إنه إله، كل هذه الآلهة واجب الكفر بها إلا الله ﷻ.

إذن: نخلص إلى أن كلمة (إله) تُطلق على كل ما عُبِد، سواء كان بحق أو بباطل، سواء كان العابد يعتقد أن هذا المعبود مستحق للعبادة أو لم يكن كذلك، حتى لو كان لا يعتقد أنه مستحق للعبادة فعَبَده هو بالنسبة له إله، قال ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية:٢٣] ولا أحد يقول: إن الهوى شيء كامل متصف بالكمال، فأنا أعبده لأنه مستحق للعبادة، ليس الأمر كذلك، إنما حقيقة الأمر والواقع هو أنه صار هواه إلهًا له.

قال ﷻ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون:١١٧] هنا وقفة عند أهل العلم، هذه الكلمة ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ وصف لأيِّ شيء؟ هي في محل صفة متعلقة بـ(إله)، ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا﴾ صفته أنه لا برهان له به.

وقد يظن بعض الناس أن هذه صفة لها مفهوم مخالفة، وهذا باطل بإجماع

العلماء، العلماء مجمعون على أن هذه الصفة ليس لها مفهوم مخالفة، بمعنى: لا يفهمنَّ أحد أن من عبد إلهًا له عليه برهان فإنه ليس بمشرك، أو من باب أولى أن يكون هناك إله عليه برهان، هذا ليس له مفهوم مخالفة، قال علماء التفسير: هذه صفة لازمة جيء بها للتوكيد، ماذا نقول؟ قوله: ﴿لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صفة لازمة، ما معنى صفة لازمة؟ قالوا: يعني وصْف مطابق للواقع، هذه حكاية للواقع، وإنما جيء بها لأجل تأكيد المعنى لا لأن لها مفهوم مخالفة.

وبالتالي أقول لك: ماذا تفهم من قوله تعالى: ﴿وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام:٣٨] أتقول: إن قوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ لها مفهوم مخالفة؟ فمن الطيور ما يطير بأقل أو بأكثر؟ إنما نقول: هذه صفة لازمة.

وتأمل -مثلًا- في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القصص:٥٠] أيفهم أحد من هذه الآية مفهوم مخالفة فيقول: إن ثمة هوىً بهدىً من الله؟ الجواب: لا، هذه صفة لازمة.

إذن: كل ما عُبِد مع الله ﷻ فالواقع أنه لا برهان له به، أيُّ معبود سوى الله ﷻ موصوف بهذه الحال، ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء:٢٢] أيّ إله، ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء:٢٢]، ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء:٣٩].

إذن هذا يقال: إنه صفة لازمة أو وصف لبيان الواقع، والمناطقة يسمون هذا بالصفة الكاشفة لا المؤسِّسة.

قال: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون:١١٧] هذا عند أهل التفسير صيغة تهديد، دليل علىٰ أن دعاء غير الله دعاء العبادة أو دعاء المسألة منكر ومحرم، وأن الله ﷻ سيتولىٰ تعذيب من وقع في ذلك، ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ وبالتالي سيعذبه علىٰ ذلك، ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ١١٧﴾ [المؤمنون:١١٧] فدل هذا علىٰ أن من عبد غير الله ﷻ بأيِّ نوع من أنواع العبادة فإنه يكون كافرًا بالله سبحانه وتعالى.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ؛ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧].

وَفِي الْحَدِيثِ: «الدُّعَاءُ مخ الْعِبَادَةِ».

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

الشَّرح

سبق الكلام عن تفسير قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧]، وتقدم في كلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذِكْر آية قبل هذه وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن:١٨] وهذه الآية سبق الكلام عنها في المسائل الثلاث التي أوردها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أوائل رسالته، لما ذكر المسألة الثانية وهي: أن الله تعالىٰ لا يرضىٰ أن يُشرك معه أحد في عبادته لا مَلَك مقرب ولا نبي مرسل، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن:١٨].

ثم أورد بعد ذلك ما روي عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «الدعاء مخ العبادة»، وتلاحظ -يا رعاك الله- أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما ذكر أن هذه أدلة علىٰ الدعاء الذي

هو دعاء المسألة، وقلنا: إن الدعاء إذا أُطلق فإنما يُراد به ابتداءً أو على سبيل الأولية دعاء المسألة، ما ذكر قال: ودليل الدعاء قوله تعالىٰ كما ذكر في الخوف والرجاء والتوكل كما سيأتي معنا، وهذا مبني على أن هذه الأدلة الأربعة التي أوردها -وهي ثلاث آيات وحديث- أن هذه تدل على النهي عن دعاء غير الله، وعلى وجوب إخلاص الدعاء لله ﷻ إما على سبيل دلالة المطابقة، بأن يكون المقصود دعاء المسألة، وبالتالي فالاستدلال مستقيم، أو أنها تدخل في عموم الدعاء ، إذا كان الدعاء هو الدعاء بمفهومه الأعم الذي يشمل دعائَي المسألة والعبادة، وبالتالي فتكون هذه الأدلة دليلًا على وجوب إخلاص العبادة جميعًا لله، وعلى وجوب إخلاص الدعاء لله، فإما أن يقال: إن هذه الأدلة تدل على وجوب إخلاص الدعاء لله ﷷ، وهذا ظاهر، الذي هو دعاء المسألة، أو يقال: إن المؤلف ؒ أوردها فكانت عنده دليلًا على الأمرين معًا: على وجوب إخلاص جميع تلك الأنواع، وعلى وجوب إخلاص الدعاء؛ لأنه فرد من أفرادها.

وبالتالي الأدلة التي جاءت في وجوب إخلاص الدعاء لله والنهي عن دعاء غيره فإنه يُنظر إليها من جهتين:

ينظر إليها من جهة أنها قد تكون دالة على دعاء المسألة على وجه الخصوص، والاستدلال حينئذٍ ظاهر لا إشكال فيه.

وإما أن تكون دالة على وجوب إخلاص العبادة لله ﷷ، والدعاء أول ما يدخل في ذلك، لأن دعاء المسألة أفضل أنواع العبادة، في «مستدرك الحاكم» بإسناد حسن عن ابن عباس ﭭ قال: «**أفضل العبادة هو الدعاء**»، ثم تلا قول الله

تعالىٰ الآية التي معنا الآية الرابعة: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

إذن: يصل الكلام الآن إلىٰ الدعاء، دعاء المسألة الذي هو أعظم وأرفع أنواع العبادة، واستدل عليه المؤلف رحمه الله -علىٰ ما سبق بيانه- بهذه الأدلة الأربعة، والآية التي مضت معنا وسبق شرحها: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ الْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧] دليل علىٰ وجوب إخلاص الدعاء لله، وعلىٰ النهي عن دعاء غيره، بل علىٰ أن دعاء غير الله عز وجل كفر به سبحانه وتعالى، لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ الْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون:١١٧]، فدعاء غير الله أعظم منكر علىٰ وجه الأرض، وهو أعظم أنواع الشرك، وهو أكثر أنواع الشرك، أكثر شرك الأولين والآخِرين يتعلق بهذا النوع من أنواع العبادة وهو الدعاء، بل هذا أصل شرك العالم كما يقول ابن القيم رحمه الله.

إذن: هذا الأمر أمر عظيم وهو عبودية الدعاء لله عز وجل، وهو وجوب إخلاص هذه العبادة لله، وهو وجوب الاجتناب لدعاء غير الله سبحانه، فإن هذا ذنب ليس بعده ذنب، قال جل وعلا: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥-٦]، فسمىٰ الله عز وجل الدعاء عبادة، ومعلوم بالضرورة أن كل ما ثبت أنه عبادة فإن التوجه به لغير الله عز وجل شرك، لا أحد أضل من هذا الذي يدعو مع الله عز وجل غيره، وإذا لم يكن هذا شركًا فليس علىٰ وجه الأرض شرك.

ولو تأملت -يا رعاك الله- نصوص القرآن وأدلة السنة لوجدت أن النهي عن دعاء غير الله ﷻ ووصْف ذلك بأنه شرك وكفر أعظم وأكثر من بقية الأدلة التي دلت علىٰ غير ذلك من أنواع العبادة.

الأدلة التي دلت علىٰ النهي عن دعاء غير الله وأنه شرك بالله أكثر من الأدلة التي دلت علىٰ أن السجود لغير الله شرك، أو أن الركوع لغير الله شرك، أو أن الصلاة لغير الله شرك، وهذا بيِّن ظاهر لمن فتح الله ﷻ علىٰ قلبه.

من تلك الأدلة قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ [فاطر:١٤]، فمن دعا غير الله ﷻ إذن يكون مشركًا بالله.

ومن تلك الأدلة -أيضًا- قوله تعالىٰ: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ ﴾ [الرعد:١٤]، الدعوة هنا يعني: الدعاء، دعاء الله ﷻ هو الدعاء الحق. ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ﴾ [الرعد:١٤] ثم قال: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد:١٤].

إذن: من دعا غير الله ﷻ فقد كفر بالله سبحانه، قال ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾ [الجن:٢٠].

إذن: إما أن يدعو الإنسان الله ﷻ فيكون موحدًا، أو يدعو غيره فيكون مشركًا.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤﴾ [غافر:١٤]، أهل التوحيد يحبون ويستجيبون لأمر الله، يحبون دعاء الله وحده، أما أهل الشرك -عياذاً بالله- فإنهم لا يحبون تفريد الله، ولا يحبون توحيد الله في الدعاء، يحبون أن يُدعىٰ غير الله ﷻ، تجد ألسنتهم تلهج بدعاء غير الله، يدعون كل شيء، ويتوجهون إلىٰ كل شيء يعظمونه في قلوبهم، فيشركون مع الله ﷻ.

الشرك في الدعاء أمره عظيم، وجوب إخلاص الدعاء لله ﷻ أمر واجب حتمي لا شك فيه، قال النبي ﷺ: «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**».

إذن: الذي يجب أن يتقي الله ﷻ العبدُ فيدعو الله ولا يشرك معه أحدًا.

أولئك الذين يجازفون، أولئك الذين يغامرون أشنع مغامرة وأفظع مجازفة حينما يتوجهون بدعائهم واستغاثتهم لغير الله من الأموات، من الصالحين، من السادة الأولياء، من أهل القبور ، عليهم أن يتقوا الله ﷻ، وعليهم أن يعلموا أن هذا هو الذي بُعِث لبيان حرمته ومنعه محمد ﷺ، هذا من أعظم ما قام النبي ﷺ بالتحذير منه، فيأتي هذا الذي يزعم أنه استجاب لرسول الله ﷺ فيناقض ما جاء به.

حذار يا عبد الله، اتق الله، رُبَّ كلمة يقولها العبد لا يلقي لها بالًا يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب.

هذا الذي إذا جاءته النائبة أو المصيبة نادىٰ بالمقبورين، أو نادىٰ بالأنبياء:

يا سيد فلان، المدد. يا شيخي فلان، أغثني. يا رسول الله، ضاقت بي الحيل. عليه أن يعلم أنه قد سقط في هُوَّة عظيمة من الشرك، عياذاً بالله!

قد يقول قائل: كيف تقول هذا والله ﷻ يقول في شأن موسى عليه السلام: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥] إذن تجوز الاستغاثة بالمخلوق.

والجواب عن هذا أن يُقال: ما أبعد هذا الإيراد، هذا إيراد بعيد، أدلة بالعشرات في الكتاب والسنة دلت على وجوب إخلاص الدعاء لله، وتحريم ومنع وبيان أنه كفر وشرك كلها تُترك، ثم يتشبث بعض الناس بمثل هذا الاستدلال البعيد؟

هذا الاستدلال استدلال بدليل خارج عن محل النزاع، وذلك أن هذه الآية لم تتعلق أصلًا بما نحن فيه، نحن نتكلم عن دعاء غير الله ﷻ الذي نهى الله عنه، وهذا ليس داخلًا فيه، هذا باب مستثنى وهو: أن هذه الاستغاثة كانت بحي حاضر قادر وبالتالي خرجت عما نحن نتحدث فيه.

دعاء غير الله الذي هو شرك يرجع إلى واحدة من ثلاث صور:

أولًا: دعاء الميت مطلقًا، سواء عند قبره أو بعيدًا عنه، سواء تعلق السؤال بشيء كان قادرًا عليه في حياته أو لم يكن، كل ذلك شرك بالله ﷻ.

ثانيًا: دعاء الحي الغائب مطلقًا، سواء كان ذلك متعلقًا بشيء يقدر عليه لو كان حاضرًا أو لم يكن كذلك.

ثالثًا: دعاء الحي الحاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله، لو جاء إلىٰ شخص حاضر يسمعه بين يديه فقال: يا سيدي فلان، أريد الولد، أنزل المطر، اغفر ذنبي، نقول: هذا شرك بالله ﷻ.

إذن: تنبه -يا رعاك الله- إلىٰ هذه الصور الثلاث، أما هذه الصورة التي جاءت في الآية فهذه لا تتعلق بذلك، هذه استغاثة بحي حاضر قادر فلا تتعلق بما نحن فيه، هذا مما رخص الله ﷻ فيه وهو أن يطلب الإنسان ويسأل الإنسان حيًا حاضرًا قادرًا.

قد يقول قائل: وماذا تقول في قول النبي ﷺ: «**إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور**»؟ هذا حديث، وفيه جواز الاستغاثة بأصحاب القبور؟

والجواب عن هذا أن يقال: هذا حديث مكذوب علىٰ رسول الله ﷺ، قبَّح الله من وضعه! هذا موضوعٌ علىٰ رسول الله ﷺ، لم يقله وحاشاه بإجماع علماء الحديث قاطبة، كلهم مجمعون علىٰ أن هذا كذب علىٰ رسول الله ﷺ.

إذن: حذار -يا عبد الله- من هذا الأمر وهو أن تلجأ فتدعو أو تستغيث بغير الله ﷻ مما تبين لك أنه منكر عظيم، بل هو أعظم أنواع الشرك بالله ﷻ.

واستدل المؤلف علىٰ هذا كما ذكرنا في الآية السابقة وبما قبلها وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن:١٨]، لاحظ -يا رعاك الله- هنا أن قوله: (أَحَدًا) نكرة في سياق النهي، والقاعدة المقررة: أن النكرة في سياق النهي تعمُّ، وبالتالي لا يجوز لأحد أن يخصص من هذا العموم أحدًا، فلو قال

قائل: لا يجوز دعاء أيّ أحد إلا الأنبياء، ماذا نقول؟ نقول: هذا باطل، لأن الله ﷻ نهىٰ عن دعاء كل أحد فقال: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن:١٨]، ومن استثنىٰ أحدًا فعليه الدليل.

إذن: لا يجوز أن يُدعىٰ مَلَك، ولا يجوز أن يُدعىٰ نبي، ولا يجوز أن يُدعىٰ ولي، ولا يجوز أن يُدعىٰ شجر أو حجر أو شمس أو قمر.

إذن: هذا هو ما استدل به المؤلف ﷺ ثانيًا.

استدل ثالثًا بما يُروىٰ عن النبي ﷺ أنه قال: «الدعاء مخ العبادة»، وهذا حديث صحيح المعنىٰ ضعيف الإسناد، لا يصح عن رسول الله ﷺ، فقد أخرجه الترمذي ﷺ في «جامعه» وقال عقيبه: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة. وابن لهيعة أحد الرواة سيء الحفظ.

إذن: هذا حديث ضعيف لا يصح عن رسول الله ﷺ، لكن يُغني عنه ما أخرجه «الترمذي» عقيبه وهو حديث النعمان بن بشير ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال: «الدعاء هو العبادة، ثم تلا قول الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]»، هذا الحديث -حديث النعمان- حديث صحيح الإسناد، وجوَّد إسناده الحافظ ابن حجر ﷺ في كتاب «فتح الباري»، أما ما قبله فحديث أنس ﵁ فهو حديث ضعيف، أما هذا فإنه حديث صحيح عن رسول الله ﷺ، أخرجه «الترمذي» و«أبو داود» و«ابن ماجه» و«النسائي» في الكبرىٰ و«أحمد» وغيرهم من أهل العلم.

ولاحظ -يا رعاك الله- أن قول النبي ﷺ هاهنا: «الدعاء هو العبادة» القاعدة عند البلاغيين: أن تعريف جزءَيِ الإسناد يفيد الحصر والقصر، قال هنا: «الدعاء هو العبادة»، لاحظ معي حينما تقول: محمدٌ طالبٌ، أنت أثبت وصف الطلب لمحمد، لاحظ أنك إذا قلت: محمدٌ الطالبُ، ما معنىٰ هذا؟ الآن تلاحظ أن جزءي الإسناد: المسند والمسند إليه كلاهما معرفة، وهذا أبلغ من قولك: محمد طالب، يعني: هذا الوصف يستحقه محمد بجدارة، إن كان أحد يستحق أن يكون طالبًا فهو محمد، فكيف إذا أضفت إلىٰ هذا ضمير الفصل الذي يفيد التأكيد فقلت: محمد هو الطالبُ، هذا أبلغ وأبلغ.

إذن: النبي ﷺ لو قال: (الدعاء عبادة) لكان واللهِ كافيًا في إثبات أن الدعاء عبادة يجب إخلاصها لله، وبالتالي يكون صرفها لغيره شركًا، فكيف والنبي ﷺ قال: «الدعاء هو العبادة»، أتىٰ أولًا بضمير الفصل الذي يفيد التأكيد، وثانيًا: عرَّف العبادة بالألف واللام، وهذا الحصر ليس المراد منه أن غير هذا النوع من أنواع العبادة ليس عبادة، إنما هذا يفيد التفخيم والتعظيم، أو كما يقول البلاغيون: إنه من حصر المبالغة، كما قلت أو كما مثَّلت لك قبل قليل إذا قلت: محمد الطالب أو هو الطالب، هذا من باب المبالغة والتفخيم والتعظيم لحال هذا الرجل وليس أن غيره ليس طالبًا، كذلك الشأن هاهنا، ويفسر هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما الذي قلته لك قبل قليل: «أفضل العبادة هو الدعاء».

إذن قوله: «الدعاء هو العبادة» يعني: أفضل، أعظم أنواع العبادة: الدعاء.

فنستفيد حينئذٍ أن دعاء غير الله ﷻ شرك.

إذن: تأسيسًا علىٰ ما ذكرنا يُقال: **إننا نستدل على أن دعاء غير الله شرك بنوعين من أنواع الأدلة:**

أولًا: بالأدلة التي نصت علىٰ أن دعاء غير الله شرك.

وثانيًا: بالأدلة التي دلت علىٰ أن الدعاء عبادة، فنفهم أن دعاء غيره شرك؛ لأن القاعدة: كل ما ثبت أنه عبادة فصرفه لغير الله شرك.

كذلك الأمر فيما ذكر بعد ذلك وهو: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾ [غافر:٦٠]، وهذه الآية إن كان المراد بالدعاء فيها عموم الدعاء الشامل لنوعيه فدخول دعاء المسألة من باب أولىٰ، أولىٰ ما يدخل: دعاء المسألة، وإن كان المراد دعاء المسألة علىٰ وجه الخصوص فالأمر أظهر وأظهر، ولاحظ أن هذه الآية علىٰ هذا المعنىٰ الثاني فيها إثبات أن الدعاء عبادة، لأنه قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر:٦٠].

ونظير هذا قول الله ﷻ عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي﴾ [مريم:٤٨] لاحظ أن الكلام هنا تعلَّق بالدعاء، ﴿وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨﴾ [مريم:٤٨] ثم قال: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم:٤٩] فهي صريحة في إثبات أن الدعاء عبادة، وبالتالي من دعا غير الله صرف نوعًا من أنواع العبادة لغير الله، فكان بذلك مشركًا.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَدَلِيلُ الْخَوْفِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران:١٧٥].

الشَّرْح

هذا هو النوع الثاني من العبادات التفصيلية التي أوردها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو عبادة الخوف.

الخوف عبادة عظيمة أمر الله عَزَّ وَجَلَّ بها في كتابه وجاء الأمر بها في سنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو تأملت -يا رعاك الله- في آيات القرآن لوجدت عشرات الأدلة التي دلت علىٰ أن الخوف وما يدور في معناه كالخشية -مما سنتكلم عنه إن شاء الله- والرهبة وما إلىٰ ذلك أن هذه عبادة محبوبة لله عَزَّ وَجَلَّ، وأنه يجب إخلاصها لله عَزَّ وَجَلَّ، وأنه لا يجوز التوجه بها لغير الله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران:١٧٥].

والخوف مع الرجاء مع المحبة هذه العبادات الثلاث أعظم العبادات القلبية، وما عداها فإنه في الجملة راجع إليها، هذه هي محركات القلوب إلىٰ علام الغيوب، فلا إيمان ولا دين ولا إسلام لمن لم يكن محققًا لهذه الأمور الثلاثة: المحبة والخوف والرجاء. وهذه لها أصل واجب به يتحقق التوحيد ثم بعد ذلك درجات كثيرة لا يحصيها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفيها يتسابق المتسابقون.

الخوف من الله ﷻ له سبب يدعو إليه، هذا السبب يرجع إلى ما يأتي:

أولًا: معرفة صفات الله ﷻ، فإن من صفاته ما يقتضي التعبد به لله ﷻ: الخوف والرهبة منه، فالله ﷻ متصف بصفة الغضب والبغض والانتقام والعزة، وغير هذه من الصفات التي حُسْن التأمل فيها والقيام بالتعبد لله ﷻ بها يورث الخوف العظيم من الله ﷻ، فالله ﷻ لذاته يُخاف، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾ [المائدة:٢٨]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل:٥٠]، فالخوف تعلق به ﷻ لمعرفة ما هو عليه ﷻ من الأسماء والصفات التي تقتضي حصول هذه العبودية له ﷻ.

أيضًا من الأسباب التي تدعو إلى الخوف من الله ﷻ: تصديق نصوص الوعيد، كلما كان الإنسان أشد تصديقًا بنصوص الوعيد الواردة في الكتاب والسنة كان أعظم خوفًا من الله ﷻ، والعكس بالعكس، من كان تصديقه وإيقانه ضعيفًا بنصوص الوعيد، بالنصوص التي دلت على أن ثمة دارًا أخرىٰ فيها نار وعذاب وأنكال ووعيد شديد أليم، وأن قبل ذلك يلاقي الإنسان البرزخ الذي فيه عذاب للقبر، وفيه نعيم في القبر، مثل هذه النصوص كلما كان الإنسان أشد تصديقًا بها كان أعظم خوفًا من الله ﷻ، ولذلك بيَّن ﷻ في كتابه: أن أهل الإيمان يخافون من عذاب الله ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء:٥٧]، ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ [الزمر:٩].

من الأسباب المقتضية للخوف من الله ﷻ -أيضًا-: معرفة جناية العبد علىٰ نفسه وتقصيره في القيام بواجب العبودية لله ﷻ، كلما كان الإنسان مستحضرًا

عظيم جُرمه، وكثير ذنبه، وعظيم معصيته، وشدة تقصيره في القيام بالواجبات وكفِّه عن المنهيات وقيامه بشكر الله ﷻ علىٰ نعمه، كلما كان أشد استحضارًا لهذا الأمر كلما كان أعظم خوفًا من الله ﷻ، وهذا أمر يدركه أهل الإيمان.

.... وما لجرح بميت إيلام

إذن: هذه أسباب مقتضية للخوف من الله ﷻ، وبالتالي فالمؤمن يخاف من الله، والمؤمن يخاف من عذاب الله، والمؤمن يخاف -أيضًا- من أن تُرَد عليه بسبب جنايته حسناتُه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠] يعني: خائفة، فإنهم يخافون إذا صلوا وصاموا وحجوا واعتمروا يخافون أن تُرد عليهم أعمالهم بسبب ما اقترفته أيديهم، لا لأن الله ﷻ ليس بشكور، حاشا وكلا، فالله شكور يجازي علىٰ الحسنة بأضعاف ما تستحق، لكن هذا الرد إنما يخاف الإنسان من حصوله بسبب تقصيره، فإن للحسنات أثرًا في السيئات مغفرة، وللسيئات أثرًا في الحسنات إحباطًا.

أيضًا يخاف الإنسان من أن يكون واقعًا في ذنب دون أن يشعر، أو أن يكون قد كُتبت له خاتمة السوء، ولذا يشتد خوفه من هذا الأمر، لأن الأدلة قد دلت علىٰ أن تقصير الإنسان في ملاحظة القيام بما أوجب الله والكف عما نهىٰ الله عنه يورث حصول الغيم والران علىٰ القلب، وبالتالي فإنه يغفل عن حاله وينسىٰ نفسه، وربما يكون واقعًا في بحار من الشرك دون أن يشعر.

ولذا النبي ﷺ علَّم الصديق رضي الله عنه دعاءً عظيمًا: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئًا وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم».

كذلك خاتمة السوء، ما أقضَّ مضاجع الصالحين شيء أعظم من خوف خاتمة السوء، يخشىٰ الإنسان أن يُخذل في آخر عمره والعياذ بالله! لا لأن الله ﷻ ليس بشكور، بل لأنه قد يؤتىٰ بسبب من عند نفسه، ربما يُعاقب علىٰ سيئة من سيئاته فيُبتلىٰ -والعياذ بالله- بخاتمة السوء، نسأل الله السلامة والعافية! والعبرة بالخواتيم، ومن رزقه الله ﷻ حسن الخاتمة فلا يضره -واللهِ- ما أصابه قبل ذلك.

إذن: هذه بعض متعلَّقات مسألة الخوف أو عبودية الخوف من الله ﷻ.

نأتي الآن إلىٰ مسألة مهمة وهي: أنواع الخوف، العلماء رحمهم الله في هذا المقام يتكلمون عن هذه المسألة المهمة وهي معرفة أنواع الخوف التي ترجع إليها أحكامها، أحكام الخوف.

أولًا: الخوف المشروع، وهذا عبادة واجبة وتوحيدٌ لله ﷻ لمن قام بذلك، وهو -ما أسلفت لك- أن يقوم الإنسان بالخوف من الله ﷻ لملاحظته صفاته وأسماءه، أو لمعرفته بجناياته، أو لتصديقه بنصوص الوعيد.

والنوع الثاني: هو الخوف الشركي، هذا النوع إذا وقع فيه الإنسان فإنه يكون مشركًا بالله ﷻ.

وضابط هذا النوع: هو أن يتعلَّق الخوف بما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ وجودًا أو فواتًا، أن يخاف الإنسان من غير الله ﷻ في شيء لا يقدر عليه إلا الله، لا يقدر إلا الله علىٰ إيجاده أو لا يقدر إلا الله ﷻ علىٰ إعدامه، متىٰ تعلَّق الخوف بهذه الأمور فتوجه العبد به لغير الله ﷻ فإنه يكون مشركًا شركًا أكبر بالله ﷻ.

مثال ذلك: لو خاف الإنسان من أحد غير الله ﷻ أن يسلب عنه الإيمان، بعض الناس يخاف من غير الله ﷻ أن يصيبه من هؤلاء المعظَّمين في نفسه من الأولياء والصالحين والمقبورين أن يوصلوا إليه الأذىٰ والمحذور بسلطان غيبي وبقدرة خفية.

وهذا الذي يسميه العلماء: خوف السر، خوف السر يجب أن يتعلق بالله ﷻ، متىٰ تعلق بغيره كان شركًا بالله، خوف السر هو: أن يخاف الإنسان من حصول محذور عليه، أو من وقوع محذور عليه بغير الأسباب الحسية المعهودة، يخشىٰ أن إيمانه يُسلب، يخشىٰ أن لا يُغفر ذنبه، يخشىٰ أن قارعة تنزل عليه من السماء، هذه أمور لا يقدر عليها إلا الله ﷻ، متىٰ تعلَّق الخوف بها فتوجه العبد بذلك الخوف لغير الله ﷻ يكون قد أشرك الشرك الأكبر، وهذا وقع فيه كثير من الناس -والعياذ بالله- في القديم والحديث، حتىٰ بعض الذين ينتسبون إلىٰ هذا الدين من عُبَّاد القبور الذين ناقضوا كلمة التوحيد التي يلهجون بها ليل نهار، ربما يلهج الإنسان منهم بلا إله إلا الله في اليوم مئات المرات، وربما يقتني سُبحة طولها عدة أمتار ويكرر صباح مساء: لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، آلاف المرات، لكنه يناقضها والعياذ بالله! لا إله إلا الله شأنها شأن الوضوء، الوضوء له نواقض، هل يقول قائل: إن الإنسان إذا توضأ فإنه لا ينتقض وضوؤه مهما فعل؟ أيقول هذا عاقل؟ كذلك الشأن في (لا إله إلا الله) لها نواقض كما أن للوضوء نواقض، وبالتالي فمتىٰ انتقض الوضوء لم يُنتفع به وزال حكمه، كذلك لا إله إلا الله، من ذلك: خوف السر.

ولهذا علامات، تجد أن بعضهم من عظيم خوفه من الولي الذي يعظِّمه يستحيل أن يحلف به كاذبًا، مع أنك لو طلبته أن يحلف بالله لربما تسامح فحلف بالله كاذبًا، لكن إذا قيل له: احلف بالسيد الفلاني، واحلف بالولي الفلاني وتعال عند القبر واحلف بهذا السيد فإنه ترتعد فرائسه ويخاف يقول: أخشىٰ أن السيد يغضب فيُنْزِل بي المصيبة.

بعض هؤلاء إذا أُقسم عليه بالله لم يبالِ، واللهِ يا فلان لتفعلن لي كذا، لا يبالي، لكن إذا قيل له: وسيِّدي فلان أعطني كذا، فإنه يرتجف ولا يمكن أن يُخْفِرَ هذا القسم، بل يبادر؛ لأنه يخشىٰ أنه لو لم يستجيب فإن هذا السيد يصيبه بمصيبة تنزل عليه أو علىٰ بيته أو علىٰ ماله أو علىٰ ولده، عياذاً بالله!

كذلك الأمر في خوف بعضهم مما يتعلق بأمور الآخرة، تجد أنه يخاف أن يغفل قلبه عن ملاحظة سيده ووليه المقبور، فلا يبالي بعد ذلك به في الآخرة، يدَعه يدخل النار، لأنه يعتقد أن سيده إذا والاه وصار مريدًا له، وصار مقبِّلًا لعتبات بيته، أو متلطخًا بغبار قبره فإنه سوف يتولاه في الآخرة، كما قال بعض هؤلاء الطواغيت: إذا كان يوم القيامة نصبت خيمتي عند باب جهنم، فأدخِل من أشاء وأمنع من أشاء.

وبعض هؤلاء يصدق هذه الترهات والأكاذيب، فتجد قلبه خائفًا وجلًا، ولذا تسمع من بعض الناس يترنم بقصيدة فيها من الغلو وفيها من إضافة ما لا يجوز إضافته إلا لله فيُضاف إلىٰ النبي ﷺ، تجده يقول مخاطبًا النبي ﷺ:

إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي فضلًا وإلا فقل يا زلة القدم

يعتقد أن النبي ﷺ هو الذي ينقذه من كربات يوم القيامة، وليس أن الله.. وليس أن مالك يوم الدين ﷻ هو الذي ينجي من هذه الكربات، لا شك ولا ريب أن هذا الخوف شرك بالله ﷻ عظيم، بل ربما ما وصل إليه بعض شرك المتقدمين، عياذاً بالله!

إذن: هذا النوع الخوف الشركي، عندنا الخوف المشروع الذي هو عبادة وتوحيد، وعندنا نوع ثانٍ وهو الخوف الشركي.

عندنا نوعٌ ثالث وهو الخوف المحرم، وهذا له صورتان:

الصورة الأولىٰ: الخوف المقعِد الذي يمنع الإنسان عن أداء الواجبات أو الكف عن المحرمات، يخاف من مخلوق فلا يقوم بما أوجب الله ﷻ عليه، إذا كان مع بعض هؤلاء المخلوقين الذين يعظمهم أو يراعي خواطرهم فأُقيمت الصلاة في المسجد، يخاف أن يغضبوا منه فيجلس ولا يبادر إلىٰ ما أوجب الله ﷻ عليه من صلاة الجماعة، أو يجلسون -عياذاً بالله- يعاقرون الخمر فيتناول معهم وهو لا يريد، لكنه يخاف أن يغضبوا عليه، أو أن يتكلموا عنه، أو أن ينفضوا عن صحبته، هذا لا شك أنه محرم، وقد يصل إلىٰ درجة الشرك الأصغر، وإذا فحش ربما أوقع صاحبه في الشرك الأكبر، فحذارِ!

الصورة الثانية: هي الخوف من الله المجرَّد عن الرجاء، انتبه فهذه مسألة مهمة.

الخوف من الله حتىٰ يكون عبادة وحسنة يُثاب عليها يجب أن يكون مقرونًا بالرجاء، وإلا فإن هذه العبادة عبادة مدخولة، لا يجوز أن يتجرد الخوف عن

الرجاء، فمن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري، كما أن من عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ، لابد من اجتماع العبوديتين في القلب حتىٰ يستقيم السير إلىٰ الله ﷻ، الخوف والرجاء كجناحي الطائر، الطائر لا يمكن أن يطير إلا والجناحان سَليمان، أما لو كان أحدهما معطوبًا أو مريضًا لا يستقيم الطير، لا يكون طير لهذا الطائر، كذلك الأمر في الخوف والرجاء لابد من اقتران الأمرين، والقاعدة: أن الخوف والرجاء من المختلفات التي يمكن اجتماعها لا من المتضادات التي لا يمكن اجتماعها، انتبه لهذا!

الخوف والرجاء أمران مختلفان لكنهما لابد من اجتماعهما، ولذا إذا تأملت في آيات القرآن والسنة وجدت أن الجمع بين الخوف والرجاء أكثر ما جاء في هذا الباب، وهذا ما نص عليه النووي ﵀ في «شرحه علىٰ مسلم»، قال: أكثر آيات القرآن فيها الجمع بين الخوف والرجاء، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء:٥٧]، ﴿يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر:٩]، ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر:٤٩-٥٠].

إذن: تجرُّد الخوف وكونه وحده في القلب هذا في حقيقته يأس وقنوط من رحمة الله ﷻ، لو عري القلب، لو خلا القلب من الرجاء في الله ﷻ أو ضعف ذلك جدًا فإن هذا موقع في القنوط واليأس من روح الله ﷻ، والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف:٨٧]، ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر:٥٦].

إذن: لابد من اجتماع الأمرين: خوف مجرَّد قنوط من رحمة الله، هذان أمران متساويان، خوف مجرد يعني: القنوط من رحمة الله ﷻ.

بقي معنا نوع رابع وهو: الخوف المباح، وضابط ذلك: هو الخوف من المؤذيات التي جرت العادة بها، هذه الجِبَلَّة جَبَل الله الناس عليها ، أنهم يخافون مما يؤذيهم، مما يوقع بهم الضرر فيما جرت به العادات.

مثال ذلك: أن يخاف الإنسان من النار، فيحذرها ويبتعد عنها، أن يخاف الإنسان من عدو غشوم ظالم، أن يخاف الإنسان من سَبُع يصيبه بالأذىٰ، أمثال هذا لا شك أنه أمر مباح لا حرج فيه، وعليه يتنزل قول الله ﷻ عن موسىٰ عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:٢١]، هذا خوف يسميه العلماء بالطبيعي أو الجِبِلِّي، هذا مُرَخَّص فيه ولا حرج فيه.

وإن كان ينبغي أن يُلاحظ مع هذا -أيضًا- أن فُحْش هذا الخوف يعني: غلبته علىٰ القلب، بحيث يكون الإنسان ضعيف التوكل علىٰ الله ﷻ والثقة به، فحينئذٍ تزداد المخاوف عنده، وهذا دليل علىٰ ضعف خوفه من الله ﷻ، هذه قاعدة مطردة انتبه لها: كلما عظم خوفك من الله قَلَّت المخوفات في قلبك، وكلما كثرت المخوفات في قلبك ضعف خوفك من الله. لاحظ هذه وراجع في تقريرها كلامًا مهمًا لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «مجموع الفتاوىٰ»، فإن هذا من فقه العبودية النفيس الذي يحتاجه كل مسلم.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ١١٠﴾ [الكهف:١١٠].

الشـَّـرح

انتهينا من الكلام عن عبادة الخوف من الله ﷻ، ويكون الكلام -بتوفيق الله وفتحه وعونه- عن العبودية المقرونة بعبودية الخوف وهي عبودية الرجاء.

ما هو الرجاء؟ الرجاء الشرعي: هو حُسْن الظن بالله، والاستبشار بوعده، والطمع في فضله.

وهو عبادة عظيمة، بل ما طابت العبادة ولا السير إلىٰ الله ﷻ إلا بعبادة الرجاء، لولا الرجاء لتكدرت الأنفس، ولاسودت القلوب، ولعظمت خيبتها، لكن الرجاء في الله سبحانه وحسن الظن به والطمع فيما عنده هو الذي لانت بسببه القلوب والجوارح، وانشرحت وأقبلت علىٰ طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالرجاء عبادة عظيمة، وهو -كما أسلفت- مع الخوف والمحبة، هذه العبادات الثلاث هي محركات القلوب إلىٰ علام الغيوب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذه أصل الأعمال القلبية، وما بعدها فإنه راجع إليها.

الرجاء ما الذي يدفع إليه؟ وما الذي يدعو إليه؟ الذي يدفع إليه ويدعو إليه:

أولًا: الإيمان بأسماء الله ﷻ وصفاته، وحُسْن التعبد بها، فإن أكثر أسماء الله وصفاته يورث التعبد به عبودية الرجاء، أكثر الأسماء والصفات يورث التعبد به

وملاحظته والإيمان به عبودية الرجاء، فالله ﷻ هو الرحمن الرحيم، الغفور الغفار، هو الودود المحسن، هو الكريم الجواد، ذو الرحمة الواسعة الذي هو أرحم بالعبد من والدته به، والذي ادَّخر رحمة عظيمة عنده ﷻ يرحم بها عباده يوم القيامة.

إذن: عبودية الرجاء لله ﷻ يدعو إليها ويحث عليها الإيمان والتأمل في أسماء الله ﷻ وصفاته، وكلما كان الإنسان أكثر معرفة بالله وبأسمائه وصفاته كان أعظم رجاءً في الله ﷻ.

ثانيًا: يدعو إلىٰ الرجاء: التصديق بنصوص الوعد، فإن الله ﷻ وعد عباده فضلًا عظيمًا، وبشرهم بخير كثير، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب:٤٧]، ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر:٥٣]، الله ﷻ فضله عظيم، ولذا وعد بخير عميم لعباده المؤمنين، وبيَّن لهم أنواع ذلك الثواب فيما يرجع إلىٰ تفضُّله بالرحمة والمغفرة والعتق من النيران، أو ما جاء عن النبي ﷺ أو في كتاب الله من أنواع الثواب والنعيم الذي ادَّخره الله ﷻ لعباده يوم القيامة وفي جنات النعيم، إلىٰ غير ذلك مما ورد.

فبقدر ما تكون مصدقًا وموقنًا بهذه النصوص يعظم رجاؤك في الله ﷻ.

والرجاء يرجع إلى أمور متعددة، يعني: ما هي متعلَّقات الرجاء؟

أولًا: يتعلق الرجاء بالطمع في فضل الله سبحانه ورحمته، والتجاوز عن

العبد، فالله ﷻ -كما أسلفت- يُرجىٰ لذاته، لأن أسماءه وصفاته تقتضي هذا الرجاء، ولذا يُؤَمِّلُ العبد في فضله، ويؤمل العبد في ثوابه.

وثمة رجاء أخص وهو الرجاء المتعلق بالحسنات، هذا هو الرجاء الثاني، وهو أن يرجو العبد من ربه قَبول حسناته علىٰ ما فيها من التقصير، وعلىٰ ما فيها من ضعف استحضار مراقبة الله ﷻ، فالإنسان يعبد الله ﷻ ويرجو قَبول حسنته، ولذا جاء في السنة ربط العبادة بالاحتساب في مواضع متعددة، تجد -مثلًا- أن النبي ﷺ يقول: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا**»، الاحتساب: هو رجاء قَبول العمل، فأنت تعبد وترجو أن يقبل الله ﷻ حسنتك. وهكذا هذا الأمر له نظائر في سنة النبي ﷺ.

وهنا قد يَرِد سؤال وهو: ألم تقل: إن العبد يخاف من عدم قبول الحسنة، واليوم تقول: إن العبد يرجو قبول الحسنة، أليس بين هذا وهذا اختلاف؟

والجواب عن هذا بأننا قلنا: إن هاهنا قاعدة ينبغي علىٰ طالب العلم أن يلاحظها ألا وهي: الخوف والرجاء من المختلفات التي يمكن اجتماعها، لا من المتضادات التي لا يمكن اجتماعها. الضدان لا يجتمعان، لا يمكن أن يكون هذا الكأس أبيض وأسود في نفس الوقت، الضدان لا يجتمعان، لكن الخوف والرجاء ليسا من قبيل المتضادات، إنما هما من قبيل المختلفات التي يمكن اجتماعها، وبالتالي فإن قلب المؤمن الصادق القائم بما ينبغي عليه من العبودية يجمع الأمرين، فيرجو قَبول الحسنة وفي نفس الوقت يخاف من ردِّها، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠].

أيضًا هناك رجاء ثالث: وهو رجاء مغفرة السيئة، إذا تاب العبد وأناب ورجع إلىٰ ربه ﷻ فإن العبودية المطلوبة منه هاهنا أن يرجو قَبول هذه التوبة والعفو عما مضىٰ من السيئة والعصيان، ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر:٥٣]، هذه الآية في حق التائبين، فمن تاب إلىٰ الله ﷻ ينبغي أن يرجوَ قَبول توبته، ومع ذلك فإنه يخاف من عدم قبول هذه التوبة، فيجتمع في القلب الأمران.

إذن: هذا ما يرجع إلىٰ متعلَّقات الرجاء.

نأتي الآن إلى العلل التي تَرِد على مقام الرجاء، ما هي الأخطاء التي يقع فيها بعض الناس فيما يتعلق بالرجاء؟.

أولًا: أعظم خطأ وأكبر علة، وهي الموت الأحمر الذي إن وقع فيه الإنسان ولم يتداركه الله ﷻ برحمته فإنه قد أورد نفسه الموارد، ذلك العطب الذي ليس بعده نجاة إلا أن يتدارك الله ﷻ العبد بالتوبة إليه منه، وذلك:

أولًا: أن يقع الإنسان في الرجاء الشركي، والرجاء الشركي يرجع إلىٰ ما يأتي:

أولًا: الرجاء في الأموات مطلقًا، من علَّق طمعه في حصول مطلوبه علىٰ ميت في أيِّ شأن كان فإنه يكون قد رجا رجاءً شركيًا هو الشرك الأكبر المخرج من الملة، من رجا من ميت أن يعطيه كأس ماء أو يغفر ذنبه فالأمران سيان من حيث الحكم، هذا رجاء شركي وهذا رجاء شركي.

إذن: حذارِ لمن علَّق رجاءه وطمعه ورغبته بالأموات، حذارِ من هذا يا عبد الله! إياك، بعض الناس علَّق جُلَّ وربما كل رجائه وطمعه في ميت أو سيد

أو ولي، ولذا هو لا يدعوه إلا والرجاء دافع إلىٰ هذا الدعاء، رجاؤه فيه عظيم ولذا دعاه، ولذا ذبح له، ولذا نذر له، ولذا توجه له بأنواع العبادة.

إذن: حذارِ -يا عبد الله- من هذا الأمر، هذا الرجاء شرك بالله ﷻ، فلا يجوز لك أن تتوجه به إلىٰ الأموات.

ثانيًا: الرجاء والطمع في حي غائب أن يحقق مطلوبًا، يعني: يتعلق رجاؤك في أمر وطمعك في أمر بحيث إن هذا الأمر لا يدري عنه هذا الإنسان، ولا سبيل إلىٰ أن يوصله إليك بالوسائل والأسباب المعهودة الحسية التي جعلها الله ﷻ، ومع ذلك فهذا الإنسان يرجوه، يظن أن عنده قدرة خفية وسلطانًا غيبيًا بحيث إنه يوصل ما يريد مع البعد، فمن رجا غائبًا عنه ولو كان حيًا -كالذي يرجو في شيخه أو في طاغوت من الطواغيت الأحياء الذين يدعون إلىٰ عبادة أنفسهم- أن ينقذه من مهلكة وقع فيها مع البعد؛ فإن هذا نقول: رجاء شركي أشرك صاحبه فيه مع الله سبحانه وتعالى.

الأمر الثالث: الرجاء في حي حاضر ما لا يقدر عليه إلا الله، ترجو شيئًا لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى ترجوه من غيره، هذا -أيضًا- شرك أكبر، فالذي يرجو من أيِّ أحد من حي فضلًا عن غائب فضلًا عن ميت أن يغفر ذنبه، أو أن يتجاوز عن سيئاته، أو أن ينزِل الأمطار، أو أن يرزقه الأولاد، أو ما شاكل ذلك، تعلَّق رجاؤه وطمعه بهذا الغير فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى، هذا هو حقيقة الشرك، هذا الذي بُعِث نبينا محمد ﷺ للتحذير منه.

الأمر الثاني: الخطأ الثاني الذي يقع فيه بعض الناس: هو أن يكون رجاؤه عَرِيًا عن العمل.

أجمع العلماء على أن الرجاء النافع هو الذي يكون مقرونًا بالعمل، وأما رجاء مجرد عن العمل فإن هذا ليس برجاء شرعي وإن ادعاه مدَّعيه، سمه إرجاءً، سمِّه بطالة، سمِّه تمنيًا كاذبًا، سمِّه ما شئت، لكنه ليس الرجاء الشرعي، الراجي حقًا هو الذي يسعى في تحصيل ما يرجو، من كان راجيًا للرحيم الكريم المحسن ﷻ فإنه إن كان صادقًا في رجائه تقدم وعمل وعبد الله ﷻ على الوجه الذي يريد، قال سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف:١١٠] ماذا يفعل؟ هل قال ﷻ: فمن كان يرجو لقاء ربه فليجلس ولينَم وليكسل؟ أو قال ﷻ: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ [الكهف:١١٠].

إذن: من كان راجيًا حقًا عليه أن يعمل بمقتضى رجائه، فيطلب ما يرجوه ويسعى في تحصيل ما يرجو، هذا هو الرجاء الحق.

وهذه مشكلة يقع فيها كثير من الناس مع الأسف الشديد، تجد أنه يقول: أنا أرجو الله، ولكن هذا الرجاء لا يقترن به نشاط في طاعة الله، لا يؤدي ما أوجب الله، ولا ينتهي عما حرم الله، ولا يعطي أهل الحقوق حقوقهم ثم بعد ذلك يتبجح بأنه راجٍ، هذا رجاء خادع، أما الرجاء الصادق هو الذي يكون مقرونًا بالعمل.

الخطأ الثالث الذي يقع فيه بعض الناس في باب الرجاء: أن يكون رجاؤه عريًا عن الخوف، واذكر -يا رعاك الله- ما قلناه ، قلنا: إن من الأخطاء في باب الخوف أن يخاف الإنسان خوفًا غير مقرون برجاء، وهذا قلنا: إنه خطأ، وليس عبودية نافعة.

كذلك الأمر هاهنا ينبغي علىٰ الإنسان أن يرجو الله رجاءً مقرونًا بالخوف، هاتان عبادتان لا تصلح إحداهما إلا باقترانها مع الأخرىٰ، لابد أن ترجو رجاءً مقرونًا بخوف، ولابد أن تخاف خوفًا مقرونًا برجاء.

وتأمل كتاب الله تجد هذا جليًا، تأمل -مثلًا- قول الله تعالىٰ: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [ق:٣٣] من خشي (مَن)؟ الرحمن، انظر كيف تعلقت الخشية باسم الله الرحمن، كيف يجمع هذا لك بين الخوف والرجاء.

وقل مثل هذا في مقابل الخوف وهو الرجاء، تأمل -مثلًا- قول الله ﷻ عن إبراهيم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ [الشعراء:٧٨-٨١] لاحظ كيف أن الجزم كان واقعًا في هذه الأفعال، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء:٨٢]، تلاحظ أن الفعل هاهنا اختلف عما قبل، كان فيما قبل هذا الفعل جزم، لكن هاهنا قال: أطمع، ما قال: والذي يغفر لي خطيئتي يوم الدين. هذا يجعلك تلحظ أن المطلوب من المؤمن أن يرجو رجاءً مقرونًا بخوف.

إذن: رجاء بلا خوف موصل إلىٰ الأمن من مكر الله ﷻ، وخوف بلا رجاء موصل إلىٰ القنوط واليأس من روح الله، وكلاهما أمران منكران لا يجوزان.

إذن: الله ﷻ مرجوٌّ مع شديد انتقامه، مخوف مع سعة رحمته، وهذا من حكمة الله أن الله ﷻ خوَّف عباده خوفًا لا يبلغهم إلىٰ حد القنوط، وجعلهم يرجونه لكنه رجاء لا يوصل إلىٰ الأمن من مكر الله ﷻ.

إذن: عندنا ثلاث علل تتعلق بمقام السائرين إلىٰ الله ﷻ من طريق الرجاء، ينبغي علىٰ العبد أن يتنبه فيجتنب ويتحرز من الوقوع فيها.

أنبه إلى مسألة يكثر السؤال فيها والبحث عنها وهي: هل المشروع أو الأفضل بالمؤمن أن يغلب جانب الرجاء أو أن يغلب جانب الخوف، أو أن يكون هناك تفصيل: فيكون جانب الخوف أغلب تارة، وجانب الرجاء أغلب تارة؟ ما هو الأولىٰ بالمؤمن؟

اختلف العلماء في هذه المسألة اختلافًا طويلًا، وكُلٌّ احتج بحجة، لكن الذي يظهر لي -والله تعالىٰ أعلم، وهو الذي عليه قول جماعة من محققي أهل العلم- أن المشروع للمؤمن أن يكون خوفه ورجاؤه سواء دائمًا، في كل وقت، في حال الحياة وفي حال السلامة وفي حال المرض وعند دنو الأجل ينبغي عليك أن تحرص علىٰ أن يكون خوفك ورجاؤك دائمًا سواء، قال مطرف بن عبد الله ﵀: (إن المؤمن إذا وُزِن خوفه ورجاؤه كانا سواء، لا يزيد أحدهما علىٰ صاحبه). هذا هو الأولىٰ بالمؤمن في كل وقت أن يجتمع في قلبه خوف ورجاء متساويان لا يزيد أحدهما علىٰ الآخر، فإن زيادة أحد هذين علىٰ الآخر ربما يوصل الإنسان إلىٰ شيء من الخلل: إما إلىٰ جانب التفريط والأمن من مكر الله، وإما إلىٰ جانب اليأس والقنوط من روح الله ﷻ.

قد يقول قائل: ألا ينبغي للإنسان أن يغلِّب جانب الرجاء حال دنو الأجل، لأن النبي ﷺ قال: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه**»؟

والجواب عن هذا أن يُقال: إن هذا الحديث فيه حث علىٰ حُسْن الظن بالله ﷻ، وهذا حق، وليس فيه تعرض لجانب الخوف، وما قال: إن الإنسان

يخاف خوفًا دون ذلك، فهذا حث علىٰ الرجاء، لأن الشيطان في هذا الموضع ربما تربص بابن آدم فجعله يسيء الظن بربه، فينبغي أن يلاحظ ذلك، لكن هذا لا يعني أن يكون خوفه أقل من الرجاء.

ويؤيد هذا ما ثبت عند «الترمذي» وغيره بإسناد حسن أن النبي ﷺ عاد أحد أصحابه وهو علىٰ فراش الموت، فقال: «كيف تجدك؟» قال: يا رسول الله، واللهِ إني لأرجو الله وأخاف ذنوبي. لاحظ كيف أن هذا الصحابي ماذا فعل؟ اجتمع في قلبه في ذلك الموضع الأمران: يرجو الله ويخاف ذنوبه. فقال النبي ﷺ: «ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه ما يرجو وأمَّنه مما يخاف».

وهكذا جاءت آثار جمَّة عن السلف الصالح رحمهم الله فيها الحث علىٰ أن يكون الرجاء والخوف سواء، ولكن مع ما سبق ينبغي علىٰ الإنسان أن يكون طبيب نفسه، بحيث يسعىٰ إلىٰ استواء الأمرين في قلبه، فمتىٰ ما لحظ من نفسه اغترارًا وبطالة وطرفًا من الأمن من مكر الله ﷻ عليه حينئذٍ أن يغلِّب جانب الخوف حتىٰ يعتدل الأمر، كذلك إذا لحظ من نفسه أنه يميل إلىٰ القنوط واليأس من رحمة الله ﷻ عليه أن يدمن النظر في أدلة الرجاء حتىٰ يعظم رجاؤه فيعود إلىٰ حال الاستواء.

إذن: المطلوب رجاء كخوف وخوف كرجاء، والله تعالىٰ أعلم.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة:٢٣]، وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

الشَّرح

انتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ الكلام عن مسألة التوكل، التوكل أوسع المقامات الإيمانية من حيث تعلُّقه بصفات الله عَزَّ وَجَلَّ، فكثير من صفات الله سبحانه يقتضي التعلق بها والتعبد بها حصول عبودية التوكل.

فمن اعتقد أن الله هو الرحيم، وأن الله هو القدير، وأن الله هو القوي، وأن الله هو العزيز، وأن الله هو الذي يجير ولا يُجار عليه، إلىٰ غير ذلك مما جاء من صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإن ذلك كله مورث لعبودية التوكل.

كما أن التوكل من أوسع المقامات الإيمانية وقوعًا، فإن التوكل يقع أو يكون من المؤمن ويكون من الكافر، ويكون من الإنس ويكون من الجن، ويكون من الحيوانات ويكون من الطيور، «لو أنكم توكلون علىٰ الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتعود بطانًا».

إذن: التوكل شأنه عظيم، حتىٰ إن الله جَلَّ وَعَلَا جعله شرطًا في تحقيق الإيمان الواجب، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة:٢٣] كما استدل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الآية: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ [المائدة:٢٣] القاعدة عند البلاغيين: أن تقديم المعمول علىٰ العامل يفيد غالبًا التخصيص والحصر، المعمول سواء كان جارًا

ومجرور كما في هذه الآية، أو كان مفعولًا به، أو كان ظرفًا، أو كان مفعولًا لأجله، إلىٰ غير ذلك، تقديمه في الغالب ليس دائمًا، يعني ربما كانت هناك أغراض بلاغية أخرىٰ، لكن في الغالب تقديم المعمول يفيد التخصيص والحصر، كأنه قال: عليه لا علىٰ غيره فتوكلوا، ثم قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة:٢٣]، لاحظ الشرطية هاهنا: إن كنتم مؤمنين، ولاحظ أن الجواب محذوف للعلم به، إن كنتم مؤمنين فتوكلوا علىٰ الله، جعله الله ﷻ في كتابه شرطًا لتحقيق الإيمان الواجب.

وقل هذا -أيضًا- فيما أخبر الله ﷻ به في آية أخرىٰ حيث جعله شرطًا في تحقيق الإسلام، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس:٨٤].

إذن: التوكل شأنه عظيم، وجاء الأمر به والحث عليه في نصوص كثيرة في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ.

إذن: هو عبادة، لأنه انطبق عليها حدُّ العبادة، حد العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه. هل التوكل يحبه الله ويرضاه؟ الجواب: نعم، **إذن:** هو عبادة يُثاب عليها الإنسان ويحبها الله ﷻ منه.

التوكل: هو الاعتماد علىٰ الله ﷻ والثقة به والتفويض إليه.

وهذه العبادة مركبة من أمرين، لُبُّها وأهمُّ ركنيها:

الأول: اعتماد قلبي.

والثاني: عمل بالأسباب،لابد من اجتماع الأمرين لمن أراد أن يكون توكله توكلًا شرعيًا:

أولًا: اعتماد وتفويض وثقة بالله ﷻ.

المتوكل كما ذكر ابن القيم ؒ في كتابه «المدارج» ذكر مثالًا لطيفًا قال: المتوكل كالطفل، فكما أن الطفل لا يسكن إلا لوالدته فكذلك المتوكل لا يسكن إلا لربه ﷻ.

انظر إلىٰ حال طفل صغير تجد أن قلبه يُصاب بالفزع والوجل والاضطراب حتىٰ يجد والدته، لو وجد من وجد من الناس فإنه يتلفت يبحث عن موضع الطمأنينة والسكينة والثقة وهي والدته، وهذا تقريب وإلا فالمقام أعظم، القلب لا يسكن ولا يطمئن ولا يثق ولا يفوض ولا يعتمد إن كان قد أُفعم بالإيمان إلا علىٰ الله الرحمن ﷻ.

الأمر الثاني: لابد من فعل للأسباب؛ لأن الله ﷻ أمر بها، والمقصود بالأسباب هاهنا: الأسباب المشروعة التي أحلها الله، التي شرعها الله، ليس المقصود أن يفعل الإنسان أيَّ سبب، فمن توسل إلىٰ مقصوده بما حرم الله لم يكن متوكلًا، إنما المقصود أن يفعل الأسباب المشروعة الممكنة شرعًا.

وبعض العلماء -كما نقل الحافظ ؒ في «الفتح»- عرَّف التوكل بتعريف لطيف، قال: (هو قطع النظر إلىٰ الأسباب بعد فعل الأسباب).

إذن: هناك فعل للأسباب، ثم بعد أن تقوم بها تقطع النظر إليها والالتفات إليها والاعتماد عليها، لأن قلبك متعلِّق بالمسبِّب ﷻ.

كذلك ابن القيم رحمه الله نقل تعريفًا عن بعضهم في كتابه «المدارج» فقال: (التوكل: اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب).

(اضطراب) يعني: حركة وعمل بالجوارح، (بلا سكون) بلا كسل، لا يقصر الإنسان في فِعْل سبب ممكن شرعًا، ثم يكون سكون بلا اضطراب، يسكن قلبه ويطمئن ويثق بالله سبحانه وتعالى فلا يضطرب ولا يلتفت إلىٰ أحد من المخلوقين، ولا إلىٰ سبب من الأسباب.

إذن: هذا هو التوكل المشروع، فمن قام به حقًا فليبشر بالخير؛ لأن الله تعالىٰ قال كما معنا في الدليل الثاني قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق:٣] والحسْب هو الكافي، الله عز وجل يكفيه، والله عز وجل يتولىٰ أمره، وبالتالي يكون في عزة، ويكون في صيانة، ويكون في سلامة، إذا كان من بيده ملكوت كل شيء جعلك في حسْبه فواللهِ لا يضرك شيء ولو كادتك السماوات والأرض ومن فيهن، إذا كنت صادقًا في توكلك فإن الله عز وجل صادق في وعده، وقد وعد وهو الذي لا يُخلف وعده أن من توكل عليه فإنه حسْبه وكافيه.

وقل مثل هذا في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال:٤٩]، **إذن:** ماذا يريد؟ إذا كان الذي توكلت عليه عزيز فأبشر بالعزة، سينالك نصيبك وما قدَّره الله لك من العزة لأنك توكلت علىٰ العزيز الحكيم، لم تتوكل علىٰ من هو فاقد للحكمة، أو مَن في فعله عبث، حاشا وكلا! أنت توكلت علىٰ حكيم، وبالتالي فإنه يوصل لك الخير من أحسن السُّبُل ومن أفضل الطرق وفي أحسن الأوقات، فأبشر بالخير، أنت توكلت علىٰ عزيز حكيم سبحانه وتعالى.

ما هي العلل والأخطاء التي تقع في مقام التوكل؟

الجواب عن هذا: أن هذا يرجع إلىٰ أمور:

أول ذلك وأسوؤه وأشنعه: التوكل الشركي، أن يتوكل الإنسان علىٰ غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، شيء لا يقدر عليه إلا الله ولا يمكِّن منه سواه ومع ذلك فالقلب يعتمد علىٰ غير الله ﷻ فيه، ليبشر من كان كذلك أنه قد وقع في حمأة الشرك، أُصيب بالداء العضال الذي لا شفاء له إلا أن يتوب الإنسان إلىٰ ربه منه، وهذا كما يقع من كثير من الناس مع الأسف الشديد لا سيما من عُبَّاد القبور والمتعلقين بها كيف تجد أن توكلهم واعتمادهم وثقتهم إنما هي بالأموات والصالحين الذين يعبدونهم مع الله ﷻ، يقول قائلهم:

إن ناب أمر في البلاد نزيل ... قل يا ولي الله إسماعيل

ما قال: قل يا الله.

إن ناب خَطْب في البلاد نزيل ... قل يا ولي الله إسماعيل

إنا لله وإنا إليه راجعون! أين حق الله؟ نقول لهذا: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩﴾ [النمل:٥٩]، يا عبد الله! الله خير أم ما تشرك؟ كيف تجعل تفويضك وثقتك حتىٰ لهج لسانك، علَّقت ذلك بغير الله ﷻ؟ يا لله العجب.

يقول قائلهم وهو يترنَّم:

إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي ... فضلًا وإلا فقل يا زلة القدم

إنا لله وإنا إليه راجعون! أين تعلُّقك بالله؟ وأين تفويضك إليه؟ وأين توكلك عليه؟

ويقول:

مـا سـامني الـدهر ضـيمًا واسـتجرت بـه ....

يريد: النبي ﷺ.

.... إلا ونلت جـوارًا منـه لـم يُضـمِ

إنا لله وإنا إليه راجعون! ماذا تفعل بقول الله ﷻ: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ [الأنعام:١٧]، أتصدق الله أم لا تصدقه؟ إن كنت تكذبه وترىٰ أن ضرًا أنزله يمكن أن يكشفه غيره إذن أنت كاذب في إيمانك، كافر بالله ﷻ، وإن كنت مصدقًا إذن التزم بهذا واعمل بمقتضاه، كيف تتوجه لغير الله ﷻ؟ يا لله العجب! ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل:٦٢]، الله ﷻ هو الذي بيده ذلك الأمر، فاجعل توكلك واعتمادك عليه، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ [النحل:٥٣] ماذا تصنعون؟ ﴿فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣﴾ [النحل:٥٣] ما قال فتجأرون إليه، قلنا: تقديم المعمول يفيد التخصيص والحصر، إليه لا إلىٰ غيره.

من كان مؤمنًا حقًا عليه أن يجعل تفويضه وتوكله واعتماده علىٰ الله ﷻ إن أراد السلامة، إن أراد النجاة. الخسارة والله ليست دينارًا ولا درهمًا، ولا شاة ولا بعيرًا ولا شيئًا من عَرَض الدنيا، الخسارة خسارة لا يمكن استدراكها، خسارة لجنة عرضها السماوات والأرض، وفوز بنار تلظىٰ والعياذ بالله! ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾

[الحج:٣١]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:٤٨]، من مات علىٰ هذا الشرك يئس من رحمة الله، انتهىٰ الأمر، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ [العنكبوت:٢٣]، واللهِ لا تناله رحمة الله، من مات علىٰ هذا الشرك فليبشر بما يسوؤه، عياذاً بالله!

إذن المقام مقام عظيم، التوكل والاعتماد والتفويض يجب أن يُعلَّق بالله ﷻ، أما تعلُّق المخلوق بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الخالق هذا هو الشرك الأكبر، هذا هو الذي كان عليه أبو جهل وأبو لهب وأمية بن خلف. حذارِ يا عبد الله!

العلة الثانية أو الخطأ الثاني: وهو ظَنُّ أن التوكل من مقامات العامة،وهذا تكلمنا عنه بالتفصيل في درس العبودية .

الخطأ والعلة الثالثة: هو الالتفات إلىٰ الأسباب، بمعنىٰ: أن يقوم الإنسان بفعل السبب بجوارحه وأيضًا يكون ثمة شُعبة من الاعتماد القلبي عليه، وهذا بحر لا ساحل له، وما أكثر الخائضين فيه، والمعصوم من عصمه الله ﷻ، ونسأل الله عفوه! وهذا محرم، وقد يبلغ درجة الشرك بالله ﷻ، قد يكون شركًا أصغر، وإذا فحُش ربما أوصل إلىٰ الشرك الأكبر.

إذن: انتبه يا عبد الله، إذا فعلت السبب فلا تعلَّق قلبك به، بل علِّقه بمن بيده كل شيء وهو الله ﷻ.

العلة أو الخطأ الرابع: هو إغفال الأسباب والإعراض عنها بالكلية، يقول بعضهم: أنا متوكل علىٰ الله ﷻ في تحصيل هذا المقصود، ثم يجلس ولا يفعل

شيئًا ولا يتحرك ولا يـُحَصِّلُ شيئًا، وهـذا لا شـك أنه خطأ، لـيس هـذا بالتوكـل الشرعي، فالنبي ﷺ وهو سيد المتوكلين ﷺ فعل السبب وأمر بالسبب، قال ﷺ في الحديث: «واستعن بالله ولا تعجزن»، لا تعجز عن فعل سبب مشروع، النبي ﷺ أعظم الناس توكلًا وكان يأخذ للحرب لَأْمَتَه، لبس ﷺ يوم أحد درعين، كان ﷺ يحفظ قوت سنة لأهله ﷺ وهو المتوكل.

فالمقصود: أن فِعْل الأسباب أمر دلت عليه الشريعة، فمخالفه مخالف للشريعة، كما أنه كاذب في دعواه، الذي يقول: أنا لا أفعل سببًا، متوكلًا علىٰ الله ﷻ فإنه كاذب في دعواه، لم؟ لأنه لا يمكن التخلي عن الأسباب مطلقًا، لا يمكن، فالذي يصلي أليست صلاته سببًا ليحصل علىٰ رضوان الله ورحمته؟ إذن: هو ما انفك عن السبب. أليس أكْله سبب لحصول الحياة؟ إذن: هو ما انفك عن الأسباب، ولذا كاذب من زعم أنه ينفك عن الأسباب، لكنه يقع في وهم ويُقَصِّرُ في بعض المواضع، وهذا منافٍ للشرع ومنافٍ للعقل.

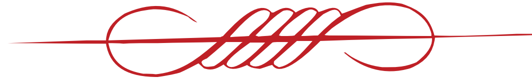
الذي يقول: أنا أريد الولد ومتوكل علىٰ الله ﷻ ولا يتزوج، أيحصل له الولد؟ لا يحصل له الولد، هذا مدافعة لسنة الله ﷻ الكونية وسنته الشرعية.

إذن: لا يمكن لأحد أن يدَّعي أنه يقوم بالتوكل ثم إنه يُعرض عن فعل الأسباب بالكلية.

أورد ابن القيم رحمه الله قصة عن أحد هؤلاء الذين وقعوا في هذا الخطأ والتوهم. يقول: إن أحد هؤلاء الذين ظنوا أن التوكل لا يكون إلا مع الإعراض عن الأسباب، يقول: كان يسافر من مكان إلىٰ آخر ولا يحمل معه إلا ثلاثة أشياء:

يحمل إداوة -يعني: إناءً- ويحمل خيطًا، ويحمل إبرة، يقول: فقط، وأما الأكل والشرب وما إلىٰ ذلك هذا يقول: أنا متوكل علىٰ الله ﷻ فيه.

ولماذا تأخذ هذه الثلاثة الأمور؟ يقول: لابد من إناء أتوضأ به، كيف أتوضأ؟ ولابد من خيط وإبرة، ربما يتمزق الثوب فكيف أصلي والعورة مكشوفة؟ **إذن:** هل هذا استقام له التخلي عن الأسباب؟ هو ما انفك عن الأسباب، هو لا يزال مع فعل الأسباب، لكن حصل عنده توهم وخلل في موضع دون موضع، بل لو فكَّر: سفره لتحصيل مقصود هو فعل للسبب، وإلا كان الذي ينبغي إذا كان لك مقصود في مكان وأنت متوكل -علىٰ هذا الفهم- أن تجلس وسوف يأتيك، ولا شك أن هذا ليس بسديد.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَالْخُشُوعِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

الشرح

المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ساق هاهنا ثلاث عبادات قلبية مما يجب على العبد أن يوحد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها، وأن يتجنب الشرك فيها، جمعها قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

إذن: الرغبة والرهبة والخشوع عبادات ثلاث ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الآية.

وهذه الآية اختلف المفسرون -رحمهم الله- في عود الضمير فيها إلىٰ من؟

يعني في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء:٩٠] من هم؟ قال بعض أهل العلم: إن هذه الآية يُراد بها كل من ذُكِر من الأنبياء والمرسلين -عليهم الصلاة والسلام- قبل هذه الآية في سورة الأنبياء، والله جَلَّ وَعَلَا ساق لنا خبر جملة منهم، فكل من سبق ﴿كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

والقول الثاني: أن الآية متعلقة بمن ذُكِر قبلها، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ [الأنبياء:٨٩] انظر التوحيد يا عبد الله، هل نادىٰ الملائكة؟ هل نادىٰ الأنبياء قبله والصالحين؟ إنما نادىٰ الله، ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ

كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [الأنبياء:٨٩-٩٠] الآية. فيكون **المقصود**: زكريا ويحيىٰ وزوجه، يعني: زوجته.

وعلىٰ القولين: الله ﷻ أثنىٰ علىٰ عباده المؤمنين، بل علىٰ سادتهم بأنهم قائمون بهذه العبادات الثلاث وهي: الرغبة، والرهبة، والخشوع.

الرغبة والرهبة قريبتان في المعنىٰ من الخوف والرجاء، ولذا تلحظ أن أهل العلم إذا تكلموا عن الرجاء قد يستدلون بدليل الرغبة، وربما انعكس الأمر، يتكلمون عن الرغبة فيستدلون بدليل وارد في الرجاء، قل مثل هذا فيما يتعلق بالرهبة والخوف.

إذن: هذه المعاني متقاربة، هذه العبادات متقاربة، الرغبة والرجاء عبادتان متقاربتان، والشيء قد يوضع مكان الشيء إذا كان قريبًا منه، إذا ذُكِر هذا وحده أو هذا وحده فأحدهما يُراد به الآخر، لكن إذا جاءا معًا في سياق واحد فقيل: عبادة الرجاء والرغبة فما الفرق بينهما؟ هاهنا يُذكر فارق دقيق، والذي حققه ابن القيم رحمه الله في «المدارج»: أن الرجاء طمع والرغبة طلب، وعليه؛ فالرغبة ثمرة الرجاء، فإن من طَمِعَ طلب، من أمَّل في شيء فإنه يسعىٰ ويطلب حتىٰ يحصل.

إذن: إذا اجتمعا في سياق فيُفرَّق بينهما بهذا الفرق وهو: أن الرجاء طمع والرغبة طلب، والله ﷻ أعلم.

المقصود: أن الرغبة عبادة يجب أن يوحِّد العبد فيها ربه ﷻ، وتلحظ هذا التوحيد في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة:٥٩]، قلنا مرات: إن تقديم المعمول علىٰ عامله يفيد التخصيص والحصر، فكأنه قال: راغبون إلىٰ

الله لا إلىٰ غيره، لا نرغب إلىٰ غير الله ﷻ، هكذا أهل التوحيد قلوب سليمة، قلوب نظيفة بعيدة عن قاذورات الشرك وأوحال التعلق بغير الله ﷻ، يرغبون إلىٰ الله لا يرغبون إلىٰ غيره، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ﴾ [الأنبياء:٩٠]، علىٰ أيِّ شيء نُصِب قوله: ﴿رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ﴾؟ قيل: علىٰ الحالية، يعني: يدعوننا حال كونهم راغبين راهبين.

وقيل: إن هاتين الكلمتين نُصبتا لأن الواحدة منهما مفعول لأجله، يدعوننا لأجل أنهم راغبون راهبون.

وفي الآية دليل علىٰ الجمع بين الخوف والرجاء، وهذا هو حال المسلم يجمع بين خوفه من الله ﷻ ورجائه فيه، والاعتدال والاحتياط أن يكون الإنسان قد جمع بين خوف ورجاء لا يزيد أحدهما علىٰ الآخر شيئًا.

قال: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ﴾ [الأنبياء:٩٠]، الرَّهَب في المعنىٰ قريب من الخوف، فإذا ذُكر هذا أو ذُكِر هذا يُعبَّر بأحدهما عن الآخر.

أما إذا اجتمعا قال العلماء: الرهبة خوف وزيادة، الرهبة خوف مع تحرز من المخوف منه، ولذا تلحظ أن هناك تقاربًا بين الرَّهَب والهرب، المصدر رَهب رَهَبًا رهْبًا رُهْبًا، هذا من مثلَّث الكلام.

المقصود: أن هناك تقاربًا وتناسبًا في اللفظ والمعنىٰ بين الرَّهَب والهَرَب، فمن رَهِب هَرَب.

إذن: الرهبة في معنىٰ الخوف لكن فيها ملحظ وهو أن فيها تحرزًا وفعلًا، وهو أنك تهرب وتتباعد عن الشيء الذي تخافه.

إذن: الرهبة من الله ﷻ عبادة عظيمة، والمؤمنون يوحدون الله ﷻ فيها، ولذا تأمل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝٤٠﴾ [البقرة:٤٠] تقديم المعمول علىٰ عامله، اسم المفعول إذا قُدِّم فإن هذا يُراد به غالبًا الحصر والتخصيص.

إذن: الرهبة لله ﷻ، وعليه؛ فمن رَهب من غيره فيما هو متعلق به ﷻ فإنه يكون قد وقع في الشرك الأصغر، و تكلمنا عنه في مقام الخوف، قُلْ مثله هاهنا: الذي يخاف أو يرهب خوف السر ورَهَب السر من غير الله ﷻ فإنه يكون قد أشرك الشرك الأكبر، هذا الذي يخاف من غير الله ﷻ أن يصيبه بالمكروه بغير الأسباب الحسية، إنما بسلطان غيبي وقوة خفية، فيوصل إليه المكروه من حيث لا يشعر، إذا تعلق هذا الخوف بغير الله ﷻ كان هذا شركًا أكبر، كالذي يكون من عُبَّاد القبور، تجد أحدهم حريصًا علىٰ أن يلاحظ قلبُه ذِكرَ شيخه، ولا يريد أن ينصرف عن التفكير فيه والتأمل في حاله، يقول: أخشىٰ أن يطلع شيخي علىٰ ما في قلبي فينالني سوء ومكروه، عياذاً بالله!

هذا هو حقيقة الشرك بالله ﷻ، كيف تجمع -يا من تدَّعي الإسلام- هذا الاعتقاد مع قوله تعالىٰ: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝٤٠﴾ [البقرة:٤٠]، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧٥﴾ [آل عمران:١٧٥].

إذن: الخوف والرهبة عبادة واجب أن تتعلق بالله ﷻ.

ثم قال ﷻ: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء:٩٠] تقديم المعمول علىٰ عامله يفيد الحصر والتخصيص.

إذن: الخشوع لله ﷻ.

الخشوع في اللغة: هو الخضوع والسكون، ويُراد به في لسان الشرع كما في هذه الآية: ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء:٩٠] يُراد به: الذل والخضوع لله ﷻ مع المحبة والتعظيم.

قد تذل وتخضع لمن تكره، إذا كان هناك من هو ظلوم غشوم استولىٰ علىٰ جسدك أو مالك فإنك قد تخضع له، لكن قلبك مليء ببغضه، أما الخضوع والذل لله ﷻ فأمر مختلف، إنه خضوع وذل لمن تعظمه وتحبه وهو الله ﷻ، وهذه حالة عامة يجب أن يكون عليها أهل الإيمان، يجب أن يكونوا خاضعين، يجب أن يكونوا منكسرين، يجب أن يكونوا ذالِّين لله ﷻ مع محبتهم لربهم وتعظيمهم له، وثمرة ذلك ينبغي أن تظهر علىٰ جوارحهم، أجمع العلماء علىٰ أن الخشوع محله القلب، لكن أثره يكون علىٰ الجوارح، الخشوع العام حالة للمؤمن في كل وقت، في كل زمان ومكان، وثمرة ذلك: أن ينقاد لحكم الله ﷻ، من كان خاشعًا لله حقًا انقاد لحكم الله ﷻ الشرعي، وانقاد لحكم الله الكوني الذي يجب الانقياد له.

وهناك خشوع خاص، خشوع عند تلاوة كتاب الله ﷻ وعند ذِكْره، قال ﷻ: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الحديد:١٦]، ما هو الخشوع هنا؟ هذا الخشوع هو لِيْن القلب وانكساره.

ولذا تأمل قول الله ﷻ، حتىٰ تفهم هذه الآية تأمل في قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ

﴿جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزمر:٢٣]، هكذا أهل الإيمان قلوبهم ليِّنة خاشعة، بخلاف حال الذين قست قلوبهم، ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ﴾ [الحديد:١٦]، أهل الإيمان إذا ذُكِر الله ﷻ كان في قلوبهم الرِّقَّة، وكان في قلوبهم اللين، وكان في قلوبهم الانكسار.

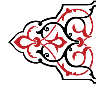
إذن: هذه عبادة يحبها الله ﷻ، فواجب على العبد أن يوحد الله ﷻ بها، بخلاف حال المشركين، فإن من المشركين من يكون عند قبر الولي الذي يعبده أو في المسجد الذي فيه المشهد وفيه الضريح خاشعًا ساكنًا، تلحظ أنه يتكلم بحدود، حركاته بحدود، كل ذلك لمراعاة الخشوع في مقام الولي، في حضرة الولي يجب أن تكون خاشعًا، ولا ينبغي عليك أن تكون فاقدًا لهذا الخشوع، هذا هو الشرك الأكبر الذي من وقع فيه فإنه قد خسر الخسارة الكبرىٰ.

الخشوع عبادة يجب أن تؤدىٰ لله سبحانه وتعالى، لربما وجدت أحدهم في بيوت الله أو عند بيت الله لا يخشع الخشوع الذي يكون عند ضريح السيد الذي يعبده من دون الله، فحذار يا عبد الله.

إذن: هذه العبادات الثلاث جمعتها هذه الآية التي سمعت، والله تعالىٰ أعلم.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:



وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾ [البقرة:١٥٠].

الشَّرح

الخشية قريبة في المعنىٰ من الخوف، لكنها عند اجتماعها مع الخوف أخص منه، فالخشية خوف مع معرفة وتعظيم، ولذا إنما فاز بها العلماء بالله وبدين الله، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

قد تخاف من لا تعرف حاله علىٰ وجه الدِّقة، إنما تسمع الناس يتكلمون عنه أو تعرفه معرفة إجمالية، لكن هذا الخوف يختلف، إذا كنت تعرف المخوف منه علىٰ وجه أكبر، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من صفاته ما يقتضي الوَجَل والخوف والخشية، وكيف لا يكون ذلك ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ٤﴾ [آل عمران:٤]، شديد العقاب، لا يُرد بأسه عن القوم الظالمين، الله متصف بالقدرة والقوة والعزة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الله يغضب، والله يبغض، والله يَمْقُت، فكيف لا يخاف الإنسان لأن منه السبب الذي يقتضي وقوع ما يخافه الإنسان من عذاب ربه جَلَّ وَعَلَا.

الخوف عبودية مبعثها ملاحظة الصفات السابقة مع ملاحظة تقصير الإنسان في نفسه، انتبه لهذا، خوف العبد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس نابعًا من ملاحظة هذه الصفات فحسب، بل بضميمة ملاحظة تقصير النفس، فإنه إنما يؤتىٰ من قِبَل نفسه، ولذا قال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لا يرجوَنَّ عبد إلا ربه، ولا يخافَنَّ إلا ذنبه لأنه -معنىٰ كلامه- إن نزل بالعبد غضب الله وعذابه ومقته فالسبب ذنبه، السبب نفسه التي أقبلت علىٰ ما حرم الله عَزَّ وَجَلَّ.

إذن: ينبغي أن يُلحظ في مقام الخوف هذا الأمر، بخلاف مقام الرجاء، الأمر كله إلىٰ الله، والأمر كله من الله، نعمة الله وثوابه التي يرجوها الإنسان من الله ﷻ ما سببها؟ تعلُّق العبد بربه ﷻ فحسب، لا نظر إلىٰ نفسه، ولا نظر إلىٰ عمله، أيُّ عمل هذا الذي يظن الإنسان أنه موجب لنعمة الله وثوابه؟ ولذا النبي ﷺ يقول: «لا يُدخِلُ أحدَكم الجنة عملُه»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته».

حق الله أعظم من أن يوفيه العبد، لو أنه سجد لله ﷻ منذ أن يولد إلىٰ أن تخرج روحه من جسده واللهِ ما وفَّىٰ الله حقه، فكيف بالغفلة؟ وكيف بالتقصير؟ وكيف بعبادات لو عذبنا الله عليها ما قمنا به لفقدها المراقبة والخشوع والإتيان علىٰ وجهها لكنا بهذا حقيقين، فكيف بما تركنا؟ فكيف بذنوب ومعاصي أمثال الجبال؟ فكيف بتقصير في شكر الله ﷻ علىٰ نِعَمه؟ لو وُزِنت كل أعمالك مقابل أقل نِعَم الله ﷻ عليك واللهِ ما وفَّت بها.

إذن: الرجاء مقامه مختلف عن مقام الخوف، الرجاء النظر فيه إلىٰ صفات الله ﷻ فحسب، يلحظ العبد ذلك فيورثه الرجاء في الله، الخوف تلحظ الصفات المقتضية للخوف بضميمة ملاحظة النفس وتقصيرها في جنب الله ﷻ.

إذن: قد يخاف الإنسان مَن يجهل، وقد يخاف من لا يحبه ولا يعظمه، ليس هذا خشية، متىٰ يكون صاحب هذا المقام قائمًا به؟ إذا كان يخاف الله ﷻ مع معرفة وتعظيم، وهذا حال العلماء.

لذا كلما كنت بالله أعرف كان خوفك منه أعظم، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر:٥٤].

الشَّرح

الإنابة عبادة يجب توحيد الله ﷻ بها كما سمعت في هذه الآية، وكما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ [الممتحنة:٤] تلحظ أن تقديم المعمول على عامله يفيد الحصر والتخصيص.

إذن: هذه عبادة يجب إخلاصها لله سبحانه وتعالى.

الإنابة من العبادات القلبية الواسعة، ولذا متى يكون الإنسان منيبًا لله سبحانه وتعالى؟ قال العلماء: يكون منيبًا إلى الله إذا جمع أربعة أمور، لا يكون الإنسان منيبًا إلا بها، إذا تخلفت أو تخلف شيء منها فات مقام الإنابة:

أولًا: محبة الله.

ثانيًا: الخضوع لله.

ثالثًا: الإقبال على الله.

رابعًا: الإعراض عما سواه.

لا يكون المنيب منيبًا إلا بهذا، ومن كان كذلك فليبشر بالخير، له البشرى من الله، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر:١٧] ماذا لهم؟ ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر:١٧]، أبشر بالخير يا أيها المنيب إلى الله، فالذي يبشرك: الكريم الذي لا يخلف الميعاد سبحانه وتعالى.

إذن: الإنابة أصلها في اللغة: الرجوع، ولكنَّها في الشرع لابد أن تجمع هذه الأمور، أنت ترجع إلىٰ الله ﷻ فتُقْبِلُ إليه وتعرض عما سواه مما هم دونه من الأولياء، من المعاصي، من إبليس ووسوسته، ترجع إلىٰ الله فتعرض عما سواه حال كونك محبًا لله ﷻ خاضعًا له.

والعلماء يذكرون هذه العبادة ويتكلمون عنها بقريب مما يتكلمون عن معنىٰ التوبة، كما أن بين الرهبة والخوف أو الخشية والخوف أو الرغبة والرجاء مقاربة؛ كذلك بين الإنابة والتوبة مقاربة، لكن عند التحقيق وإرادة التدقيق فإن الإنابة هي ما جمع هذه الأمور الأربعة التي ذكرت.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]، وَفِي الْحَدِيثِ: «وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ».

الشَّرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هاهنا عبادة الاستعانة، والدين كله عبادةٌ واستعانة، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]، الاستعانة مأمور بها، يحبها الله، يشرعها لعباده، إذن: هي عبادة، ينطبق عليها وصف العبادة، وإذا كانت عبادة فواجبٌ إخلاصها لله، وكان صرفها لغيره شركًا أكبر، قال الله سبحانه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ [الأعراف:١٢٨]، الاستعانة بالله كما أن الصبر له، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ [يوسف:١٨].

الاستعانة بالله عَزَّ وَجَلَّ، قال النبي ﷺ: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»، وفي «صحيح مسلم» قال النبي ﷺ: «واستعن بالله ولا تعجزن».

إذن: الاستعانة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

كلمة الاستعانة قريبة من كلمة التوكل، ولذا تجد أن أهل العلم يضعون إحدىٰ الكلمتين مكان الأخرىٰ، والقاعدة عند أهل العلم: أنَّ الشيء يوضع مكان الشيء إذا كان قريبًا منه، توضع إحدىٰ الكلمتين موضع الأخرىٰ إذا كانت قريبة منها، فالكلام الذي مضىٰ في التوكل ينسحب معنا الآن في موضوع الاستعانة.

قال أهل العلم: الاستعانة حقيقة مركبة من: ثقة، واعتماد، أحد الأمرين ليس استعانة، متىٰ تكون الاستعانة استعانة؟ إذا اجتمع الثقة مع الاعتماد، قد تثق بمن لا تعتمد عليه، لأنه ضعيف، أو لأنك في غنىً عنه لكنك تثق به، وقد تعتمد علىٰ من لا تثق فيه، إما لأن هذا هو الذي يمكن ولأنك محتاج فلا تجد غيره فتستعين به.

أما الله ﷻ فإن العبد يجمع في قلبه بين ثقته في الله ﷻ ورجائه فيه مع اعتماده وتفويضه إليه ﷻ، ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥] نستعين بك ولا نستعين بغيرك.

والكلام هاهنا فيما يتعلق بصرف الاستعانة لغير الله ﷻ قريبٌ من الكلام في موضوع التوكل، وإن كان التوكل أرفع درجة، التوكل أرفع درجة من الاستعانة، بدليل: أنك تجد أن النصوص قد جاء فيها لفظ الاستعانة بالمخلوق في مواضع ولم يأت قط التوكل علىٰ مخلوق، تجد أنه قد جاء في النصوص الاستعانة بمخلوق في مواضع، الاستعانة التي تليق بالمخلوق جائزة، لكنك لا تجد في النصوص توكلًا علىٰ مخلوق، التوكل في جميع النصوص في كل موارده إنما تعلق بالله ﷻ.

إذا كانت الاستعانة بالمخلوق وهو حاضرٌ وحَيٌّ وقادر فإن هذه الاستعانة لا بأس بها، وهي جائزة، أما إذا كانت استعانة بميت، يدعو عند قبر ولي أو نبي يقول: يا سيدي فلان أعنِّي، (استعانة) الألف والسين والتاء للطلب، طلب العون، يقول: أعنِّي يا سيدي فلان، عليَّ دَيْن، هذا شرك أكبر.

أو يستعين بأحد حي غائب، أو يستعين بحي حاضر لكن المستعان عليه لا يقدر عليه إلا الله، يا سيدي فلان أستعين بك علىٰ دخول الجنة، أستعين بك علىٰ مغفرة ذنوبي، نقول: هذا شرك أكبر، الاستعانة بالمخلوق الحي الحاضر القادر جائزة، وما عدا ذلك -فيما ذكرت لك- فهذا شرك بالله ﷻ.

والدليل علىٰ أن الاستعانة بالمخلوق -فيما ذكرت لك- جائزة جملة من الأدلة جاء فيها لفظ الاستعانة: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة:٤٥]، قال النبي ﷺ -والحديث لا بأس به-: «استعينوا علىٰ إنجاح حوائجكم بالكتمان».

كذلك جاء في كلام الصحابة رضي الله عنهم كثيرًا.

من لطيف ما يُذكر هنا ما أخرج الإمام البخاري رحمه الله في «صحيحه» من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: أن الزبير -أباه، الزبير بن العوام- دعاه يوم الجمل وأخبره أنه يظن أنه مقتول في ذلك اليوم، وأوصاه بديونه أن يؤديَها عنه، وقال: إن أعجزك شيء فاستعن بمولاي. الاستعانة بالله، يقول: فوالله ما دريت ما يريد، فقلت: ومن مولاك؟ قال: الله. يقول الزبير -والأثر في «البخاري»-: فوالله ما أعجزني شيء من دين الزبير إلا ناديت فقلت: يا مولىٰ الزبير اقض عنه دينه، فيقضيه الله عنه.

الشاهد أنه في هذه القصة لقي عبدُ الله حكيمَ بن حزام رضي الله عنه فسأله، قال: ماذا ترك أخي -يعني: الزبير- من دين؟ فأخبره، فرآه شيئًا عظيمًا، فقال: ما أظن أن ما عندكم يَفِي به، فإن أعجزك شيء فاستعن بي.

إذن: الاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه جائزة.

في «الصحيحين» من حديث عائشة ﵂: أن بريرة ﵂ لما أرادت أن تكاتب أهلها جاءت عائشةَ ﵂ تستعينها في أمر كتابتها.

فالاستعانة هاهنا كانت بأمر يقدر عليه المخلوق، فعائشة ﵂ قادرة علىٰ أن تعطيها المال، فاستعانت عائشةَ ﵂ في شأن كتابتها.

إذن: هذا هو الحد الفاصل بين الحق والضلال، بين ما يجوز وما لا يجوز من الاستعانة.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَدَلِيلُ الاسْتِعَاذَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١﴾ [الفلق:١]، و ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١﴾ [الناس:١].

الشَّرح

(الاستعاذة) الألف والسين والتاء للطلب، إذن: الاستعاذة: طلب العوذ أو طلب العياذ.

معنى الاستعاذة: استجارة من الشر. وإن شئت فقل: الالتجاء والاعتصام بمن يكفي من مخوف. إذا خاف الإنسان من شيء فهرب منه ولجأ إلى ما يعصمه يقال حينها: إنه استعاذ.

وفي اللغة يقال: عياذٌ، ويقال: لياذ.

كثير من أهل العلم على أن العياذ: هَرَبٌ من مخوف منه، واللياذ: طلب لما يُرجى، قال المتنبي مادحًا بعض أمراء حمص:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ... ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

مع الأسف هذا الكلام وجهه إلى مخلوق: يا من ألوذ به فيما أؤمله. ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شفاء العليل» يقول: ليته قال هذا الكلام مخاطبًا به ربه، فكان أسعد به من أن يوجهه إلى مخلوق مثله.

ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في البداية يقول: بلغني أن الإمام تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان ينكر كلام

المتنبي هذا ويقول: هذا لا يصلح إلا لله ﷻ. ونَقَلَ عن ابن القيم ﵀ أنه أخبر أن شيخ الإسلام أنه ربما -يقول: ربما، يعني أحيانًا- يذكر هذا البيت في سجوده يدعو به.

المقصود: أن اللياذ في طلب الخير، والعياذ في الهرب من الشر. وبعض العلماء يرىٰ أنه لا فرق بين العياذ واللياذ، كلها في شأن الطلب.

الاستعاذة بالله ﷻ أمَرَ الله ﷻ بها، ﴿قُلْ﴾ أمْر للنبي ﷺ وأمْرُه أمْرٌ لأمته، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ١﴾ [الفلق:١] الفلق في قول الجمهور هو الصبح، وبعض أهل العلم يرىٰ أن الفلق: كل ما يُفلق، يعني: كل شيء يخرج من شيء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام:٩٥]، كل ما يُفلق فالله ﷻ ربه.

وقيل: إن الفَلَق كل المخلوقات، وقيل: إن الفَلَق وادٍ في جهنم، أعوذ بالله من جهنم! إلىٰ غير ذلك من تلك الأقوال، لكن الجمهور علىٰ أن الفلق هو الصبح، والله ﷻ ربه ورب كل شيء.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ١﴾ [الفلق:١]، وأيضًا: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١﴾ [الناس:١]، وهكذا في أدلة أخرىٰ في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ﴾ [النحل:٩٨] أمْر، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨﴾ [النحل:٩٨]، ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ٢٧﴾ [غافر:٢٧]، في أدلة كثيرة.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ [يوسف:٧٩] ما معنىٰ معاذ الله؟ ﴿أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ [يوسف:٧٩]، أقول لك: هل قلت كذا؟ تقول: معاذ الله، يعني: أعوذ بالله معاذاً، أعوذ معاذاً، أو أعوذ معاذاً بالله أن أكون قد فعلت أو أن أفعل كذا وكذا.

المقصود: أن العياذ يجب أن يكون بالله ﷻ، إذا نابك ما ينوب ونزل بك ما ينزل وأصابك ما أصابك فالتجئ إلىٰ الله، واعتصم به وأبشر بالخير، فالله ﷻ هو القوي، والله ﷻ هو القدير، والله ﷻ هو العزيز، هو الذي يقدر أن يعيذك ويؤمِّنك ﷻ.

إذن: الاستعاذة بالله ﷻ.

وأما الاستعاذة بالمخلوق فما حكمها؟

الجواب عن هذا أن يقال: إن المقام فيه تفصيل، الاستعاذة لها جانبان:

- جانب باطن.
- وجانب ظاهر.

الباطن فيه اعتماد وتفويض وثقة بالله ﷻ، وهذا القَدْر لا يجوز أن يتوجه به العبد لمخلوق، هذا يجب أن يتوجه به العبد إلىٰ الخالق ﷻ، هذا قَدْر لا يجوز صرفه إلا لله.

أما الجانب الظاهر فإنه إن كان بما يمكن العَوْذ به بأن يكون في حدود مقدور المخلوق فإنه لا بأس بالاستعاذة هاهنا، وإن كان فيما لا يقدر عليه إلا الله فإنه يكون شركًا بالله.

إن كان العوذ والعياذ في شأن شيء من مقدور المخلوق أن يعيذ منه فإن هذا جائز، أما إن كان في شيء لا يقدر علىٰ دفعه إلا الله فالاستعاذة بالمخلوق هاهنا شرك بالله، والدليل علىٰ هذا -أعني: الشق الأول وهو أن الاستعاذة بالمخلوق فيما يقدر عليه بالظاهر، وأما القلب فمطمئن إلىٰ الله ﷻ معتمد عليه-: جملة من الأدلة، في سنة النبي ﷺ جمع من الأحاديث دلت علىٰ ما ذكرت لك.

في «صحيح مسلم» في شأن المخزومية التي سرقت رضي الله عنها، لما جيء بها إلىٰ النبي ﷺ قال الراوي: فعاذت بأم سلمة. يعني: لجأت إليها واحتمت بها لعلها تشفع لها عند رسول الله ﷺ، وهذا القَدْر مما يمكن المخلوق أن يفعله، يعني: يمكن أن تشفع عند النبي ﷺ، قال: فعاذت بأم سلمة رضي الله عنها، فقال النبي ﷺ: «والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»، انتهىٰ الأمر.

وفي «مسند الإمام أحمد»: أن صفية رضي الله عنها بعثت بإناء فيه طعام إلىٰ النبي ﷺ وهو في بيت عائشة، تقول رضي الله عنها: فاحتملتني الغيرة وأصابتني رعدة. وغيرة النساء لا تخفاكم. قالت: فقمت إلىٰ الخادم فأخذت الإناء فضربته في الأرض فانكسر وتناثر الطعام، فنظرت فرأيت الغضب في وجه رسول الله ﷺ، فقالت: أعوذ برسول الله أن يلعنني اليوم. ماذا قالت؟ أعوذ برسول الله أن يلعنني اليوم.

تلاحظ هاهنا أن الاستعاذة كانت بمخلوق -وهو أشرف المخلوقين ﷺ- فيما يقدر عليه، فهو قادر عليه الصلاة والسلام علىٰ أن لا يلعنها، ولذا فإن النبي ﷺ لم يلعنها، ولكنه قال: «إناء بإناء وطعام بطعام».

المقصود: أن الاستعاذة بالمخلوق ظاهريًا فيما يقدر عليه المخلوق لا بأس به، ولذا في «الصحيحين» النبي ﷺ أخبر قال: **«ستكون فتنٌ القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي»** إلىٰ أن قال ﷺ: **«فمن وجد ملجئًا أو معاذاً فليعذ به»**، **«فمن وجد ملجًا أو معاذاً»** يعني: ما يُعاذ به **«فليعذ به»**، فدل هذا علىٰ أن الاستعاذة بالمخلوق فيما يقدر عليه في ضوء التفصيل الذي ذكرته لك أن هذا قَدْر لا بأس به.

المقصود: أن علىٰ العبد أن يوطِّن نفسه علىٰ أن يكون لجوؤه إلىٰ الله ﷻ واحتماؤه بجنابه ﷻ، فإنك إذا كنت تريد المهرب وتريد النجاة وتريد الصيانة والحماية فمن الذي هو قدير علىٰ ذلك؟ أليس هو الذي علىٰ كل شيء قدير؟ **إذن:** لم تتوجه النفوس وتتلفت القلوب إلىٰ المخلوقين؟ وطِّن نفسك -يا عبد الله- علىٰ أن تلجأ إلىٰ الله ﷻ من كل ما تخاف ومن كل ما تهرب منه وأبشر بالخير، فربُّك هو الكريم ﷻ، سيعطيك ما ترجو، وينجيك مما تخاف، والله المستعان .



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَدَلِيلُ الاسْتِغَاثَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٩].

الشَّرح

(الاستغاثة) الألف والسين والتاء فيها للطلب، طلب الغوث، والكلام في الاستغاثة من جنس الكلام في الدعاء، علىٰ التفصيل الذي ذكرنا في باب الدعاء نقول كما قلنا فيه، يعني: الكلام في الاستغاثة هو هو الكلام في الدعاء، فإن الاستغاثة نوع من الدعاء، العلاقة بين الدعاء والاستغاثة علاقة عموم وخصوص، فكل استغاثة دعاء وليس كل دعاء استغاثة، ذلكم أن الاستغاثة دعاء في حال الكرب، الدعاء في حال الكرب يسمىٰ دعاءً ويسمىٰ -أيضًا- استغاثة، أما في حال الرخاء فالدعاء لا يُسمىٰ استغاثة، ولذا قال الله ﷻ عن المؤمنين في بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال:٩]، الحال كانت شديدة، المسلمون أقل من الكفار، لجؤوا إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، النبي ﷺ وصحبه الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يدعون الله ﷻ دعاءً فيه إلحاح في حال شدة واضطرار، **إذن:** هذا هو الاستغاثة.

إذن: الاستغاثة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمن استغاث بميت، جاء إلىٰ عتبات قبره وقال: يا سيدي البدوي، يا سيدي العيدروس، يا ابن علوان، يا سيدي العمودي، يا سيدي عبد القادر أغثني، أنا في كرب، أنا في هم وغم، المدد المدد، نقول: هذا هو دين أبي لهب وأبي جهل سواء بسواء، هذا الذي كان عليه أمية بن خلف وأضرابه من المشركين، واللهِ هذا هو دين المشركين.

أما الذي يستغيث بالله ويسأل الله هذا دين محمد ﷺ الذي قال: «**إذا سألت فاسأل الله**».

كذلك إذا سأل حيًا غائبًا يطلبه على البعد، يناديه مع بُعْد المسافة، لا يدري عنه ولا يسمعه لكنه يعتقد في قلبه فيه اعتقادًا عظيمًا -ولولا هذا ما دعاه- أن له سمعًا محيطًا وبصرًا واسعًا، وقدرة غيبية يستطيع بها إيصال ما يريده العبد مع البعد، هذا جعله عديلًا لله، حاله حال المشركين إن لم يتب إلى الله، حاله كحال الذين يقولون وهم في النار: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨].

كذلك الاستغاثة بحي حاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ، كذلك هذا شرك بالله.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَدَلِيلُ الذَّبْحِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣]، وَمِنَ السُّنَّةِ: «لعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ».

الشَّرح

الذبح لله عبادة يحبها الله، فواجب أن يتقرب بها العبد إلىٰ الله، ولا يجوز له أن يصرفها لغيره.

الذبح لله عبادة، أمر الله ﷻ بذلك وسَنَّ رسوله ﷺ في مواضع، فالذبح في الأضحية والذبح في الهدي والذبح في العقيقة والذبح في النذر والذبح في الفدية، هذه مواضع جاءت الشريعة بالأمر بالذبح فيها لله، فمن قام بذلك يريد وجه الله هذا عابد لله، لا يجوز صرف هذه العبادة لغير الله، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ [الأنعام:١٦٢] لمن؟ ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام:١٦٢]، والنسك في هذه الآية هو الذبح في قول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ومجاهد وجمع من السلف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ورحمهم.

وبعض العلماء يرىٰ أن النسك هاهنا ما هو أعم وهو العبادة جميعًا، كل العبادة تُسمىٰ: نسكًا، وعلىٰ هذا التفسير أيصح الاستدلال بالآية علىٰ وجوب الذبح لله؟ إذا قلنا: إن قوله: ﴿وَنُسُكِي﴾ [الأنعام:١٦٢] هو العبادة جميعًا، هل يصح أن نستدل بها في هذا المقام؟ أو نقول: إن الاستدلال بها خارج محل البحث؟ يصح؛

لأن الذبح عبادة، فتندرج في عموم الآية، في عموم النسك، وبالتالي فإنه يصح الاستدلال بها، سواء قلنا: إن النسك هو الذبح علىٰ وجه الخصوص أو ما هو أعم فإن الاستدلال بها حينئذٍ يكون بإدخال خصوص في عموم.

لكنَّ الأقرب -والله أعلم- أن النسك هو الذبح، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦]، النسك هنا بالإجماع الذبح، فسر هذا النبي ﷺ كما في الصحيح من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه لما كان القمل في رأسه كثيرًا فآذاه وهو محرم فالنبي ﷺ رخص له أن يحلق شعره، ومعلوم أن حلْق شعر المحرم محظور، هذا لا يجوز، لكن الحاجة ألجأت إلىٰ هذا فأمره النبي ﷺ أن يحلق وأن يفعل واحدًا من ثلاثة، وهكذا كل من ارتكب محظورًا وهو محرم علىٰ وجه القصد -يعني: قاصد أن يفعل هذا المحظور- فإنه يجب عليه أن يفدي، والفدية واحد من ثلاثة أمور بيَّنها النبي ﷺ في هذا الحديث: أن يذبح شاة، هذا هو تفسير النسك، أو أن يصوم ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾ [البقرة:١٩٦] أمره أن يصوم ثلاثة أيام.

قال: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ﴾ [البقرة:١٩٦] الصدقة هنا فسرها النبي ﷺ بأن يطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع.

والأرجح من أقوال أهل العلم -وهذا من باب الفائدة- أن الفدية فيها تفصيل من حيث محلها، أين أفدي؟ الصواب من كلام أهل العلم في هذه المسألة -والعلم عند الله تعالىٰ- أن الذبح والإطعام في مكة، والصيام حيث شاء العبد. يعني: لا يلزم أن يكون الصيام في مكة، إنما إذا ذبح فيذبح في حدود الحرم

في مكة، أو إذا أطعم فيطعم في مكة، يطعم فقراء الحرم.

إذن: هذا هو الذبح عبادة لله ﷻ، وقل مثل هذا في قوله تعالىٰ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَـرْ ۝٢﴾ [الكوثر:٢]، لاحظ معي وجه الاستدلال من جهتين:

أولًا: من جهة الأمر، (انحر) فعل أمر، ما أمر الله ﷻ به أمر إيجاب أو استحباب هذا هو الحسنة، هذه هي العبادة، ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَـرْ ۝٢﴾ [الكوثر:٢]، **إذن**: ما أمر الله ﷻ به أمْر إيجاب أو استحباب هذه حسنة يتعبد العبد بها لله ﷻ، فكيف إذا كان مع ذلك وجه آخر وهو اقتران الذبح بالصلاة؟ أليست الصلاة أفضل الأعمال؟ انظر كيف قرن النبي ﷺ الذبح بالصلاة؟

إذن: الذبح لله عبادة يُثاب الإنسان عليها، وواللهِ إنها عبادة عجيبة، تكسب القلب قدرًا عظيمًا من الإيمان، لا يدرك هذا إلا من جرَّبه، حال الذابح لله من حيث ما ينسكب في قلبه من الإيمان واليقين حال عجيبة، وجرِّب تر.

ومن لم يجرِّب ليس يعرف قدره فجرب تجد تصديق ما قد ذكرناه

والذبح عبادة تجمع عبادات، فيه توكل علىٰ الله، وفيه حُسْن ظن بالله، وفيه تعظيمٌ لله، وفيه إنفاق في سبيل الله.

إذن: عبادة وأيُّ عبادة، صاحبها مأجور إن أداها علىٰ الوجه الذي يحبه الله.

وهاهنا يجدر أن نتكلم عن أحكام الذبح، فإنَّ بعض الناس يلتبس عليه هذا المقام، يقال: **الذبح لا يخلو من خمس أحوال:**

أولًا: الذبح لله باسم الله، يعني: اجتمع في هذه الحال العبادة والاستعانة، فحقق العبدُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]، وهذه هي العبادة، وهذا هو

التوحيد أن يذبح الإنسان لله، قصْدُه لله، يريد وجه الله، ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر:٢] يعني إيش (وانحر)؟ لربك.

إذن: كما تصلي لله فانحر لله، هذا الذي يذبحه للإنسان لله، هذه هي العبادة أن يذبح الإنسان لوجه الله، وعبادة لابد فيها من إخلاص ومتابعة لرسول الله ﷺ، ولذا كان الذبح عبادة في المواضع المخصوصة في الشريعة، كالأضحية التي هي عبادة يؤديها المسلمون، في هذا الوقت وخلال أيام التشريق يعني: عشرة وإحدىٰ عشر واثنا عشر وثلاثة عشر إلىٰ ما قبل غروب الشمس هذا وقت الذبح للأضحية، وهذه عبادة مَن كان قادرًا عليها فلا يفرِّطن، فإننا نسمع من بعض الناس اليوم -مع الأسف الشديد- من يزهِّد في عبادة الأضحية، ويقول: يا أخي، تصدق بها للجمعيات الخيرية فهو أفضل، الناس ملَّت من اللحوم واللحوم الحمراء ضارة، فما حاجتنا إلىٰ هذه الأضاحي؟ هذا كلام غلط ولا ينبغي.

الخلل عند القائل جاء من جهة يغفل عنها كثير من الناس وهي: ما المقصود الأهم في الأضحية؟ ما هي الغاية الأهم؟ أَهي أكل اللحم؟ أكل اللحم غاية، ولكن أنا أقول: الغاية الأهم لا أقول الشيء المهم، أقول: الشيء الأهم، ما هو رقم واحد كما يقولون؟ أهو اللحم؟ لا، إنما هو إراقة دم بهيمة الأنعام تقربًا إلىٰ الله وتعظيمًا له، أنَّىٰ تتوفر هذه العبادة في غير الأضحية، هل الذبح للجمعيات أو الصدقة للفقراء.. وهذه واللهِ عبادة حسنة لكن لها موضعها، لكن الأضحية عبادة وشعيرة يحبها الله ﷻ فكيف يعطلها بعض الناس؟ من كان قادرًا فينبغي عليه أن يحرص عليها، ومن لم يقدر لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، ونيتك تبلغك ما لا يبلغك عملك.

إذن: هذا ذبح لله، ثانيًا: ذبح باسم الله، أهلَّ وذبح وهو يقول باسم الله عند ذبحه، وهذا أمر لابد منه، لابد للعبد إذا ذبح أن يسمي الله، أن يذكر الله، قال ﷻ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١٢١]، قال تعالىٰ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١١٨]، قال ﷺ كما في «الصحيح»: «ما أنهر الدم» يعني: ما كان فيه قطع للبلعوم والأوداج، ذبح، نحر، ليس ضرب بمطرقة أو صعق بكهرباء، قال: «ما أنهر الدم وذُكِر اسم الله عليه فكُل»، رتَّب النبي ﷺ حِلَّ الأكل علىٰ الأمرين: أن يكون هناك ذبح، إراقة للدم، والأمر الآخر: أن يكون هناك ذِكْر لاسم الله ﷻ.

إذن: لابد من التسمية، وهذه التسمية حينما تقول: بسم الله معناها: أستعين بالله، الباء هاهنا للاستعانة وللتبرك أيضًا، ولا يخفىٰ علىٰ مسلم ما لذكر اسم الله علىٰ الذبيحة من أثر عظيم، فإنه إذا ذُكِر اسم الله علىٰ الذبيحة زَكَت وطابت وصارت نافعة للعبد يأكلها فتنفعه، بخلاف الميتة الموقوذة التي لا يُذكر اسم الله عليها فإنها خبيثة، لو أكلتها ما انتفعت بها.

المقصود: أنَّ العبادة هاهنا تكون عبادة إذا اجتمع الأمران، أن يذبح العبد لله باسم الله.

الحال الثانية: أن يذبح باسم الله لغير الله. يقول: بسم الله نَعَم ، ولكن القصد والنية: التقرب لغير الله، أن يُعَظِّمَ غير الله بهذا الذبح، وهذا شرك في العبادة، نعوذ بالله من حاله! وصاحب هذه الحال حَرِيٌّ بلعنة الله وطرده عن رحمته، قال ﷺ فيما أخرج الإمام مسلم: «لعن الله من ذبح لغير الله»، ما أجدره وما أحراه باللعنة!

إي وربي، كيف لا يكون كذلك وهو قد صرف عبادة واجب إخلاصها لله لغيره؟ هؤلاء الذين يذبحون لغير الله يسمِّن ذبيحته، طول السنة وهو يطعمها ويسمِّنها، حتىٰ إذا جاء موعد مولد الشيخ حملها وذهب بها، وعند ساحة القبر والمشهد والمقام ذبحها للشيخ، كما يفعل بعض الناس عياذاً بالله! هكذا كان يفعل كفار قريش، وهكذا كان يفعل أبو جهل وأبو لهب واللهِ. أما محمد ﷺ وصحبه فهم الذين قال الله ﷻ في شأنهم: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام:١٦٢].

بعض الناس إذا ابتنىٰ بيتًا جديدًا ربما يأتيه شيطان الجن أو شيطان الإنس فيقول: انتبه! الجن يؤذونك في البيت، لا ينجيك منهم إلا أن تأخذ شاة سوداء أو ديكًا أسود فتذبحه للجن علىٰ عتبة الباب، عند الباب، يلطخ بالدم جدران البيت، أو إذا كنت تبني أساسات البيت اذبحه وضع هذا الدم في الأساسات، هذا طيب، حينئذٍ لا يأتيك الجن. يتقرب إلىٰ الجن بالذبح، يشرك بالله، يخرج من الإسلام والعياذ بالله! ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦].

إن توجهت بالعبادة لغير الله أشركت، حُزت بالخسارة التي ليس بعدها خسارة، حذار يا عبد الله، الذبح واجب أن يكون لله، حتىٰ ولو سمَّيت الله ما نفعك ذلك، لأنك قصدت غير وجه الله.

الحال الثالثة -وإن كانت قد نادرة أو قد لا تتصور لكن أذكرها تتمة للقسمة- وهي: أن يذبح لله باسم غير الله، يريد وجه الله لكن يقول: باسم السيد المسيح، أو باسم مريم، أو باسم الزُّهرة، أو باسم الحسن، أو باسم الحسين، أو باسم

فاطمة، يذكر اسم غير الله على الذبيحة ويستعين بهذا الذي يسميه وإن كان يقصد وجه الله، وهذا إن كان لا يتصور لكن من فعله نقول: أشرك الشرك الأكبر، وهذا شرك في الاستعانة.

الحال الرابعة: أن يذبح باسم غير الله لغير الله، ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ [النور:٤٠]، يريد التقرب لغير الله من الجن، من الأولياء، من الصالحين، ذاكرًا اسم غير الله، جمع بين ضغث وإبالة، بين شرك في العبادة وشرك في الاستعانة، ضيَّع ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥] وإن كان يقولها في صلاته لكنه خالفها في عمله.

إذن: هذا شرك أكبر، وهو أشنع الأحوال.

الحال الخامسة -وانتبه-: أن يذبح باسم الله لغرض مباح، يسمي الله لأن هذا مما شُرِع لنا وأُمرنا به والقصد غرض مباح.

مثال ذلك: أن يأتيه ضيف يريد أن يكرمه فيذبح له ويطعمه، يذبح لأجل إكرامه، أو أهله في البيت يريد أن يطعمهم اللحم، يقول: باسم الله ثم يأتي باللحم ويعطيهم، هذا جائز لا حرج فيه.

والسؤال هاهنا: ما الفرق بين الأحوال الأربع السابقة وهذه الحال؟ الفرق: أن الذبح هو المقصود في الأحوال الأربعة واللحم تَبَع، وفي الحال الأخيرة اللحم هو المقصود في هذا الأمر والذبح تَبَع، كيف ذلك؟ المقصود فيما سبق سواء كان الإنسان يذبح لله أو لغير الله، المقصود هو التقرب والتعظيم.

ولذا دعني أضرب لك مثالًا: الآن لو أنك في الهدي كنت متمتعًا أو قارنًا وفي مكة ذهبت إلىٰ المسلخ وأخذت شاتك في منىٰ وذبحتها يوم العيد أو أيام التشريق، ذبحتها ثم رميتها ومشيت، السؤال: هل أديت عبادة الهدي أم لا؟ الجواب: نعم، أنت أديت العبادة وبرئت ذمتك منها، وإن كنت أسأت في الإسراف، كونك ترمي.. مع الأسف كثير من الحجاج ربما يفعل ذلك، يذبح ويرمي أو يأخذ قطعة والباقي يرميه، هذا لا يجوز، لأن الله يقول: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ﴾ [الأعراف:٣١]، مسلمون كُثُر يتمنون اللقمة وأنت ترمي هذه الذبيحة هكذا؟ هذا لا يجوز، لكن هذا موضوع آخر، الجهة هنا منفكة، كون اللحم ما انتفعت به ولا أكلت أو تصدقت أو أهديت هذا موضوع آخر، لكن المقصود حصل وهو الذبح، بعكس الحالة الأخيرة، الذبح ليس مقصودًا، إنما المقصود اللحم.

ولذا لا فرق إذا أردت أن تكرِم ضيفك، أو أن تطعم أهلك اللحم أن تذهب إلىٰ السوق فتشتري وتذبح أو تجدها مذبوحة الآن، لو وجدت شخصًا ذبح ذبيحته أو علّق ذبيحته في الدكان وأخذتها وطبختها وقدمتها النتيجة واحدة؛ لأن المقصود اللحم وليس الذبح.

إذن: نفرِّق هاهنا لأن بعض الناس يسأل يقول: كيف يكون الذبح عبادة وأنا أذبح ولا أريد العبادة، أنا أذبح لأجل أن أكرم ضيفًا أو أطعم أهلي اللحم أو أن أتصدق باللحم للفقراء، فنقول: الفرق هو ما قد علمت، أن تذبح باسم الله لغرض مباح هذا أمر جائز، وقد يكون مستحبًا إذا ذبحت تريد أن تتصدق باللحم وليس أن تتقرب بإراقة الدم.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَدَلِيلُ النَّذْرِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧﴾ [الإنسان:٧].

الشَّرح

انتقل المؤلف ﵀ إلىٰ ذِكْر العبادة الأخيرة التي أوردها ضمن ما أورد من أفراد العبادة التي يحبها الله وشرعها لعباده، وأمر بتوحيده فيها، ونهىٰ عن إشراك غيره معه فيها، ذكر جملة من العبادات قبل هذا ثم ختم بعبادة النذر، وختم بهذا -أيضًا- الكلام عن الأصل الأول وهو معرفة الله ﷻ.

النذر عبادةٌ التقرب بها إلىٰ الله ﷾ صاحبه مأجور قائم بالتوحيد، ومن أشرك مع الله ﷿ في هذه العبادة فإنه قد وقع في حمأة الشرك، فمن عقد النذر أو وفَّىٰ بالنذر لغير الله فإنه أشرك مع الله، ومن عقد النذر ووفىٰ بالنذر لله فهذا هو الموحد العابد لله ﷾.

والذي ينذر ما نذر إلا وهو يحب الله ويريد الخير، ويريد ما عند الله ﷿، وهو علىٰ ثقة ويقين من أن الله ﷾ يعطيه الخير وينيله مبتغاه، ولأجل هذا نذر.

إذن: هذا النذر الوفاء به عبادة يحبها الله ﷿، ولذا أثنىٰ علىٰ أهلها، قال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧﴾ [الإنسان:٧].

إذن: الوفاء بالنذر يحبه الله ﷾، إذن هو عبادة، وصرفه لله ﷿ توحيد، وصرفه لغيره شرك بالله ﷻ، وهذه حال المشركين المخذولين من عُبَّاد القبور وأضرابهم الذين ينذرون للأولياء والصالحين، يأتي أحدهم إلىٰ عتبات الشيخ

والمشهد والمقام يتمسح ويتضرع ويقول بضراعة وسكون: يا سيدي فلان، إن عاد ابني من السفر أو شُفِي أبي نذرٌ علي لك أن أذبح وأوزع للفقراء عند قبرك. هذا شرك بالله ﷻ، صاحبه واقع في أعظم معصية عُصي الله ﷻ بها.

إذن: النذر يجب أن يكون لله ﷻ عقدًا ووفاءً، إنشاؤه يجب أن يكون لله، والوفاء به يجب أن يكون لله، وهكذا يكون الإنسان عابدًا لله ﷻ.

النذر الكلام فيه يحتاج إلىٰ شيء من التفصيل.

النذر هو: أن يوجب الإنسان علىٰ نفسه ما لم يجب بصيغة مخصوصة، توجب علىٰ نفسك شيئًا لم يوجبه الله عليك بصيغة معينة، كأن تقول: نذرٌ علي أن أفعل كذا وكذا، أو لله علي نذرٌ أن أفعل كذا وكذا، أو لله علي أن أفعل كذا وكذا.

هذا هو النذر، ويتعلق به أحكام.

أولًا: أن النذر إذا كان نذرًا مطلقًا بمعنىٰ: لم يُسمَّ المنذور فهذا له حكم، لو قال إنسان: لله علي نذر وسكت، ماذا قال؟ لله علي نذر وما سمىٰ الذي نذره، فما الواجب؟ قال العلماء: الواجب أن يكفِّر كفارة يمين، وكفارة اليمين بيَّنها الله ﷻ في قوله: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ﴾ [المائدة:٨٩].

والدليل علىٰ هذا قول النبي ﷺ فيما خرج الإمام مسلم رحمه الله في «الصحيح»: «كفارة النذر كفارة يمين».

إذن: هذا النذر المطلق الذي لم يُسمَّ يجب فيه كفارة اليمين.

ثانيًا: من نذر نذرًا معصيةً، من نذر شيئًا محرمًا، إذا قال -والعياذ بالله-: نذر عليَّ أن أشرب الخمر، ماذا يفعل؟ نقول: لا يجوز لك -يا عبد الله- أن تفي بنذرك، هذا منكر ولا يجوز، وأنت آثم بعقد هذا النذر، ولو وفيت به أثمت إثمًا آخر، لقول النبي ﷺ: «**لا نذر في معصية**»، ليس للإنسان أن يعقد نذرًا في شيء هو معصية.

ماذا يصنع؟ هل يتوب إلىٰ الله ﷻ ويستغفر ويكفي، أم أنه يكفِّر كفارة يمين؟ هذا موضع خلاف بين العلماء.

الجمهور يرون أنه ليس هناك كفارة، ومن مفردات مذهب الإمام أحمد: أن يكفِّر هذا الناذر كفارة يمين، لأنه جاء في الحديث في السنن: «**لا نذر في معصية، وكفارته كفارة يمين**»، وهذا الحديث فيه بحث طويل في ثبوته.

وعلىٰ كل حال، بَسْط هذه المسألة يحتاج إلىٰ وقت واسع، لكن الأحوط دون شك أن الإنسان يكفِّر مع توبته إلىٰ الله ﷻ.

هناك مسألة ثالثة وهي: نذر الأمر المباح، نذر المباح. لو قال إنسان: لله عليَّ أن أذهب إلىٰ السوق، أو نذرٌ علي أن أشرب ماءً، هذا نَذَر أمرًا مباحًا، أو نَذْرٌ علي أن لا أزور فلانًا، كونه يزوره أو لا يزوره هذا الأصل فيه أنه مباح، والحكم هاهنا أن يقال: إن هذا الناذر يُخيَّر بين أمرين: أن يَفِي بنذره، أن يفعل الشيء الذي نذر أو أن يكفِّر كفارة يمين، أنت بالخيار، افعل ما تراه أصلح، إما أن تَفِي، وإما أن تكفِّر كفارة يمين.

المسألة الرابعة: إذا نذر شيئًا مكروهًا كأن ينذر الطلاق مثلًا، الأصل في حكم الطلاق أن يكون مكروهًا، والحكم هاهنا أن نقول -أيضًا-: إن مَن نذر هذا

النذر يُخير بين الفعل والوفاء أو أن يكفِّر كفارة يمين، وإن كان المستحب في حقه أن يكفِّر ولا يأتي المكروه، هذا هو المستحب والأفضل.

المسألة الخامسة: أن ينذر هذا الإنسان طاعة لله ﷻ، وهذه الحالة لها صورتان:

الصورة الأولى: أن ينذر نذرًا منجَّزًا.

والصورة الثانية: أن ينذر نذرًا معلَّقًا.

ما الفرق؟

النذر المنجَّز: هو الذي لم يُعلَّق علىٰ شيء، كأن يقول مثلًا: نذْرٌ علي أن أصوم ثلاثة أيام، هذا نَذْر طاعة منجَّز، الواجب هاهنا أن يَفِي ولا خيار له في ذلك مع الاستطاعة، لأن النبي ﷺ قال: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**».

إذن: النبي ﷺ أمر أمرًا جازمًا فقال: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**»، وصيغة (فليطعه) من صيغ الأمر، والأمر يقتضي الوجوب.

إذن: واجب عليك أن تَفِيَ بنذرك متىٰ ما كان هذا النذر طاعة لله، ونحن قد علمنا ما هي الطاعة، الطاعة: ما أحبه الله ﷻ وأمَر به أمْر إيجاب أو استحباب.

إذن: متىٰ ما كان المنذور طاعة فواجب علىٰ العبد أن يَفِيَ.

الحال الثانية: أن يكون نذرًا معلَّقًا، يعني: أن يُعلِّق نذره علىٰ شيء يرجو حصوله أو يرجو عدم حصوله، كأن يقول: إن نجحت في الامتحان فَلِلَّهِ علي أن

أتصدق بألف ريال. هذا نذر لطاعة وهو معلَّق بالنجاح.

والحكم هاهنا أن يُقال: إنه إن لم يتحقق ما قال فليس عليه شيء، لنفرض أنه ما نجح هذا المسكين ماذا يفعل؟ ليس عليه شيء، وإن نجح فواجب عليه وجوبًا أن يتصدق.

وهاهنا ينبغي أن نقف وقفة، المسألة ليست سهلة، المسألة هاهنا وجوب أو معصية، بمعنىٰ: بعض الناس ربما أخذته الحماسة في أمر من الأمور أو موقف من المواقف فتلفظ بهذا النذر ثم بعد ذلك يندم حيث لا ينفع الندم.

مما مر بي وسمعته من بعض الناس الذين وقعوا فيه: أن امرأة أُصيب قريب لها بمرض، فحزنت وقالت: يا الله، نذرٌ عليَّ إن شفىٰ الله فلانًا أن أصوم يومًا وأفطر يومًا إلىٰ أن أموت. هذا نذر طاعة معلق. شفىٰ الله هذا المريض، ما الواجب؟ الوفاء، يجب عليها أن تصوم يومًا وتفطر يومًا، ومضت علىٰ هذا يومًا ويومين وأسبوعًا وشهرًا وشهرين ثم بدا الأمر فيه من الصعوبة عليها ما فيه، فأصبحت تسأل: هل هناك مخرج؟ هل هناك حَل؟ من الذي أوقعها في هذه المشكلة؟ هي التي أوقعت نفسها، **إذن:** عليها أن تتحمل مسؤولية ما فعلت، وعليه؛ فمتىٰ ما كانت مستطيعة للصيام واجب عليها أن تصوم إلىٰ أن تموت.

إذن: انظر الأمر وهو أن الإنسان في وقت الرخاء قد يتحمس فيقول قولًا ثم إذا جاء الجِد يندم ولات ساعة مندم.

إذن: النبي ﷺ ليس عبثًا أن نهانا عن النذر، هذه وصية من لدن الرؤوف الرحيم بهذه الأمة ﷺ، فإن النبي ﷺ نهىٰ عن النذر وقال: «**إنه لا يأتي بخير،**

وإنما يُستخرج به من البخيل»، يعني: إذا كنت تظن أنك بنذرك هذا سوف تتخذ سببًا لحصول مقصودك فاعلم أن هذا ليس بسبب ولا ينفع، نذرت أو لم تنذر هذا غير مؤثر، هذا النذر غير مؤثر، هذا لا يجلب شيئًا ولا يؤثر شيئًا، إنما الله ﷻ يُقدّره حتىٰ يُستخرج من البخيل، بعض الناس ربما لا يتصدق إلا إذا نذر، ولا يصوم التطوع إلا إذا نذر، فالله يقدِّر ذلك حتىٰ يُستخرج هذا الخير منه.

إذن: الوصية أن لا ينذر الإنسان شيئًا لا نذرًا منجَّزًا ولا نذرًا معلقًا. بعض العلماء يقول: النهي خاص بالنذر المعلق، والتحقيق: أن كلا الحالتين ليستا مستحبة وينطبق عليها الحديث: نهىٰ عن النذر؛ لأنَّ النذر المطلق فيه إيجابُ ما لا يجب، وتعريض للنفس للعصيان إذا لم تفِ، وما أكثر الواقعين في هذا الأمر.

إذن: الأحسن والأفضل والأولىٰ بالإنسان أن لا ينذر، يجتنب النذر والحمد لله وينوي الخير، إن وقع في نفسه أنه إن تحقق كذا وكذا سيشكر الله ﷻ ويتصدق أو يصوم، انوِه في قلبك، وإذا تيسر لك فالحمد لله، أما إذا نذرت فالأمر أصبح الآن إلزاميًا، ربما تعجز وربما تكسل، وبالتالي فتقع في المعصية.

إذن: الخلاصة أن النذر عبادة يحبها الله ﷻ، فواجب أن تُخلَص لله ﷻ ولا يجوز أن ينذر الإنسان أو أن يَفِي بنذر لغير الله ﷻ فهذا من الشرك.





الأصل الثاني

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

الأَصْلُ الثَّانِي

مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ.

الشَّرح

إن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ قد بيَّن لنا في هذه الرسالة العظيمة: أنه يجب على كل إنسان أن يتعلم الأصول الثلاثة، وهي: معرفة العبد ربه، ودينه، ونبيه محمدًا ﷺ.

وقد فرغ المؤلف من الكلام عن الأصل الأول، وهذا أوان الشروع في بيان الأصل الثاني وهو معرفة دين الإسلام بالأدلة.

ولا شك ولا ريب أنَّ هذا من أوجب الواجبات على كل مسلم أن يعرف دينه الذي أنزله الله وأرسل به نبيه محمدًا ﷺ، فإنَّ الخير كله في هذا الدين وفي اتباعه، فالدنيا كلها ظلام إلا ما تنوَّر بنور الرسالة المحمدية التي أرسل الله عَزَّ وَجَلَّ بها خيرته من خلقه نبينا محمدًا ﷺ.

إن هذا لجدير أن تُنفق فيه الساعات والأعمار، يحرص الإنسان علىٰ أن يتعلم ما هو هذا الدين الذي جاء به النبي ﷺ، ما هو الدين الصافي الذي أوحىٰ الله به إلىٰ نبيه عليه الصلاة والسلام دون أن يتخلله كدر، فإنَّ هذا الزمان زمان غربة، «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ**».

وإن من أعظم ما تظهر فيه غربة الإسلام: معرفته، إن أعظم ما تتجلىٰ فيه هذه الغربة: معرفته عند كثير من المنتسبين إليه، فإنه -مع الأسف الشديد- ثمة أناس يعرفون من الإسلام ما هو ضده، فالذي يتعبدون به ويتقربون به ضد ما جاء به الإسلام، الإسلام جاء بالتوحيد وهم يتعبدون بالشرك، الإسلام جاء بالاتباع وهم يتعبدون بالابتداع.

إذن: هذا مقام حري أن يُولِيَه كل مسلم حريص علىٰ نجاته كل اهتمام، أن يعرف ما هو هذا الدين الذي جاء به النبي ﷺ من ربه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَهُوَ: الاسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ.

الشَّرح

ما أحسن هذا التعريف لدين الإسلام.

قال: الإسلام: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله.

(الاسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ) يعني: الذل والخضوع والتألُّه والتعبد لله وحده لا شريك له، وهذا ما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به، وهذا ما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به وحض عليه، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج:٣٤] (فَلَهُ) قدَّم المعمول على العامل لإفادة الحصر والتخصيص، (فَلَهُ) لا لغيره (أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) الذين يخبتون إلى الله.

كذلك قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ﴾ [لقمان:٢٢] العروة الوثقى هي لا إله إلا الله، هي مفتاح هذا الدين، هي لُبُّه وظاهره وباطنه.

إذن: هذا هو الاستسلام لله جَلَّ وَعَلَا.

والناس في هذا المقام ثلاثة أضرب، الناس في مقام الاستسلام لله ثلاثة أضرب:

الضرب الأول: مَن استسلم لله وحده لا شريك له، ذَلَّ وخضع وأذعن وتأله لله وحده لا شريك له، هؤلاء هم أهل السعادة والتوفيق والنجاة، ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ

وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ [الحج:٣٤] استجاب هؤلاء فأسلموا لله ﷻ.

الضرب الثاني: مَن أشرك مع الله ﷻ في الاستسلام، بمعنىٰ: أسلم لله ولغيره أيضًا، ما وحَّد الله بالاستسلام، لم يسلم لله ﷻ وحده، وهؤلاء كل أجناس وأصناف المشركين، أشركوا مع الله في الاستسلام، هؤلاء هم الذين عَناهم الله ﷻ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة:٧٢].

أصحاب هذا الضرب في عناءٍ ونصب وشر وتعاسة، ذلكم أنَّ القلب لا يصلح إلا إذا كان مستسلمًا لواحد وهو خالقه، وهو ربُّه، وهو محبوبه ومعبوده، فمتىٰ ما توجه مع ذلك لغيره أصابته الحيرة وأصابته التعاسة وأظلم هذا القلب فلم يعرف الخير.

اسمع قول الله ﷻ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٩]، ضرب الله هذا المثل لكم يا معشر أصحاب العقول، رجلًا فيه شركاء متشاكسون، خادم أو عبد لا لرجل واحد وسيد وحيد، إنما لجمع من السادة، والعجيب في شأنهم أنهم متشاكسون، يعني: متخاصمون، فهذا يرضيه ما يغضب هذا، هذا يقول له: أقبل، والآخر يقول له: أدبر، هذا يقول: افعل، وهذا يقول: لا تفعل، بالله! ما حال هذا العبد أو الخادم، أيُّ تعاسة وأيُّ حالٍ فاسدة هو عليها؟ هكذا الشأن في المشركين الذين ما أسلموا لله وحده، فقلوبهم موزَّعة بين شركاء متشاكسين

مختلفين، وبالتالي فَقَدوا الراحة، فقدوا الطمأنينة، فقدوا السكينة، فقدوا السعادة.

أمَّا الرجل الآخر فرجل كان سَلَمًا لرجل، ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر:٢٩] في قراءة سبعية: (سالمًا لرجل) يعني: عبدٌ أو خادم لسيد واحد يعرفه ويعرف ما هو المطلوب منه، وبالتالي فإنه يخدمه ويطيعه، فيتحقق له الطمأنينة والسكينة، وهذه حال أهل التوحيد، لا يستسلمون إلا لله ولا يعبدون إلا الله، أما المشركون فإن قلوبهم -واللهِ- في ظلام، وحالهم -واللهِ- في شر حال، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ٣١﴾ [الحج:٣١].

الضرب الثالث: هم الذين استكبروا عن الاستسلام لله، هؤلاء صنفان:

١. صنف ممتنع.

٢. صنف منازع.

أما الممتنع فإنه من لا يدين لله ﷻ بدين، يأبىٰ ويستكبر عن أن يطيع الله ﷻ بكل حال، وهذه حال اللادينيين والملاحدة وأضرابهم.

والصنف الثاني من الذين لم يسلموا لله: هم المنازعون لله ﷻ، هؤلاء أَبَوُا الانقياد لله والاستسلام له، أَبَوْا أن يستجيبوا لله، وذلك لأنهم منازعون له، منازعون له في أمره الكوني ومنازعون له في أمره الشرعي، منازعون في الأمر الكوني يعترضون علىٰ قَدَر الله ويزعمون أنه منافٍ للعدل، أو ينازعون الله في أمره

الشرعي فيزعمون أنه منافٍ للحكمة، وهؤلاء وأولئك ما أسلموا لله، ولا انقادوا له، ولا أذعنوا له، فلذلك فإنهم فقدوا الفلاح والنجاح والسعادة.

هؤلاء الأضرب الثلاثة صنف منهم هم أهل التوفيق والسعادة وهو الصنف الأول الذين أسلموا لله وحده، وأما الصنف الثاني والثالث فإنهم ضالون مضلون منحرفون عن الصراط السوي، لهم الشقاء في الدنيا والآخرة، عافاني الله وإياكم من حالهم! قال: الاستسلام لله بالتوحيد.

(**وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ**) هذا هو الأمر الثاني الذي دل عليه تعريف الشيخ ﵀ للإسلام، لابد من انقياد لله ﷻ بالطاعة، من وَّحد الله واعتقد ربوبيته وألوهيته فإنه ينبني على هذا الاعتقاد أن تنبعث جوارحه طاعة لله ﷻ، **وهذا يتمثل في أمرين:**

الأول: التزام طاعة الله ﷻ، المقصود بالالتزام: اعتقاد التكليف، بمعنى: أن يعتقد أنه ملزَم ومخاطَب ومأمور بما أمر الله ﷻ، وأنه لا يسعه أن يخرج عن شريعة محمد ﷺ، مُلزَمٌ ومخاطَب ويذعن بالالتزام لهذه الشريعة، وأنه مُنْضَوٍ تحت لوائها، وأنه لا يخرج عنها قِيْد شبر، هذا هو الأمر الأول.

الأمر الثاني: لابد من أن يطيع الله ﷻ في الجملة، هذا ما لأجله أمر الله ﷻ رُسُله عليهم الصلاة والسلام، بل هذه خلاصة دعوات الرسل، هذه الغاية من بعثتهم، قال ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾ [النساء:٦٤]، فمن وحَّد الله واعتقد ربوبيته وألوهيته ثم قعد عن طاعته فلا تنبعث جوارحه استجابة

لله ﷻ ألبتة، فلا يصلي ولا يصوم ولا يزكي ولا يحج ولا يفعل شيئًا مما أوجبه النبي ﷺ، أيُّ إسلام لهذا؟ هذا هو التولي والإعراض المكفِّر، تأمل قول الله ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ [النور:٤٧] أتوا بالقول، يقولون بألسنتهم هذا الكلام، ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ﴾ [النور:٤٧] قال الله: ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [النور:٤٧]، هذا هو التولي المكفِّر، أن يتولىٰ الإنسان عن طاعة الله ﷻ بالكلية، فلا يطيع الله ألبتة، فهذا لا شك أنه منافٍ لدين الإسلام، وهذا موضع سبق الكلام عنه ، وأن طاعة الله ﷻ تحقق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، وأن الرجل الذي يدَّعي الإيمان بالله وحب الله ورسوله ﷺ ثم لا يستجيب لله ﷻ في أمر من الأوامر مطلقًا هذا كاذب في أن في قلبه إيمانًا، ذلك أن النبي ﷺ يقول: «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله».

لكن تنبه -يا رعاك الله- إلىٰ أننا نتكلم عن طاعة الله في الجملة وعن ما يقابل ذلك وهو ترك الطاعة بالكلية، أما الذي يطيع ويعصي، يفعل بعض الأوامر ويترك بعضًا، هذا مستجيب، هذا حصل منه الانقياد، إنما كلامنا فيمن يتخلف عن رَكْب الطاعة بالكلية فهذا هو الذي حصل منه التولي والإعراض.

قال: (**الاسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ**)

أنبه هنا إلىٰ أنه في بعض نُسخ ثلاثة الأصول بدل كلمة (وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ) توجد كلمة: (والخلوص من الشرك)، وهذه الكلمة كلمة مقحمة علىٰ

ثلاثة الأصول، وإنما النسخة المعتمدة التي تصح نسبتها إلىٰ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ، وليس الخلوص من الشرك. ولذا لو تأملت الدرر السَّنيَّة التي جمعت كلام وفتاوي إمام الدعوة والأئمة من بعده لا تجد هذه الكلمة في هذا الكتاب، إنما تجد التنصيص علىٰ البراءة من الشرك وأهله، ذلكم أن الخلوص يعني الترك، وهذا قَدْر لا يكفي، بل لابد من براءة.

هذه الجملة سبق الكلام عنها فيما تقدم من هذه الرسالة، حيث تبين لنا أن من وحَّد الله وأطاع رسوله ﷺ لا يجوز له أن يوادَّ ويوالي من حادَّ الله ورسوله ﷺ، وتبين لنا الدليل علىٰ ذلك: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤].

إذن: من مقتضيات التوحيد والاستسلام لله: البراءة من الشرك وأهله، ومعنىٰ هذا: اعتقاد بطلان عبادة غير الله وبغضها وتكفير أهلها ومعاداتهم، لابد من اعتقاد بطلان عبادة غير الله، ولاحظ أننا نقول: (اعتقاد) يعني: لابد من جزم وقطع، وعليه؛ فمن شك وقال: واللهِ لا أدري، ربما تكون عبادة الشمس أو القمر أو المسيح أو اللات أو العزىٰ أو بوذا أو غير ذلك من المعبودات ربما تكون صحيحة وربما تكون باطلة، أنا لا أعبد لكنني لا أجزم بالبطلان، نقول: هذا ما أتىٰ بالإسلام، لابد من اعتقاد بطلان عبادة غير الله، لابد من ذلك، قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢]

هذه قضية قطعية.

إذن: لابد من اعتقاد بطلان عبادة غير الله، ولابد -أيضًا- من بغضها، أفرأيت لو أن إنسانًا قال: أنا أحب أن يُسْجَدَ للشمس أو القمر، يعجبني الرجل الذي يخضع للصليب، أحب هذا المنظر وهو إنسان يسجد عند قبر، هذا شيء يعجبني وأحبه، نقول: هذا ما عرف الإسلام ولا أتىٰ بالإسلام، بل لابد من بغض عبادة غير الله ﷻ.

الأمر الثالث: لابد من تكفير كل من لم يكن يَدِنْ بدين الإسلام، كل من كفر بهذا الدين فقد حكم الله ﷻ بكفره، وبالتالي لابد من تصديق الله ﷻ في حكمه، ولابد من تصديق الله ﷻ في خبره، قال ﷻ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾ [البينة:١]، حكم الله ﷻ بكفر كل من لم يَدِنْ بدين الإسلام، ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الفتح:١٣] يعني: محمدًا ﷺ ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الفتح:١٣] سماهم الله ﷻ كافرين.

ولابد -أيضًا- من معاداتهم، كما بيَّن الله ﷻ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ﴾ [الممتحنة:٤] اسمع هذا الخطاب لكم يا معشر المسلمين، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ﴾ [الممتحنة:٤] لاحظ كيف قدَّم البراءة من الكافرين قبل البراءة من معبوداتهم، ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة:٤] ما حقيقة ذلك؟ قال: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ [الممتحنة:٤] إلىٰ ما لا نهاية، فقط في حالة واحدة، قال: ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤].

لكن هذا الموضع فيه تفصيل تكرر معنا غير مرة، هذه عقيدة قلبية لازمة مفروضة، أن تبغض بقلبك كلَّ من لم يكن موحدًا، من لم يشهد بأن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ يجب بغضه، لأن الله ﷻ اتخذه عدوًا، وأمر أن لا نتخذ عدوه صديقًا ولا وليًا، ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة:١].

سبحان الله! إنسان يكذب نبيك وحبيبك محمدًا ﷺ ويقول: هو ليس رسولًا من عند الله، أو ليست رسالته عامة للثقلين ثم تحبه؟ هذا خلل كبير.

إذن: لابد من هذه العقيدة القلبية.

أما المعاملة الظاهرة فلها شأن آخر، فالكفار منهم المحارب فيُقابَل بمثل ذلك، ومنهم المسالِم فهذا تحكم علاقتنا به آية في كتاب الله ألا وهي قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة:٨].

إذن: معاملتهم بالعدل والقسط والبر في حال كانوا مسالمين ما صدوا عن سبيل الله، ولا عادوا الله ورسوله وأولياءه فإن هؤلاء يعامَلون بالبر والقسط، وتكون بيننا وبينهم معاملات تجارية ونحوها، فلا حرج فيه.

إذن: هذا هو تعريف الإسلام: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله.

أنبه هاهنا إلىٰ أن كلمة (الإسلام) جاءت لها إطلاقات في النصوص، بمعنىٰ:

جاء إطلاق الإسلام بمعنىٰ: الدين العام، وهو: التوحيد الذي بعث الله ﷻ به جميع أنبيائه ورسله، هذا يسمىٰ إسلامًا، قال الله ﷻ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة:١٣٣].

إذن: هذا الإسلام هو الدين العام لجميع الأنبياء والمرسلين.

تأمل مثلًا كلمة بلقيس ملكة سبأ: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل:٤٤].

إذن: هذا هو الدين العام، هذا الإطلاق الأول.

الإطلاق الثاني: الإطلاق الخاص، بمعنىٰ: يُطلق الإسلام علىٰ دين محمد ﷺ الذي هو خاتم الأنبياء والمرسلين، وهو الذي وجب علىٰ جميع الثقلين ، ليس علىٰ البشر فقط، بل علىٰ البشر والجن أيضًا، علىٰ جميع الثقلين منذ اللحظة التي بُعِث فيها ﷺ وإلىٰ انتهاء هذه الدنيا، هذا هو الإسلام بالمعنىٰ الخاص، وهذا الذي بيَّنه الله ﷻ في قوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ [آل عمران:٢٠]، **إذن**: الهداية مرتبطة بالالتزام بدين الإسلام الخاص الذي بعث الله ﷻ به نبيه محمدًا ﷺ، وهذا هو المراد في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران:٨٥]، وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة وهو أن كل أحد من الإنس

والجن بعد بعثة النبي محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي ﷺ أن كل أولئك مطالَبون وملزَمون بالاستجابة لهذا الإسلام والدخول فيه، وبالتالي فمن أعرض عن ذلك فما أسلم لله وما اتبع رسول الله ﷺ فإنه كافر في الدنيا خاسر في الآخرة، هذا أمر قطعي، من بلغته رسالة الإسلام فأبىٰ وأعرض فإنه عند الله ﷻ خاسر، ولا أمَلَ له في النجاة، كافر يئس من رحمة الله، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ [العنكبوت:٢٣]، ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عمران:٨٥]، ﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا ١٣﴾ [الفتح:١٣].

لو قال: أنا أعبد الله وحده لا شريك له لكنني لا أتبع النبي ﷺ فنقول: والله لا ينفعه، وهو عند الله من الكافرين، ﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا ١٣﴾ [الفتح:١٣].

واسمع كلام نبيك ﷺ فإنه القائل كما في «صحيح مسلم»: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة» يعني: من أمة الدعوة الذين بُعِث فيهم النبي ﷺ، وهم جميع الناس منذ بعثته وإلىٰ آخر الدنيا، كلهم داخلون في قوله: «من هذه الأمة».

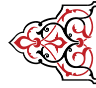
«والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بالذي أُرسلت به إلا كان من أصحاب النار»، إذا كان هذا في حق يهودي أو نصراني ، وهذا وهذا علىٰ إرث من إرث السماء، يعني: علىٰ دين سماوي في أصله قبل نسخه وتحريفه ومع ذلك فهو من أصحاب النار الخالدين المخلدين فيها، فكيف بمن دونهم من الوثنيين ومن الملاحدة ومن غيرهم؟

إذن: هذا أمر قطعي يجب أن يُعتقد ويجب أن يُعلم، وهو أن دين الله ﷻ المقبول هو الإسلام، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران:١٩].

هناك إطلاق ثالث أخص، عندنا إطلاق عام وإطلاق خاص وإطلاق أخص: وهو إطلاق الإسلام مقابل الإيمان والإحسان، وهذا سنتكلم عنه -إن شاء الله- في وقته، وفي الجملة: كلمتا (الإسلام والإيمان) من الكلمات التي إذا اجتمعت افترقت، وإذا افترقت اجتمعت، إذا ذُكِر الإسلام وحده فإنه يتضمن معنىٰ الإيمان، وإذا ذُكِر الإيمان وحده.. إذا قيل: الإيمان بالله، إذا قيل: آمنوا بالله فإن المراد بذلك: والإسلام أيضًا، أما إذا ذُكِرا معًا في سياق واحد فالإسلام: الدين الظاهر، والإيمان: الدين الباطن، الإسلام الدين الظاهر: صلاة، زكاة، حج، عمرة، هذا إسلام. والإيمان الدين الباطن: محبة الله، خوفه، التوكل عليه، الإنابة إليه.. إلىٰ آخر ما هنالك.

إذن: هذا هو تعريف الإسلام: وهو أنه الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، ولا يغني واحد من هذه عن الآخر، لابد من اجتماع ذلك كله.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: 

وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإسْلامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ.

وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ.

فَأَرْكَانُ الإِسْلامِ خَمْسَةٌ: شَهَادَةُ أَن لا اله إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ.



الشَّرح

قال رَحِمَهُ اللَّهُ، لاحظ أنه قال: دين الإسلام، ثم قال: وله مراتب ثلاث، أولها: الإسلام. لاحظ أن الإسلام لما ذُكِر ثانيًا أُريد به الإطلاق الأخص، الإطلاق الثالث، وفي الأول أراد الإطلاق الخاص الذي هو دين النبي محمد ﷺ خاصة، الذي نسخ الله جَلَّ وَعَلَا به كل ما سبقه من الأديان، وكل دعوات الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، بل لو كان أحد من الأنبياء حيًا عند بعثته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ واللهِ لا يسعه إلا أن يكون تابعًا لرسول الله ﷺ، حتىٰ لو كان موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن موسىٰ؟ أليس كليم الرحمن؟ أليس أحد أولي العزم من الرسل؟ ومع ذلك النبي ﷺ يقول: «واللهِ لو كان موسىٰ حيًا ما وسعه إلا اتباعي».

إذن: أخذ الله العهد علىٰ جميع الأنبياء والمرسلين أنه إذا بُعِث النبي محمد ﷺ فإنهم يجب عليهم أن يلتزموا دينه وأن يطيعوه وأن يتبعوه.

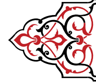
قال رَحِمَهُ اللَّهُ: الدين له مراتب ثلاث: الإسلام، الإيمان، الإحسان. وسيشرح كل واحدة من هذه المراتب علىٰ حِدَة فيما سيأتي إن شاء الله.

قال: كل واحدة من هذه المراتب لها أركان، لها أعمدة تقوم عليها، وهذه أمهات المرتبة، أهم ما في المرتبة هي هذه الأمور التي تسمىٰ الأركان، وثمة أشياء أقل منها أهمية.

أما الإسلام فإن أركانه خمسة كما دل علىٰ هذا حديث ابن عمر رضي الله عنهما في «الصحيحين» وغيرهما: «بني الإسلام علىٰ خمس»، هكذا يقول النبي ﷺ: «بني الإسلام علىٰ خمس»، وعند محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة»: «بني الإسلام علىٰ خمس دعائم: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلًا».



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:



فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٨﴾ [آل عمران:١٨].

الشَّرح

بدأ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان الركن الأول من أركان الإسلام وهو الشهادتان: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ.

الشهادة لله بالتوحيد ولنبيه ﷺ بالرسالة، هذه الشهادة أحسن الكلام وأعظم المعاني، وهي الدين كله، أصله وفرعه، وهي التي لأجلها خلق الله الخلق، وهي التي لأجلها أنزل الله الكتب، وهي التي لأجلها أرسل الله الرسل، وهي التي لأجلها خلق الله الجنة والنار، وهي التي لأجلها انقسمت الناس إلىٰ أهل سعادة وأهل شقاوة، وهي مفتاح الإسلام، وهي مفتاح دار السلام.

إذن: الخير كله مجموع في هذه الشهادة: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ.

ولاحظ أن الشهادتين متلازمتان، بمعنىٰ: لا تنفك إحداهما عن الآخر، ولذا تجد في النصوص أحيانًا ذِكْر إحداهما دون الأخرىٰ، وما ذلك إلا لأن إحداهما تدل علىٰ الأخرىٰ، فإذا قيل في النصوص: لا إله إلا الله فقط فإن المراد مع شهادة أن محمدًا رسول الله، وإذا ذُكِر شهادة أن محمدًا رسول الله فإن هذا يلازمه شهادة أن لا إله إلا الله، وإلا فمن أتىٰ بواحدة منهما وأبىٰ الإتيان بالأخرىٰ ما نفعته الأولىٰ.

لو قال: (أشهد أن لا إله إلا الله) عشرة آلاف مرة، لكن قال: لا أستطيع ولا يمكن أن أقول: أشهد أن محمدًا رسول الله، تنفعه لا إله إلا الله؟ واللهِ لا تنفعه لو كررها بعدد الأنفاس.

إذن -هذه قاعدة-: الشهادتان متلازمتان، لا تغني إحداهما عن الأخرىٰ

شهادة، أشهد، الرجل إذا دخل في دين الإسلام يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، إذا قام المؤذن يؤذن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، إذا صلىٰ المصلي فإنه يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، ما معنىٰ كلمة (شهادة)؟ ما معنىٰ (أشهد)؟ قال العلماء: الشهادة: نُطق عن علم ويقين.

إذن: إذا قال القائل: أشهد أن لا إله إلا الله يعني: أنطق بما أعلم وأتيقن أنه لا إله إلا الله.

إذن: لابد من ثلاثة أشياء، هذه عماد الشهادة، وبِفَقْد واحد من هذه الثلاثة أو أكثر لا تصبح الشهادة شهادة، فلا تنفع صاحبها، أولًا: لابد من نطق، لابد أن يتكلم الإنسان، وإلا كيف يشهد الشاهد، أرأيت شاهدًا يشهد عند القاضي وهو صامت؟ لا، **إذن:** لابد من النطق، لابد من قول لا إله إلا الله عند الإمكان، وأما من كان عاجزًا عن النطق فإنه يسقط عنه هذا الأمر.

وأما من كان قادرًا علىٰ التكلم وأبىٰ التلفظ بالشهادتين، أبىٰ أن يتكلم بهذه الكلمة فإنه كافر باطنًا وظاهرًا، كما هو المعلوم بالضرورة من دين الإسلام، لا ينفعه اعتقاد ولا ينفعه عمل ما لم يأتِ بهذه الكلمة نطقًا.

ثانيًا: لابد أن يكون تكلُّمه بها عن علم، وهكذا تكون الشهادة شهادة، أرأيت لو أن إنسانًا شهد عند القاضي في شيء يجهله، هل تُعتبر شهادته شهادة صحيحة أو لابد أن يشهد بشيء يعلمه كالشمس؟ **إذن:** لابد أن تشهد بشيء تعلمه، وعليه؛ فلابد من العلم بلا إله إلا الله، ما معنىٰ هذه الكلمة؟ وهذا يدلنا علىٰ أن الإنسان لو ردد هذه الكلمة كثيرًا وهو جاهل بما تدل عليه، لا يعرف لها معنىٰ، فإنها لا تنفعه ولا تُعتبر في حقه شهادة.

إذن: لابد من علم ينافي الجهل.

الأمر الثالث: لابد من يقين ينافي الريب والشك. لو أن إنسانًا شهد بشهادة يشك فيها، أتُعتبر شهادة صحيحة أو لابد أن يكون متحققًا متيقنًا من الشيء الذي يشهد به؟ كذلك الأمر في شهادة التوحيد، لابد من يقين، حينما يقول: أشهد، **إذن:** أنا أستيقن في قلبي بأنه لا إله إلا الله وبأن محمدًا ﷺ رسول الله.

إذن: هذا هو معنىٰ الشهادة، وهكذا تكون الشهادة شهادة، أشهد: أنطق بما أعلم وأتيقن.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَمَعْنَاهَا: لا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إلا اللهُ.

(لا إله) نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ.

(إِلا اللهُ) مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ.

لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ.

الشَّرح

هذا من المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ تفسير لهذه الكلمة، وإن من الأمر المؤسف أن من المسلمين الذين ينطقون بهذه الكلمة ويذكرون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها وهي من أعظم الذكر أنهم لا يعرفون معناها، ربما لو سألت إنسانًا: ما معنىٰ لا إله إلا الله؟ يقول: لا رب إلا الله، لا خالق إلا الله. وهذا حقٌّ من حيث المعنىٰ الذي هو أنه لا رب ولا خالق إلا الله لكنه خطأ في تفسير لا إله إلا الله، ليس هذا تفسير لا إله إلا الله، ولو كان هذا معنىٰ لا إله إلا الله ما كان بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومشركي قريش خلاف.

أفرأيت لو أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما قام يدعوهم إلىٰ لا إله إلا الله، حينما كان يصيح فيهم: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» لو قال لهم: ومعناها الذي دلت عليه: لا خالق إلا الله، لقالوا له: حبًا وكرامة، نحن نعتقد هذا قبل أن تولد، قبل أن تأتي بها نحن نعتقد، والدليل في كتاب الله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾ [الزخرف:٨٧] ماذا يقولون؟ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥].

إذن: كونه لا خالق إلا الله حق، لكنه ليس معنىٰ لا إله إلا الله، والقوم عندهم علم، وعندهم معرفة بمعناها، ما كانوا جهالًا، كانوا أهل عقل وعلم باللسان العربي، ولذا كفروا، لما كانوا يعرفون معناها كفروا بها، لما قال لهم النبي ﷺ: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص:٥].

إذن: أدركوا أن معناها يدور علىٰ معنىٰ العبادة وإفراد الله ﷻ بها، وأن يكون الله وحده المعبود، وأن تُترك عبادة ما سواه تمامًا، لا يُعبد لات ولا تُعبد عُزَّىٰ ولا مناة ولا نائلة ولا إساف ولا شيء من هذا إطلاقًا، لا حجر ولا شجر ولا شمس ولا قمر ولا جن ولا شيء، إنما يُعبد الله وحده، وهذا شيء قالوا: عجيب، مستحيل! لا يمكن أن نقولها، لأننا إن قلنا التزمنا به، فهم يأنفون أن يقولوا شيئًا فيخالفونه، ولذلك قالوا: لا يمكن، كفروا بلا إله إلا الله، اشمأزت قلوبهم من أن يُعبد الله وحده لا شريك له.

إذن: المعنىٰ الحق لـ(لا إله إلا الله) هو: لا معبود حق إلا الله، وإن شئت فقل: لا معبود بحق إلا الله، بمعنىٰ: اعتقاد بطلان عبادة غير الله وإفراد الله بالعبادة. هذا هو معنىٰ لا إله إلا الله.

وانتبه يا رعاك الله! فما أكثر الأخطاء في تفسير هذه الكلمة، مِن الناس.. وهذا ربما تقرؤه في بعض التفاسير، ربما تقرؤه في بعض الكتب من يفسر لا إله إلا الله بقوله: لا قادر علىٰ الاختراع إلا الله. حق، لا قادر علىٰ الاختراع، والاختراع: هو الإيجاد من العدم، ولا أحد يوجِدُ من العدم إلا الله، ولكن هذا

ليس معنىٰ لا إله إلا الله، وقلنا قبل قليل: هذا كان يعتقده المشركون وما نفعهم، كفَّرهم النبي ﷺ وقاتلهم، وهم يعتقدون هذا الاعتقاد لأنهم ما أتوا بمعناها الحق ولا التزموا به وهو أنه لا معبود حق إلا الله.

مِن الناس مَن يقول: إن معنىٰ (لا إله): لا مستغنيًا عما سواه، ولا مفتقرًا إليه كل ما عداه إلا الله، وهذا -أيضًا- معنىٰ حق ولكنه تفسير باطل، هذا الكلام من حيث هو حق، فلا أحد مستغنيًا عما سواه ومفتقر إليه كل ما عداه إلا الله، ولكن هذا ليس تفسير لا إله إلا الله.

إذن: أنت بحاجة إلىٰ أن تفهم فهمًا جيدًا شيئين في كلمة التوحيد، وينبني عليهما الفهم الصحيح لها، والخطأ في فهمها راجع إلىٰ الخلل في فهم هذين.

أولًا: ما معنىٰ كلمة (إله)؟ الذي تعرفه العرب في لغتها لكلمة (إله) هو معبود، إله من أَلَه يأله بمعنىٰ: عبد يعبد، لا تعرف العرب في لغتها معنىٰ (أَلَه) إلا هذا، (أَلَه) عبد.

إذن: (إله) فعال بمعنىٰ مفعول، إله بمعنىٰ معبود، كتاب بمعنىٰ مكتوب، بساط بمعنىٰ مبسوط، فراش بمعنىٰ مفروش، **إذن:** إله بمعنىٰ مألوه يعني: معبود.

وهذا الذي -كما ذكرت- تعرفه العرب، يقول رؤبة أحد شعراء الجاهلية:

لله دَرُّ الغانيات المُدَّه ... سبَّحْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ مِن تَأَلُّهِ

يعني: تعبُّدي.

إذن: (إله) بمعنىٰ: معبود، **إذن:** من الخطأ أن نقول: إن (إله) بمعنىٰ خالق،

هذا ليس بصحيح، هذا يرجع إلىٰ توحيد الربوبية، ومعنىٰ (لا إله إلا الله) بالمطابقة يرجع إلىٰ توحيد الألوهية، نَعَم، إذا نظرنا إلىٰ المعنىٰ اللازم يلزم منها توحيد الربوبية، لكن بالمعنىٰ المطابق فإنها تدل علىٰ توحيد العبادة، فلا معبود حق إلا الله.

إذن: هذا الأمر الأول أن نفهم ما معنىٰ كلمة (إله).

الأمر الثاني: ما هو خبر (لا) المقدَّر.

تأمل معي! (لا إله إلا الله) كم جزء هذه الكلمة؟ أربعة.

(لا) هذه أول شيء، هذه التي تسمىٰ (لا) النافية للجنس العاملة عمل (إنَّ)، في اللغة هناك (لا) النافية للوَحْدة العاملة عمل (ليس) تنفي الوَحدة، وهذا ليس هو المقصود، بمعنىٰ: لو قلت: لا رجلٌ في الدار بل رجلان، الكلام صحيح؟ صحيح، لأن (لا) هاهنا هي النافية للوحدة، وهذا لا يتنافىٰ مع إثبات اثنين أو ثلاثة أو أكثر، لكن ليس هذا هو مقصودنا، هذه تعمل عمل (ليس) ماذا تصنع؟ ترفع الاسم وتنصب الخبر.

إنما (لا) التي معنا هنا (لا) التي تعمل عمل (إنَّ) فلا يصح أن تقول: لا رجلَ في الدار بل رجلان، هذا غلط، لأن هذه هي النافية للجنس، وتسمىٰ (لا) التبرئة، تُبرّئ اسمها من معنىٰ خبرها، هذه تنص نصًا علىٰ النفي في كل فرد فرد من اسمها، فجنس الرجال غير موجود، حينما تقول: لا رجلَ في الدار يعني: لا واحد ولا أكثر، ما في شيء من الرجال إطلاقًا في الدار، هذه (لا) النافية للجنس، (لا) التبرئة.

هذه -كما ذكرنا- تحتاج إلىٰ اسم، (لا إله) (إله) هذه الكلمة اسم (لا) مبني في محل نصب.

نأتي الآن إلىٰ الخبر، أين الخبر؟ الخبر يُحذف كثيرًا أو غالبًا مع (لا)، يقول ابن هشام رحمه الله في «مغني اللبيب»: وقد كثر حذف خبر (لا) حتىٰ لا يكاد يُذكر، بل بعض العرب تلتزم حذفه كبني تميم والطائيين، هؤلاء يلتزمون حذفه باستمرار، أما في لغة أهل الحجاز فيكثر ذلك، ولذا يقول ابن مالك:

وشاع في ذا الباب إسقاط الخبر إذا المراد مع سقوطه ظهر

إذا كان المعنىٰ معلوم تسقط، ولذلك تجد في كتاب الله: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ [سبأ:٥١] يعني: لنا. ﴿لَا ضَيْرَ﴾ [الشعراء:٥٠] يعني: علينا. تقول للمريض: لا بأس طهور إن شاء الله، لا بأس يعني لا بأس عليك. تجد أنك حذفت الخبر للعلم به.

كذلك الشأن في (لا إله إلا الله) الخبر محذوف، لكن ما هو تقديره؟ إذا كان محذوفًا يحتاج إلىٰ تقدير، ما هو تقديره؟ قال بعض الناس: إن تقديره: موجود أو في الوجود، وعليه فيكون معنىٰ (لا إله إلا الله) لا معبود موجود إلا الله، هل هذا الكلام صحيح؟ هذا الكلام غير صحيح؛ **لأنه يلزمه أحد لازمين:**

الأول: أن يكون كل ما عُبِد هو الله. لما أقول: لا معبود موجود أو في الوجود إلا الله، ماذا تفهم من هذا؟ ألا تفهم أن كل شيء عُبِد هو الله؟ والسؤال: هل الذي عُبِد هو الله أو عُبِدت معبودات أخرىٰ؟

إذن: هذا القول ذريعة إلىٰ عقيدة أهل الحلول والاتحاد الذين يزعمون أن كل شيء هو الله، كل شيء عندهم هو الله، أو أن الله -تعالىٰ عن ذلك علوًا كبيرًا- حالٌّ فيه، وهذا من أعظم الكفر والضلال.

اللازم الثاني: إنكار الواقع، حينما يقول قائل: لم يُعبد شيء إلا الله، لا معبود في الوجود إلا الله، هل هو صادق؟ لا واللهِ! أشياء كثيرة عُبِدت، أما عُبِدت الشمس والقمر والشجر والحجر والإنس والجن والملائكة وعيسىٰ عليه السلام وبوذا وأشياء كثيرة: لات وعزىٰ، وحدِّث في سلسلة طويلة من المعبودات التي عُبِدت، فكيف يقول قائل: ما عُبِد شيء في الوجود إلا الله؟ هذا كلام فيه منافاة للواقع.

إذن: هذا التفسير أو هذا التقدير غلط غير صحيح.

قال بعضهم: نقدِّر خبر (لا) بـ(لنا)، فنقول: لا معبود لنا إلا الله، هذا أحسن من الأول، لكنه -أيضًا- غير صواب، لم؟ نَعَم، لا إله لنا ، ولكن يجب أن نعتقد أنه لا إله لنا ولا لغيرنا إلا الله، ألا يُخشىٰ من هذا التقدير أن يُفهم أو يُظن أن الله جل جلاله معبود لنا ويجوز أن يكون لغيرنا معبود سواه؟ **إذن:** هذا التقدير غير صحيح.

إذن: ما هو الحق؟ الحق الذي لا ريب فيه ولا شك أن تقدير الخبر هو: حق، أو بحق، إن شئت أن تقدِّره كلمة مفردة أو شبه جملة لا فرق، لا معبود حقٌّ إلا الله، لا معبود بحق إلا الله، هذا يدل علىٰ أن هناك أشياء عُبِدت لكنها عُبِدت بباطل، وهذا نص كتاب الله، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن

دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الحج:٦٢] هذه في الحج. وفي لقمان: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [لقمان:٣٠].

إذن: الله وحده المعبود الحق، وكل ما عداه فمعبود بباطل لا بحق.

إذن: (لا إله إلا الله) باختصار تشتمل علىٰ جزءين، علىٰ ركنين، علىٰ أمرين، علىٰ شيئين:

١-نفي.

٢-إثبات.

نفيِ العبودية عما سوىٰ الله واعتقاد بطلانها، والكفر بكل ما يُعبد من دون الله، ثم اعتقاد العبادة في الله وحده أنها حق له، لا أحد يستحق أن يُعبد إلا الله، ولا يجوز أن يُعبد إلا الله، وواجب أن يُعبد الله، نفي وإثبات، الجزء الأول في كلمة (لا إله) والجزء الثاني هو الإثبات (إلا الله)، وهذا هو التوحيد، لا يكون التوحيد توحيدًا إلا باجتماع الأمرين: تجريد وتفريد ومجموعهما التوحيد، لابد من تجريد ولابد من تفريد، والاثنان هما التوحيد.

تجريد بمعنىٰ: نفي فقط ليس بتوحيد، لو أن إنسانًا ردد سبعة عشر ألف ألف مرة: لا إله، لا إله، لا إله، لا إله. هل وحَّد الله؟ النفي عدم، والعدم ليس بشيء فضلًا عن أن يكون توحيدًا.

والإثبات وحده لا يمنع الشَّرِكة، لا يمنع المشاركة، لو قال إنسان: (الله إله، الله إله، الله إله) من اليوم إلىٰ غد، ما أتىٰ بالتوحيد، لأن هذا القَدْر لا يمنع أن يكون غيره -أيضًا- إلهًا، إذا قلت: الله إله ربما يقول قائل: وعيسىٰ -أيضًا- إله،

والشمس -أيضًا- إله، وبوذا -أيضًا- إله، لكن متىٰ يكون التوحيد؟ لا يكون التوحيد توحيدًا إلا باجتماع النفي والإثبات، وهذا أبلغ أدوات أو صيغ الحصر، أبلغ صيغ الحصر أن تجمع بين نفي وإثبات.

إذن: التوحيد لا يكون توحيدًا إلا باجتماع النفي والإثبات، إلا باجتماع التجريد والتفريد، إلا باجتماع التخلية والتحلية، إلا باجتماع البغض والمحبة، إلا باجتماع البراء والولاء، لا يكون التوحيد توحيدًا إلا بذلك.

ولذا تأمل في قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢]، تأمل في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الزخرف:٢٦] هذا هو النفي، ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف:٢٧] هذا هو الإثبات.

إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول -أيضًا- لقومه: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ [الشعراء:٧٥-٧٧] هذا هو النفي، ثم قال: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء:٧٧] هذا هو الإثبات.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النحل:٣٦] هذا هو الإثبات، ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] هذا هو النفي.

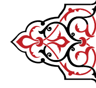
قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ [البقرة:٢٥٦] هذا هو النفي، ﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٥٦] هذا هو الإثبات، هنا أتىٰ بلا إله إلا الله قال: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة:٢٥٦] قال أهل العلم: هي لا إله إلا الله.

قال العلماء: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ [الزمر:١٧] هذا هو النفي، ثم قال: ﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾ [الزمر:١٧] هؤلاء أهل السعادة جمعوا بين النفي والإثبات.

قال ﷻ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي﴾ [يونس:١٠٤] أمر الله نبيه ﷺ أن يصدع بحقيقة دعوته: ﴿إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٠٤] هذا هو النفي، ثم قال: ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ﴾ [يونس:١٠٤] هذا هو الإثبات.

إذن: لا توحيد ولا إيمان ولا إسلام إلا لمن جمع بين الأمرين: اعتقد بطلان عبادة غير الله وكفر بها وعادىٰ أهلها ثم وحَّد الله فعبد الله وحده لا شريك له.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: 

فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٨].

وَمَعْنَاهَا: لا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إلا اللهُ.

(لا إله) نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ.

(إلا اللهُ) مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ.

لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ.

وَتَفْسِيرُهَا الَّذِي يُوَضِّحُهَا، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧]، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

[آل عمران:٦٤].

الشَّرح

سبق الكلام عن شهادة التوحيد التي هي كلمة الإخلاص وسبب الخلاص، وهي مفتاح الإسلام ومفتاح دار السلام، وهي الدين كله، أصله وفرعه، وعرفنا أن هذه الكلمة تشتمل علىٰ أمرين: النفي والإثبات، البراءة والولاء، البغض والمحبة، التخلية والتحلية، التجريد والتفريد، اعتقاد أن كل ما سوىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

فعبادته باطلة، يُكفر ويُتبرأ من كل عبادة سوىٰ الله ﷻ ومن كل ما يُعبد من دون الله، ثم إثبات العبادة لله وحده، فالله معبود لا يُشارَك في عبادته كما أنه لا يُشارَك في ربوبيته ﷻ.

وعرفنا الأدلة علىٰ ذلك من كتاب الله، وأن هذا المعنىٰ من أوضح ما يكون في كتاب الله، وأنه لابد في التوحيد من اجتماع التجريد والتفريد، فأحدهما لا يكفي، لو أن الإنسان نفىٰ فقط فإنه لم يأتِ بالتوحيد، ولو أنه أثبت فقط فإنه لم يأتِ بالتوحيد حتىٰ يجمع بين الأمرين، حتىٰ يجمع بين النفي والإثبات، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

ومر بنا -أيضًا- جملة من آيات القرآن التي دلت علىٰ هذا المعنىٰ.

ومن أدلة السنة -أيضًا- ما دل علىٰ هذا المعنىٰ، وكلكم يحفظ قول النبي ﷺ الذي رواه ابن عمر رضي الله عنهما عنه وخرجه الشيخان في «الصحيحين»: «بني الإسلام علىٰ خمس: شهادة أن لا إله إلا الله»، جاء في رواية عند مسلم تفسيرٌ لهذه الكلمة، ما معنىٰ قوله: (شهادة أن لا إله إلا الله)؟ جاء في رواية عند مسلم أن النبي ﷺ قال: «بُني الإسلام علىٰ خمس: علىٰ أن يوحد الله ويُكفر بما دونه».

إذن: معنىٰ شهادة أن لا إله إلا الله: أن يُوحَّد الله ويُكفر بما دونه، لابد من الأمرين، لا يكفي واحد عن الآخر، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وقل مثل هذا في الآية الثانية التي أوردها المؤلف رحمه الله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [آل عمران:٦٤] (لا نعبد) هي لا إله، و(إِلَّا الله) هي هي.

وجاء تأكيد النفي -أيضًا-: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْئًا﴾ [آل عمران:٦٤] هذا تأكيد للنفي، تأكيد بعد تأكيد لتحقيق مقام التوحيد.

المقصود: أن هذا هو التوحيد، وهذه هي شهادة أن لا إله إلا الله.

ويبقىٰ البحث بعد ذلك أن (لا إله إلا الله) ليست كلمة تُقال باللسان فحسب، إنها كلمة تُقال باللسان، وعقيدة تستقر في القلب، ويظهر أثرها علىٰ الجوارح، لو كان (لا إله إلا الله) قولها يكفي في النجاة ما كان بعضُ من قالها في الدرك الأسفل من النار، بعض من قال لا إله إلا الله مصيره في الدرك الأسفل من النار، أليس المنافقون الذين كانوا في عهد النبي ﷺ كانوا يقولون لا إله إلا الله؟ بلىٰ واللهِ، لكن هل نفعتهم؟ الجواب: لا، هم في الدرك الأسفل من النار، وذلك أنهم قالوها ولم يحققوا شروطها، ولم يأتوا بحقوقها، ولم يستكملوا قيودها.

(لا إله إلا الله) لها شروط وقيود وحقوق، من لم يأتِ بها ما انتفع بـ(لا إله إلا الله) ولو كررها عدد الأنفاس.

لما توفيت زوج الفرزدق، والفرزدق شاعر أموي معروف، حضر جنازتها الحسن البصري الإمام التابعي الجليل، فقال الفرزدق للحسن: يقول الناس: اجتمع في هذه الجنازة شر الناس وخيرهم، يريد: أنه هو شر الناس وأن الحسن خير الناس، فقال الحسن: لستُ بخير الناس ولستَ بشرهم، ثم قال له: ماذا أعددت لهذا اليوم؟ هذا اليوم الذي تدخل فيه أنت يا فرزدق هذه الحفرة، ماذا أعددت لهذا اليوم؟ قال: أعددت لا إله إلا الله منذ سبعين سنة. ما أحسن هذا الجواب! قال: أعددت لا إله إلا الله منذ سبعين سنة. فقال الحسن رحمه الله: نِعمت

العُدَّة، ولكن لـ(لا إله إلا الله) شروط، فإياك وقذف المحصنة. هناك شروط لـ(لا إله إلا الله) ومن ذلك: العمل بمقتضاها، ومن مقتضاها: الكف عما حرم الله ومن ذلك: قذف المحصنات، وهو مما يقع في كلام بعض الشعراء.

وفي رواية عنه أنه قال له: هذا العمود فأين الطُّنُب؟ الخيمة تحتاج إلىٰ عمود، وتحتاج إلىٰ حبال لتوثيقها، هذه هي الطُّنُب، قال: هذا العمود فأين الطُّنُب؟

وقال بعضهم لوهب بن منبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول الناس: إن (لا إله إلا الله) مفتاح الجنة. قال: نعم، ولكن لكل مفتاح أسنان، فإن أتيت بمفتاح له أسنان فُتِح لك، وإلا لم يُفتح لك. هذه الأسنان هي الشروط والقيود والحقوق لـ(لا إله إلا الله) بحيث إن من لم يجمع هذه القيود والشروط لا ينتفع بـ(لا إله إلا الله)، وقد تكلم عن هذه القيود كثير من أهل العلم بين إجمال وتفصيل، لكن التحقيق والتحرير: أن هذه الشروط شروط سبعة:

وبشروط سبعة قد قُيِّدت ... وفي نصوص الوحي حقًا وردت
فإنه لم ينتفع قائلها ... بالنطق إلا حيث يستكملها
العلم واليقين والقبول ... والانقياد فادرِ ما أقول
والصدق والإخلاص والمحبة ... وفقك الله لما أحبه

هذه هي قيودها، لا ينتفع قائل لا إله إلا الله إلا بتحقيقها.

أولًا: العلم بمعناها المنافي للجهل بمعناها. أيُّ انتفاع بـ(لا إله إلا الله) لمن قال لا إله إلا الله وهو لا يدرك لها معنىٰ؟! قائلها كالذي يهذي، كالذي يتكلم

وهو نائم لا يدرك ما يقول، أهذا ينتفع بـ(لا إله إلا الله)؟ أهذا شهد شهادة الحق؟

المسلم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، أتدري ما معنىٰ (أشهد)؟ قلنا: إن معنىٰ (أشهد) أي: أنطق بما أعلم وأتيقن، الشهادة ثلاثة أمور: نطق مع علم ويقين، أن يعلم ما هو الشيء الذي يشهد به، أرأيت لو أن شخصًا يشهد عند القاضي جاهلًا بما يشهد به، أتُقبل شهادته؟ الجواب: لا، هذا معلوم عند العقلاء جميعًا، **إذن:** لابد أن يعلم معناها، وذلك أن معناها هو الكفر بكل ما يُعبد من دون الله والإيمان بالله وحده، إفراده وحده جل جلاله بالعبادة.

إذن: لابد من العلم، وهذا ما أمر الله به، ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ [هود:١٤] أي: فاعلموا -أيضًا- أنه لا إله إلا الله. ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩].

إذن: لابد من العلم بمعناها، وهذا ينافي الجهل بمعناها.

ثانيًا: لابد من اليقين بمعناها، وهذا ينافي الريب والشك في معناها، بمعنىٰ: (لا إله إلا الله) لا تنفع قائلها إلا وقد استيقن يقينًا راسخًا بأنه لا إله إلا الله، وأن كل ما يُعبد من دون الله فعبادته باطلة، وأن الله وحده المستحق للعبادة، الواجب أن يُعبد جل وعلا من جميع الخلق.

من كان عنده ريب وشك وتردد لا ينتفع بـ(لا إله إلا الله)، لو قال لا إله إلا الله وفي نفسه أنه يوجد احتمال أن يكون عيسىٰ -أيضًا- إله، أو أن الشمس أو اللات، أو أن البدوي أو الشيخ عبد القادر -أيضًا- آلهة نقول: هذا لا ينتفع

بـ(لا إله إلا الله) ولو قالها ما قالها. لابد من اليقين بمعناها الذي دلت عليه، وهذا ينافي الشك والريب بمعناها، ولذا قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات:١٥].

إذن: الإيمان الصادق النافع يتنافىٰ والريبَ والشكَّ، وهذا بخلاف حال المنافقين الذين وصفهم الله ﷻ بقوله: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة:٤٥]، يقولون لا إله إلا الله لكن عندهم شك وريب فما نفعتهم لا إله إلا الله.

إذن: لابد من اليقين، وبذلك تحصل علىٰ الجائزة والفائدة والانتفاع من لا إله إلا الله.

ولذا النبي ﷺ -كما في «الصحيحين»- أعطىٰ أبا هريرة رضي الله عنه نعليه وكان في بستان في حائط وقال: «اذهب بهما، فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبُه فبشره بالجنة»، فلما ذهب رضي الله عنه وإذا بعمر رضي الله عنه يقول: ما تصنع بهذين النعلين؟ قال: أعطاني النبي ﷺ وذكر الحديث، فرده عمر رضي الله عنه لعلة جاءت في الحديث: خشي أن يتكل الناس، لا يحملون الحديث علىٰ معناه، فوافقه النبي ﷺ علىٰ عدم خروج أبي هريرة بذلك.

المقصود: أن من قال لا إله إلا الله وقلبه مستيقن بهذا المعنىٰ انتفع بهذا المعنىٰ وإلا فلا.

ولا تنفع المرءَ الشهادةُ فاعلمن إذا لم يكن مستيقنًا ذا تجرد

لابد من أمر ثالث: لابد من الإخلاص في قولها، أن ينطق بها وهو يريد وجه الله، لو نطق بها، لو تكلم بها وهو يريد حظًا من حظوظ الدنيا، يريد أن يداهن المسلمين، أو يريد أن يُحصّل منهم غرضًا من الأغراض فإنه لا ينتفع بـ(لا إله إلا الله)، لابد من الإخلاص في قولها.

ولذا النبي ﷺ بين في غير ما حديث: أن الانتفاع بـ(لا إله إلا الله) لا يكون إلا لمن قالها خالصًا من قلبه، لابد من الإخلاص في قولها، بخلاف الشرك في قولها، أن يقولها وهو لا يريد بذلك وجه الله، «فإن الله حرم على النار» هكذا يقول نبيك ﷺ والحديث في «الصحيحين»: «فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله».

الأمر الرابع: لابد من الصدق، لابد من صدق، والصدق: مواطأة اللسان للقلب. بمعنى: أن يتكلم بكلام يقوله بلسانه ولسانه يوافق قلبه، بخلاف الذي يتكلم بكلام بلسانه وقلبه لا يوافق ذلك، هذا يسمى كاذبًا.

إذن: لابد من الصدق في قولها المنافي للكذب في قولها. لن تفهم هذه الشروط إلا إذا فهمت أضدادها، إذا فهمت أضدادها فهمت هذه الشروط.

إذن: لابد من الصدق «صدقًا من قلبه»، من قالها صدقًا من قلبه فإن الله ﷻ يحرمه على النار، وهذا بخلاف حال المنافقين الذين أخبر الله ﷻ عن حالهم بأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون:١].

إذن: الإيمان يتنافىٰ وحالَ المنافقين، لا ينتفع بلا إله إلا الله من قالها وهو كاذب في قولها.

وقد يقول قائل: قد ذكرتَ قبل قليل أن الشك حال المنافقين، والآن تقول: إن الكذب حال المنافقين، فكيف الجمع؟

الجواب أن يقال: إن كليهما من حال المنافقين، فمن المنافقين من هو كاذب، ومنهم من هو مرتاب.

ويقال أيضًا: إنه قد يكون الواحد منهم تارة كاذبًا وتارة مرتابًا.

إذن: لابد من الصدق.

الأمر الخامس: المحبة لمعناها المنافية للبغض لمعناها، لابد أن تحب أنه لا إله إلا الله، لابد أن تحب الكفر بما يُعبد من دون الله، لابد أن تحب أن يكون الله ﷻ المحبوب وحده، وإلا فلو أن إنسانًا أبغض ذلك كره أن يكون غير الله ﷻ تُنفىٰ عنه العبادة.

كان يحب أن يكون سيده ومعبوده الولي الفلاني الذي يُعبد من دون الله، كان يحب أن تكون له الإلهية، وأن يُعبد من دون الله، يكره أن تكون العبادة فقط لله، نقول: هذا ما انتفع بلا إله إلا الله، لابد أن تحب معناها الذي دلت عليه، ورأس ذلك: أن تحب الله ﷻ، هذا كله فرع عن محبة الله ثم محبة رسوله ﷺ التي هي أساس الملة وأصل الدين وأجَلُّ قواعد الشرع.

ولا يؤمن ألبتة إلا من كان محبًا لله ﷻ ثم لرسوله ﷺ، والقَدْر الواجب من

ذلك أن يحب الله ورسوله أعظم محبة، أشد من محبة النفس والوالد والولد والصاحبة والناس أجمعين، لابد من هذا القَدْر.

وما الدين إلا الحب والبغض والْوَلا كذاك البَرَا من كل غاوٍ ومعتدي

الشرط السادس: القبول لما دلت عليه المنافي لرد ما دلت عليه.

(لا إله إلا الله) حتىٰ تنفع قائلها لابد أن تُقال علىٰ هيئة العهد والميثاق بين العبد وبين الله ﷻ أنه يقبل ما دلت عليه، لابد أن يلتزم بما دلت عليه هذه الكلمة.

بمعنى: من الكفار قديمًا وحديثًا مَن يحب معنىٰ لا إله إلا الله، يعجبه هذا المعنىٰ ويعجبه الإسلام، ويصدق -أيضًا- أن الرسول ﷺ نبي من عند الله، وليس عنده أدنىٰ تردد في الإذعان بأن هذا دين من عند الله ﷻ، وربما يقول لا إله إلا الله علىٰ سبيل الإعجاب بهذه الكلمة، لكن هذا ليس هو الإيمان، الإيمان قَدْر وراء ذلك، مجرد معرفة صدق النبي ﷺ وصحة الإسلام هذا قَدْر لا ينفع صاحبه وحده، هذا قَدْر لابد منه لكن لا ينفع وحده، وإلا فكم من اليهود الذين كانوا يعرفون صدق النبي ﷺ وصحة الإسلام، أليس الله ﷻ قد وصفهم بأنهم يعرفونه عليه الصلاة والسلام كما يعرفون أبناءهم، أنفعتهم هذه المعرفة؟ الجواب: لا.

أبو طالب عم النبي ﷺ أكان يعلم أن الرسول ﷺ صادق في قوله إنه رسول الله؟ أكان يعلم أن الإسلام حق؟ الجواب: نعم، أفنفعته هذه المعرفة؟ الجواب: لا، كان يقول:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحًا بذاك مبينا

ما انتفع بهذا.

إذن: لابد من القَبول، والقَبول يتنافى والرد، وهذا يعني: أن يُقابل الأخبار بالتصديق، ويقابل الأحكام بالالتزام.

ما جاء به النبي ﷺ إما أن يكون أخبارًا وإما أن يكون أحكامًا، لابد في الانتفاع بـ(لا إله إلا الله) من أن تقابِلَ الأخبار بالتصديق، وإلا فمن رد أو كذَّب أو جحد فإنه لم يأت بـ(لا إله إلا الله) حقًا ولا ينتفع بها.

لو أن إنسانًا قال لا إله إلا الله بحب وإخلاص وصدق ويقين، وصدَّق النبي ﷺ في كل ما أخبر به إلا حديثًا واحدًا، قال: هذا أنا لا أصدق النبي ﷺ فيه، صدَّق النبي ﷺ في عشرة آلاف حديث، عشرة آلاف حديث، كل واحد منها يقول: أنا أصدق بهذا، أصدق بهذا، لكن جاء عند حديث واحد فقط قال: لا، هذا لا أصدق به. هل هو مسلم؟ لا ، بل واللهِ لو كذَّب النبي ﷺ في كلمة، بل لو كذَّب النبي ﷺ في حرف، واللهِ وباللهِ وتاللهِ ليس بمسلم، وهذا من الأمر المعلوم من الدين بالضرورة، لا يختلف في هذا أحد من المسلمين قط.

إذن: لابد أن يقابِلَ الأخبار بالتصديق، كل ما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ يجب أن يُصدِّق به، وهذا يتنافى والتكذيبَ أو الجحود، التكذيب يعني: يكذب بقلبه ولسانه، والجحود أن يكذب بلسانه دون قلبه، والنتيجة واحدة، المهم أنه لابد أن يقابِلَ الأخبار بالتصديق.

وثانيًا: لابد أن يقابل الأحكام بالالتزام، ما معنىٰ الالتزام؟ الالتزام يعني: اعتقاد الخطاب، يعتقد أنه مخاطَب وملزَم ومأمور، وأنه يجب عليه أن يذعن، وهذا ينافيه الرد بالاستكبار، بمعنىٰ: يجب أمام كل أمر من أمر الله ورسوله ﷺ أن يقول سمعًا وطاعة، يذعن ويقبل.

أما لو قال -مثلًا-: الحج واجب عليكم وليس واجبًا عليَّ، أنا أكبر من أن أحج، أنا ارتفع عني التكليف بالحج، لا ينفعه، لابد من الالتزام.

ولذا أضرب لك مثلًا: عندنا رجلان، أحدهما ما حج مع القُدْرة، لكنه يقول: أنا أعلم أن الحج واجب عليَّ، وأني عاصٍ بترك الحج، لكن الشيطان والدنيا وأشغالها والأولاد، لكني أعرف أنني مقصر وعاصٍ والحج واجب وما حج، وآخر يقول: أنا لست ملزَمًا أصلًا بالحج، لكن تفضلًا سأحج، هكذا أريد أن أذهب وأستطلع الأمر وإلا أنا لست ملزمًا بالحج ولا يجب عليَّ، ولست مخاطبًا به، وحَجَّ، حج علىٰ غير سبيل الالتزام.

عندنا الآن رجل ما حج وعندنا رجل حج، ما حكم كل واحد منهما؟ الأول مسلم وإن كان عاصيًا مع أنه ما حج، والثاني وإن كان قد فعل لكنه كافر، لأنه يجب أن يلتزم، يجب أن يخضع، يجب أن يعتقد أنه مأمور ومطالَب، أما إن استكبر فإن هذا لا ينتفع بنطقه بلا إله إلا الله.

إذن: لابد من القَبول لما دلت عليه لا إله إلا الله المنافي لرد ما دلت عليه لا إله إلا الله.

إذن: هذا الشرط ينتقض في حق رجلين:

١. المكذب للأخبار، هذا يُعتبر فاقدًا لشرط القَبول.

٢. من لم يلتزم، الذي استكبر وما قَبِل ولا التزم.

إذن: لابد من القَبول.

الشرط السابع والأخير: الانقياد. الانقياد لما دلت عليه لا إله إلا الله المنافي لترك ما دلت عليه لا إله إلا الله.

الإسلام ليس أمرًا نظريًا يتكلم به الإنسان دون أن يكون له أثر في القلب والجوارح، الإسلام ما هو؟ استسلام لله بالتوحيد، وانقياد له بالطاعة، وبراءة من الشرك وأهله.

إذن: لابد من عمل بما دلت عليه لا إله إلا الله، لابد من طاعة. إذا قِبَل فلابد أن ينقاد، وهذا به يتضح الفرق بين القَبول والانقياد، أقول: من كان صادقًا في القَبول فعليه أن ينقاد، القَبول أساس، فرْعه الانقياد، لابد من أن يطيع وينقاد لما دلت عليه لا إله إلا الله، وإلا فإنه لا ينتفع بلا إله إلا الله، ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان:٢٢]، هذا الذي ينتفع بلا إله إلا الله.

إذن: لابد من أن ينقاد لما دلت عليه، وهذا ينتقض في حق رجلين:

أولًا: من وقع في الشرك الأكبر، الذي يقول لا إله إلا الله عن محبة وإخلاص ويقين وصدق.. إلىٰ آخره، ولكنه بعد ذلك يدعو غير الله، أو يذبح لغير الله، أو ينذر لغير الله، هل تنفعه لا إله إلا الله؟ الجواب: لا ؛ لأنه ما حصل منه الانقياد، كان منه الترك لما دلت عليه لا إله إلا الله، فأيُّ انتفاع بلا إله إلا الله بعد ذلك.

إذن: لابد من انقياد، من لحظة قولها وإلىٰ انتهاء هذه الحياة بالنسبة له، إلىٰ خروج آخر نَفَس في هذه الدنيا يجب عليه أن ينقاد، وبالتالي يجتنب كل ما ينقض هذه الكلمة.

الأمر الثاني: ينتقض هذا الشرط في حق من ترك طاعة الله ﷻ ورسوله ﷺ بالكلية، تأتيه الأوامر، تأتيه النواهي لا يستجيب ولا يلتفت ولا يرفع بهذا رأسًا، لا يعمل خيرًا بجوارحه وقلبه البتة، أيُّ انتفاع بلا إله إلا الله في حق هذا؟ لابد من انقياد، لابد من عمل، إن كان صادقًا في الحب والصدق والإخلاص واليقين فلابد بعد ذلك أن تنبعث الجوارح بطاعة الله ﷻ، أما إذا ترك تركًا مطلقًا هذا ما انتفع بلا إله إلا الله، فاته شرط الانقياد، ما فائدة لا إله إلا الله لمن قعد عن طاعة الله؟ والله تعالىٰ يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء:٦٤]، لابد من طاعة، لابد من عمل، لابد أن يطيع في الجملة، لابد أن يحصل منه شيء من الطاعة، وإلا فلو أنه ترك تركًا مطلقًا ما انتفع بلا إله إلا الله.

قد يعصي الإنسان وقد يترك بعض الواجبات باستثناء الصلاة فهذه لها حكم خاص، لكن قد يترك بعض الواجبات الأخرىٰ فهذا لا يُخْرِجُهُ عن دائرة الإسلام، لا يمنعه من الانتفاع بلا إله إلا الله، إنما كلامنا عمن ترك تركًا كليًا، ما استجاب لله ولا لرسوله ﷺ فمثل هذا ما انتفع بلا إله إلا الله.

إذن: الانقياد ينتقض في حق رجلين:

١. المشرك

٢. تارك الواجبات تركًا كليًا، ما يفعل واجبًا إطلاقًا.

هذا ما حصل منه انقياد، لابد من انقياد.

إذن: هذه هي شروط لا إله إلا الله، والمسألة جَلَلٌ عظيمة، النجاة مبنية علىٰ قول هذه الكلمة وتحقيق شروطها، إذا أردت النجاة عند الله ودخول الجنة ضع نصب عينيك هذا الموضوع، وأشغل ذهنك ووقتك وجوارحك بتحقيقها، المسألة ليست تَرَفًا، المسألة ليست عبثًا، المسألة حق، لابد من النظر في هذا الأمر.

(لا إله إلا الله) للإيمان بمثابة الروح للجسد، متىٰ خرجت الروح عن الجسد، لم يكن في الجسد روح صار الجسد ميتًا ولا يُنتفع به ولا يَنتفع هو، كذلك الذي يفقد لا إله إلا الله، يفقدها بعدم قولها، أو بانتقاض شروطها أو بعض شروطها.

ومن الناس من تكون روحه صحيحة قوية نشيطة وبالتالي فالجسد يصبح صحيحًا قويًا، وقد تكون الروح مريضة وضعيفة، وبالتالي الجسد يكون مريضًا وضعيفًا.

إذن: تفاوت الناس في إيمانهم وتوحيدهم ينبني علىٰ مدىٰ تحقيقهم لهذه الشروط.

إذن: هذا من أعظم الأهداف التي تضعها في حياتك، الناس اليوم يتكلمون كثيرًا عن الأهداف في الحياة، يقول لك: لابد أن تضع لك أهدافًا استراتيجية، أول هدف استراتيجي يجب أن تضعه -يا عبد الله- هو تحقيق لا إله إلا الله بشروطها وقيودها وحقوقها، هذا ميدان حياتك الأهم، أهم من كل شيء هو أن

تسعىٰ في تحقيق هذه الشروط، تضعها نصب عينيك ثم تستعين بالله ﷻ علىٰ تحقيقها، تعتقدها اعتقادًا صحيحًا وتعمل بمقتضىٰ هذا الاعتقاد، وإلا فإنك ستخسر خسارة كبيرة، والمصيبة أن هذه الخسارة لا ينفع معها ندم إذا ذهبت الفرصة، الفرصة هي بقاء هذه الحياة، كون النَّفَس يتردد في هذا الجسد، **إذن:** لا تزال هناك فرصة يعمل ويرتقي ويحقق أعظم الدرجات في الحياة الحقيقية، ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ﴾ [العنكبوت:٦٤] يعني: الحياة الحقيقية، وهذا كله مبني علىٰ هذا الأساس الذي هو لا إله إلا الله.

فخذ هذا الموضوع بقوة، واهتم به، وضعه في أُسِّ وقمة اهتماماتك، وبهذا تحصل النجاة إن شاء الله.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَدِلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة:١٢٨].

الشَّرح

نأتي الآن إلىٰ الشهادة القرينة لشهادة أن لا إله إلا الله، هما شهادتان متلازمتان، لا تنفع إحداهما إلا بالأخرىٰ، من أتىٰ بلا إله إلا الله وكفر بأن محمدًا رسول الله والله ما تنفعه.

إذن: شهادتان متلازمتان لا تنفع إحداهما إلا بالأخرىٰ، إذا فهمت هذه المسألة فهمت سبب كون بعض النصوص جاء فيها التنصيص علىٰ إحدىٰ الشهادتين دون الأخرىٰ، تجد في كثير من النصوص أنه يقال: (من قال لا إله إلا الله) ولا تأتي كلمة (محمد رسول الله) والسبب: أنهما شهادتان متلازمتان، وهذا التلازم معلوم بالضرورة، وعليه فقد يُستغنىٰ عنه للعلم به، قد يُذكر الملزوم دون لازمه أو اللازم دون الملزوم للعلم به، فـ(لا إله إلا الله) لازمها شهادة أن محمدًا رسول الله.

بل يكفي التأمل في معنىٰ (لا إله إلا الله) حتىٰ تعرف هذا القَدْر، أليست (لا إله إلا الله) تعني لا معبود حق إلا الله؟ **إذن:** لابد من عبادة الله، والسؤال: كيف تكون العبادة لله مع عدم الإيمان بشهادة أن محمدًا رسول الله؟ هل يمكن أن يحقق الإنسان عبادة الله من غير طريق محمد ﷺ؟ الجواب: بالتأكيد لا.

إذن: صارت إحدىٰ الشهادتين تلازم الأخرىٰ، فذِكْر إحداهما يدل علىٰ الآخر بدَلالة اللزوم.

شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ.

استدل المؤلف علىٰ هذا بقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨]، (لَقَدْ) (قد) إذا دخلت علىٰ الفعل الماضي تفيد التحقيق، واللام هي الموطئة للقسم، كأنه قال: أقسم قد جاءكم رسول من أنفسكم، والله ﷻ أصدق القائلين وإن لم يكن قَسَم فكيف إذا كان القسم؟ هذا دليل علىٰ تأكيد هذا المعنىٰ وتفخيمه الذي يقسم الله ﷻ عليه، فالله المقسِم والله المقسَم به، والمقسَم عليه أن هذا النبي الكريم ﷺ رسول، ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨] تعرفونه، تعرفون قبيلته، تعرفون أسرته، ليس بشخص غريب عنكم، أدقُّ التفاصيل عنه معلومة عندكم، وهذا فيه إشارة إلىٰ إقامة الحجة عليهم في تصديقه، لأنهم يعرفونه، ويعرفون سجاياه، ويعرفون خلاله، وقد علمنا قاعدة: النبوة لا يدَّعيها إلا أصدق الناس أو أكذب الناس. بعض الناس يقول: يشتبه الأمر، كيف الدليل علىٰ هذه الشهادة وصدق النبي ﷺ؟ أقول لك: اطمئن، النبوة لا يدَّعيها إلا أصدق الناس أو أكذب الناس، أتقىٰ الناس أو أفجر الناس، والتفريق بين الصادق والكاذب أو أصدق الناس وأكذب الناس هل هو أمر معضل؟ وإلا أمر متيسر حتىٰ عند الجهال؟ التفريق بين أتقىٰ الناس وأفجر الناس متيسر، وبالتالي يكفي أدنىٰ نظر في سيرة النبي ﷺ وشمائله

لتصل إلىٰ الحقيقة وهي أنه رسول من عند الله صادق، صادق حينما قال: إني رسول من عند الله، ﷺ.

إذن: هذا هو النبي ﷺ وهذه الشهادة بأنه رسول الله، فما معنىٰ شهادة أن محمدًا رسول الله؟



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَمَعْنَىٰ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، واجْتِنَابُ مَا عَنْهُ نَهَىٰ وَزَجَرَ، وأَلَّا يُعْبَدَ اللهُ إِلا بِمَا شَرَعَ.

الشَّرح

هذا الذي ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ من معنىٰ شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ مستفاد بدلالة التضمن لأن محمدًا رسول الله، وإلا فلو أردنا ما دلت عليه هذه الشهادة أو معناها بدلالة المطابقة فإن شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ تعني: الإقرار باللسان والاعتقاد بالقلب أن محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي ﷺ رسول من عند الله، وأن رسالته عامة للثقلين الجن والإنس، وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين. **عندنا كم أمر؟ ثلاثة:**

أولًا: لابد من نطق واعتقاد جازم بأن هذا النبي الكريم ﷺ المعروف عند الناس وهو محمد بن عبد الله ﷺ رسولٌ من عند الله، أرسله الله عَزَّ وَجَلَّ، أوحىٰ إليه بهذه الرسالة وهي دين الإسلام، والدليل علىٰ هذا قوله تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩]، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران:١٤٤].

إذن: الأدلة مستفيضة متواترة في الكتاب والسنة في إثبات أنه نبي رسول من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. هذا الأمر الأول.

الأمر الثاني: وأن رسالته عامة للثقلين: الجن والإنس. كل الناس عليهم أن يؤمنوا بهذه الرسالة، ويذعنوا لها، ويصدقوا بها، ويعملوا بها، قال الله جَلَّ وَعَلَا:

﴿قُلْ﴾ أمرٌ للنبي ﷺ، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، **ولاحظ كيف أن العموم هاهنا جاء من وجهين:**

أولًا: من قوله: ﴿ٱلنَّاسُ﴾ وعلمنا أن الجمع المحلىٰ بـ(أل) يفيد العموم، ثم أُكِّد ذلك بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾، وبالتالي هذا عموم محفوظ ما خُصَّ منه أحد ولا خرج عنه أحد، كل الناس من لدن بعثة النبي ﷺ إلىٰ قيام الساعة فإنه تلزمهم شهادة أن محمدًا رسول الله، لابد من اعتقاد ذلك، «**كان النبي يُبعث إلىٰ قومه خاصة وبُعثت إلىٰ الناس كافة**»، هكذا يقول النبي ﷺ.

يقول ﷺ كما عند «مسلم»: «**بُعثت إلىٰ كل أحمر وأسود**».

إذن: النبي ﷺ رسول لجميع الناس: للعرب، للعجم، لأهل الكتاب، للمشركين، ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ [آل عمران:٢٠] ما في هداية إلا بالإسلام والقَبول برسالة هذا النبي ﷺ، حتىٰ الجن واجب عليهم أن ينقادوا لهذه الرسالة، وأن يشهدوا أنه رسول من عند الله، ولذا يقول الله ﷻ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان:١]، فسَّر (العالمين) ابن عباس رضي الله عنهما بأنهما الجن والإنس، ويدل علىٰ هذا – أيضًا– ما جاء في سورة الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف:٢٩] ثم قال تعالىٰ: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف:٣١]، **إذن:** هو داعٍ من عند الله ﷻ لهؤلاء الجن كما أنه داعٍ للإنس، ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ

﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٍ ٣١ وَمَن لَّا يُجِبۡ﴾ [الأحقاف:٣١-٣٢] مَن؟ ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ الذي هو محمد بن عبد الله ﷺ، ﴿فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف:٣٢].

إذن: كان النبي ﷺ -أيضًا- مبعوثًا إلىٰ الجن، وهذا أمر قطعي مجمَع عليه لا شك فيه.

إذن ثانيًا: الإيمان بأنه رسولٌ لجميع الإنس والجن كافة.

ثالثًا: وأن رسالته خاتَم الرسالات، ونبوته خاتم النبوات، فلا نبي ولا رسول بعده، ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ [الأحزاب:٤٠]، قال ﷺ: «**وأنا خاتم النبيين فلا نبي بعدي**».

إذن: هذا هو معنىٰ شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ، **ويتضمن ذلك الأمور الأربعة التي ذكرها المؤلف** رحمه الله:

أولًا: طاعته فيما أمر، لابد من الطاعة، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء:٦٤]، ما فائدة أن تشهد أنه رسول الله ﷺ ثم تستكبر عن طاعته أو تترك طاعته، والمقام في ترك طاعته فيه تفصيل، فمن استكبر وأبىٰ الالتزام بطاعته قلنا: كافر، ومن ترك طاعته تركًا مطلقًا كافر، ومن ترك بعض طاعته كان عاصيًا، من ترك بعض الطاعة الواجبة كان عاصيًا، ولذا لا ينجو إلا من أطاع الرسول ﷺ، قال النبي ﷺ: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبىٰ. قالوا: ومن يأبىٰ يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبىٰ**».

إذن: لابد من طاعة النبي ﷺ، قال لك: افعل قل سمعًا وطاعة، قال لك: صل، صم، أَعْفِ لحيتك، قصِّر ثوبك، ينبغي أن تقول: سمعًا وطاعة، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ [النور:٥١]، تريد الهداية؟ أطع رسول الله ﷺ، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ﴾ [النور:٥٤]، ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥٨﴾ [الأعراف:١٥٨].

إذن: لابد من طاعة النبي ﷺ حتى تنجوَ يا عبد الله.

طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، وهذا ما تكلمنا عنه قبل قليل، لابد أن يُصدَّق النبي ﷺ في كل ما يُخبر به، وقد أخبر النبي ﷺ بأشياء كثيرة، منها ما كانت واقعة في عهده، منها ما كانت قبل ذلك، ومنها ما ستكون بعد ذلك، كل ذلك يجب أن يصدق به المسلم إذا بلغه ذلك، ومن كذَّب النبي ﷺ في كلمة فقد كفر، وهذا أمر مجمع عليه، إذا أخبر النبي ﷺ أنه قد كان في الأمم السابقة كذا وكذا ما الواجب علينا؟ التصديق.

إذا أخبر النبي ﷺ أنه سيكون في آخر الزمان أو في القبر أو يوم القيامة، أو في الجنة والنار كذا وكذا، ما الواجب؟ التصديق، حتى لو كان الأمر غريبًا يجب أن تطَّرحه، ما تزعم أنه عقل عندك أمام حديث رسول الله ﷺ إن كنت تريد أن تكون مسلمًا متبعًا له، أما الذي يجعل هناك ميزانًا يَزِن به كل خبر، الميزان هو عقله، يَزِن به خبر النبي ﷺ ثم يبني بعد ذلك القَبول أو الرد، هذا لا حظ له في الإسلام، من كان يرد كلام النبي ﷺ؛ لعدم موافقته عقله فإنه انتقض عنده هذا

التصديق، إذا كان يرده ردًا لا شبهة فيه، اللهم إلا أنه يقول: هذا لا يوافق عقلي، نقول: يا عبد الله، عقلك خلقه الله، والذي أرسل هذا الرسول الذي لا ينطق عن الهوىٰ هو الله ﷻ أيضًا، ولا يمكن أن يكون هناك تعارض، **إذن:** اتهم عقلك.

مرة حدَّث النبي ﷺ بحديث عجيب، وهذا الحديث في «الصحيحين»، قال النبي ﷺ: **«بينما رجل يسوق بقرة إذ ركبها» «فالتفتت إليه وقال: إننا لم نُخلق لهذا، إنما خُلِقنا للحرث»**. فقال الناس: سبحان الله، بقرة تكلَّم؟ تعجبوا من هذا الأمر العجيب! فقال النبي ﷺ: **«فأنا أؤمن بذلك وأبو بكر وعمر»**.

يقول أبو سلمة -والحديث من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ-: وما كان أبو بكر وعمر حاضرين في الناس. لكن عَلِمَ النبي ﷺ أنهما لو كانا حاضرين سيصدقان مباشرة.

ثم قال ﷺ: **«وبينما رجل يرعىٰ غنمًا له إذ جاء ذئب فأخذ شاة منها، فأدركه فاستنقذها منه»** يعني: الراعي أدرك هذا الذئب، **«ثم قال له الذئب: فمن يحميها مني يومَ السُّبُع، يوم لا راعي لها غيري»**، من الذي قال هذه الكلمة؟ الذئب، فقال الناس: سبحان الله! ذئب يتكلم؟ فقال النبي ﷺ: **«فأنا أؤمن بهذا وأبو بكر وعمر»**، لأن هذا ما قاله النبي ﷺ من عنده، إنما أوحىٰ الله به إليه، فما الذي يجب؟ الإيمان والتصديق.

إذن: إذا كنت صادقًا في شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ عليك أن تصدق النبي ﷺ في كل ما يقول به ولو عارض عقلك، مع أن النبي ﷺ أصلًا لا يمكن

أن يأتي بشيء يخالف العقول، لكن بعض الناس يتوهم أن هذا مقتضى العقل، تُطَّرح العقول، تُطَّرح المذاهب، تُطَّرح الأقوال، يُطَّرح كل شيء أمام كلام رسول الله ﷺ، هذا إذا كان يريد الإنسان النجاة.

أذكر لك مثلًا آخر: في «مسند الإمام أحمد» النبي ﷺ أخبر أن عيسى عليه السلام سينزل في آخر الزمان، الحديث في الصحيحين ومتواتر لكن أنا أريد هذه الرواية من رواية أبي هريرة رضي الله عنه، وجاءت عن النبي ﷺ -هذه الكلمة التي سأقول- مرفوعة وموقوفة، قال النبي ﷺ -وهذا ما رجحه بعض الحفاظ الرفع-: «فمن لقيه منكم فليقرئه مني السلام».

وبعض العلماء رجَّح الوقف، والصحيح أن كلا الروايتين صحيح، فهذا كان مرفوعًا وكان موقوفًا، يقول أبو هريرة: فمن أدركه منكم فليقرئه مني السلام.

وعند ابن أبي شيبة في «المصنف» التفت أبو هريرة لما حدث بهذا الكلام إلى رجل من أحدث القوم، يعني: شاب صغير، قال: إني أُراك أحدث القوم سِنًّا، فإذا لقيت عيسى فأقرئه مني السلام. هذا دليل على تصديقه الجازم بأن عيسى عليه السلام سينزل آخر الزمان، إذا قال النبي ﷺ كلامًا يجب أن تصدق به كما أنك تصدق بالشمس إذا كنت تنظر إليها، بل أشد.

طاعته فيما أمر، تصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، هذا الأمر الثالث، لابد من الانتهاء عما نهى عنه النبي ﷺ، والأصل أن ما نهى عنه النبي ﷺ محرم إلا إذا قامت قرينة تدل على خلاف ذلك من كراهة ونحوها.

المقصود: أن مما تتضمنه شهادة أن محمدًا رسول الله: أن تكف عن كل شيء نهىٰ عنه النبي ﷺ، وإلا فأنت علىٰ خطر، من استكبر عن طاعة رسول الله ﷺ في فعل الأوامر والانتهاء عن النواهي فقد علمنا أنه يكفر بذلك، إياك ومعاندةَ رسول الله ﷺ فإن الأمر في غاية الخطورة.

اسمع هذا الحديث العجيب، في «صحيح مسلم» أن رجلًا كان يأكل مع النبي ﷺ ولكن بشماله، فقال النبي ﷺ: «**كل بيمينك**»، النبي ﷺ نهىٰ عن الأكل بالشمال، فقال: لا أستطيع، قال: «**لا استطعت، ما منعه إلا الكِبْر**»، يقول الراوي: فما رفعها بعد ذلك إلىٰ فِيْه. شُلَّت هذه اليد، أصبحت مشلولة ما يستطيع يرفعها، والسبب: أنه عاند السنة، عصىٰ النبي ﷺ فكانت هذه العقوبة الدنيوية، والله أعلم بما يكون في الآخرة، وعذاب الآخرة أشد.

إذن: حذارِ إذا سمعت نهي النبي ﷺ أن تبادر إلىٰ ذلك وإلا فأنت علىٰ خطر، ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور:٦٣]، والنبي ﷺ يقول: «**وجُعِل الذلة والصغار علىٰ من خالف أمري**»، ذلة وصَغار، حياة تعيسة لمن خالف النبي ﷺ، فتِّش في نفسك، ربما يكون من سبب التعاسة التي تشعر بها وتعرقل الأمور أمامك سببه عصيانك النبي ﷺ، فاحذر.

الأمر الرابع والأخير: وألا يُعبد الله إلا بما شرع، كل الطرق إلىٰ الله مسدودة إلا طريق محمد ﷺ، لا يمكن أن يصل الإنسان إلىٰ مرضاة مولاه ﷻ إلا من طريق النبي ﷺ.

لا يُعبد الله إلا بما شرع رسول الله ﷺ، لابد في كل أمر يُراد التقرب به إلىٰ الله أن يكون عليه خاتم النبوة، لابد أن يكون مطبوعًا بطابع الرسالة، وإلا فإنه واللهِ لا يزيدك من الله إلا بُعْدًا، لا يقرِّبك من الله، بل واللهِ إنه ليبعدك عن الله، لا تُنال ثوابًا؛ لأن العمل مردود، «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»، لا تطمع بالأجر إذا فعلت أمرًا لم يكن عليه أمر النبي ﷺ وسنته.

ثم إن ثمة عقوبة «أما بعد، فإن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها»، من الذي قال هذا الكلام؟ رسول الله ﷺ، صدِّق بهذا، شر الأمور محدثاتها.

قال: «وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار».

إذن: أيُّ خطوة تخطوها في طريق العبودية لابد أن يكون عليه دليل وبرهان من لدن رسول الله ﷺ وإلا فاعلم أنك تسلك طريقًا خاطئًا لا يوصلك إلىٰ مقصودك، بل يوصلك إلىٰ عكس مقصودك.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَدَلِيلُ الصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة:٥].

الشـرح

المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ قد تكلم في هذه القطعة من هـذه الرسـالة عـن أركـان الإسـلام، وذكر الركن الأول وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمـدًا رسـول الله، وهـذا ما مضىٰ الكلام عنه مفصلًا.

وأورد هاهنا هذه الآية التي جمعت ثلاثة أركان: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ ﴾ [البينة:٥]، هذه الآية فَسَّرت شهادة التوحيد: لا إله إلا الله، لأننا قد علمنا أن شهادة التوحيد جزءان: نفي وإثبات، فالإثبات جاء في قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة:٥] يعبدوا الله مخلصين له الدين: هذا هو الإثبات، وقوله: ﴿حُنَفَآءَ ﴾ [البينة:٥] هذا هو النفي، لأن **الحَنَف في اللغة هو:** الميل، والأحنف من به ميل في رجله، **والحنيف:** هو المائل.

وقوله: ﴿حُنَفَآءَ ﴾ يريد: أنهم مائلون عن الكفر والشرك إلىٰ التوحيد. والميل عن الشرك يتضمن البراءة منه، ونفيَه، والكفرَ به، وبغضَ أهله.

إذن قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ يدلُ علىٰ تفسير شهادة التوحيد (لا إله إلا الله).

ثم ذكر الركن الثاني قال: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [البينة:٥]، الصلاة عماد الإسلام،

أعظم ما أمر الله ﷻ به بعد التوحيد، شأنها في الإسلام شأن عظيم، فلا حَظَّ في الإسلام لمن ترك هذه العبادة، لما طُعِن عمر رضي الله عنه وكان يصلي صلاة الفجر قال: «الصلاة الصلاة، فإنه لاحظ في الإسلام لمن ترك الصلاة».

هذه العبادة لها حكم يختلف عن بقية العبادات جميعًا، شأنها في الإسلام شأن خاص، وذلك أن كل عبادة وكل واجب من الواجبات لو تركه الإنسان وهو مُقِرٌّ بوجوبه فإنه لا يكفر بذلك، إلا الصلاة، علىٰ الصحيح من كلام أهل العلم.

فالصلاة من تركها جاحدًا وجوبها فهو كافر بالإجماع، ومن تركها تكاسلًا وتهاونًا فإنه كافر خارج عن الملة علىٰ الصحيح من كلام أهل العلم، وهذا ليس إلا للصلاة؛ لعظيم شأنها.

والدليل علىٰ هذا ما خرج الإمام مسلم رحمه الله في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «بين الرجل وبين الكفر والشرك: ترك الصلاة»، فهي الحد الفاصل بين الإيمان والكفر.

وخرج «الترمذي» و«أحمد» بإسناد صحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة»، «العهد الذي بيننا» يعني: معشر المسلمين، «وبينهم» يعني: الكفار «الصلاة، فمن تركها فقد كفر».

وأجمع الصحابة رضي الله عنهم والتابعون علىٰ كفر تارك الصلاة، قال عبد الله بن شقيق التابعي الجليل رحمه الله: «لم يكن أصحاب النبي ﷺ يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة».

ويقول أيوب السختياني رحمه الله: (ترك الصلاة كفر لا يُختلف فيه).

أورد الأثرين بالإسناد محمد بن نصر المروزي رحمه الله في كتابه: «تعظيم قدر الصلاة».

وكذلك أورد رحمه الله عن إسحاق بن راهويه، قال: سمعت إسحاق بن راهويه يقول -وإسحاق إمام جليل، كان يُقارَن بالإمام أحمد وبالإمام الشافعي-: (كان أهل العلم من لدن رسول الله ﷺ وإلىٰ يومنا هذا يرون أن من ترك الصلاة عامدًا حتىٰ خرج وقتها أنه كافر بالله).

هذا إسحاق يحكي إجماع العلماء من لدن عهد النبوة وإلىٰ وقته، كل العلماء ماضون علىٰ أن من ترك الصلاة عامدًا حتىٰ يخرج وقتها فإنه كافر.

إذن: الصلاة لها شأن عظيم في الإسلام، فمن أراد أن يكون مسلمًا فعليه أن يحافظ علىٰ هذه الصلاة، وإلا فإنه -واللهِ- علىٰ شفا هلكة، «**لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة**».

ونقل الإجماع علىٰ هذا كثير من أهل العلم، ومنهم: محمد بن نصر الإمام المروزي المعروف في كتابه «تعظيم قدر الصلاة»، وساق جملة من الآثار عن السلف في هذا أيضًا، وهذا كتاب جليل لا يستغني عنه طالب العلم، تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي عليه رحمة الله.

أما الركن الثالث فإنه الزكاة، لابد من إيتاء الزكاة.

والزكاة في الإسلام تجب في أموال مخصوصة، تجب أولًا في النقدين: الذهب والفضة، وما في حكمهما كالأوراق النقدية، أو ما نسميه اليوم بالفلوس، النقود، هذه الأوراق يجب تزكيتها، إذا بلغ هذا المال نصابًا وحال عليه الحول، يعني: مضىٰ علىٰ تملُّكه سنة فإنه يجب إخراج الزكاة. وهذه الزكاة هي ربع

العشر، هي اثنان ونصف في المائة، وإذا أردت معرفة زكاة أي مبلغ عندك فاقسمه علىٰ أربعين، الناتج هو الزكاة، أيُّ مبلغ عندك تريد تزكيته فاقسمه علىٰ أربعين، الناتج هو الزكاة.

والصنف الثاني من الأموال التي تجب فيها الزكاة: السائمة من بهيمة الأنعام: البقر والإبل والغنم، إذا كانت ترعىٰ في البراري ولست أنت الذي تعلفها، فإنه يجب فيها الزكاة في أحكام معلومة في كتب الفقه.

كما أنها -أيضًا- تجب في الخارج من الأرض من الحبوب والثمار، ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٤١]، مع أحكام تتعلق بالخارج وما يُخرَج.

وتجب -رابعًا- في عروض التجارة، الأموال التي أُعدت للتجارة من ملابس، من مواد غذائية، من سيارات، من مواد بناء، كل ما أُعد للتجارة فإنه إذا كانت قيمته تبلغ نصابًا فإن هذه الزكاة واجبة عليه إذا حال الحول، تُقوَّم بسعر بيعها لا بسعر شرائها ثم تُخرج الزكاة: اثنان ونصف في المائة.

هذه الأصناف الأربعة التي تجب فيها الزكاة.

واعلم -يا عبد الله- أنه يجب إخراج الزكاة علىٰ الفور، لا يجوز لك أن تؤخر إخراج الزكاة ولا ساعة واحدة، وفي مقابل هذا يجوز لك أن تقدم الزكاة علىٰ وقتها.

هذا هو الركن الثالث من أركان الإسلام.

أما الركن الرابع فإنه صيام رمضان، وصيام رمضان يعني: أن يصوم الإنسان الشهر الذي بيَّن الله ﷻ في كتابه، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾

[البقرة:١٨٥]، ثلاثون يومًا أو تسعة وعشرون يومًا كل سنة يجب صيامها إلا من عُذْر.

والصيام: هو الإمساك من طلوع الفجر وإلىٰ غروب الشمس عن الأكل والشرب والجماع وما حرم الله.

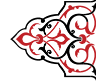
هذه أمور أربعة يجب الكفُّ عنها خلال نهار شهر رمضان.

الركن الخامس: حج بيت الله الحرم لمن استطاع إليه سبيلًا. وهذا الركن نحن حدثاء عهد به، وأسأل الله ﷻ أن يتقبل ممن حج، وأن ييسر في المستقبل لمن لم يحج، والحج له أحكام تتعلق به، منها ما يختص ببيت الله الحرام، ومنها ما يختص بالمسعىٰ الذي هو بين الصفا والمروة، ومنها ما يختص بالمشاعر في منىٰ ومزدلفة وعرفات.

هذه هي أركان الإسلام، هذه التي يجب علىٰ كل مسلم أن يأتي بها، هذه المباني العظام، هذه دعائم الإسلام، الإسلام بني علىٰ خمس، علىٰ خمس دعائم كما قال النبي ﷺ، وأخرج هذه الرواية محمد بن نصر رحمه الله.

وسيأتي في أدلة المؤلف التي أوردها: حديث جبريل عليه السلام من حديث ابن عمر عن أبيه رضي الله عنهما، وفيه ذِكْرُ أركان الإسلام وأركان الإيمان وما يتعلق بالإحسان -أيضًا- وهو ركن واحد.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: 

الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ، وَهُوَ: بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلاهَا قَوْلُ لا الـه إِلا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ.

وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

الشَّرح

انتقل بعد ذلك إلىٰ المرتبة الثانية من مراتب الدين، تقدم معنا أن الدين ثلاث مراتب: الإسلام والإيمان والإحسان، وجمعها حديث جبريل الذي سيأتي إن شاء الله.

الإيمان عند أهل السنة والجماعة -وهذا ما دل عليه الكتاب والسنة- حقيقة مكونة من ثلاثة أجزاء: قول واعتقاد وعمل. ليس مطلق القول ولا مطلق الاعتقاد ولا مطلق العمل، إنما هو قول مخصوص واعتقاد مخصوص وعمل مخصوص دل عليه الدليل.

وذلك أن الإيمان الذي رتَّب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه نجاة الإنسان من الضلال ومن النار إنما ينبني علىٰ تحقيق هذا الإيمان، فلابد من قول وهو أن ينطق بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ولا يمكن أن يكون الإنسان مسلمًا حتىٰ ينطق بذلك، ولا يُعذر إلا من ليس له قدرة علىٰ النطق، ومن عدا ذلك فإنه لا يمكن أن يكون مؤمنًا إذا لم ينطق بالشهادتين.

ولابد -ثانيًا- من اعتقاد، لابد من أن يعبد الله ﷻ بقلبه، بالمحبة والخوف والرجاء والإخلاص والإنابة والتوكل وما إلىٰ ذلك مما جاء في النصوص، لابد من اعتقاد قلبي.

ولابد -ثالثًا- من عمل بالجوارح، لابد أن يعمل بجوارحه ما أمر الله ﷻ أن يُعمل به، كالصلاة والزكاة والصيام والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما إلىٰ ذلك، هذا لابد منه، فالأعمال الظاهرة هي من حقيقة الإيمان، وهي -أيضًا- دليل علىٰ وجود الإيمان، فكاذبٌ من يزعم أن في قلبه إيمانًا لا يظهر ذلك علىٰ جوارحه، من يزعم أن في قلبه إيمانًا لا يظهر علىٰ جوارحه، «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

وهذا الإيمان يتفرع إلىٰ شُعَب، هذه الشُّعَب جاء عن النبي ﷺ فيما خرج الإمام البخاري: أنها بضع وستون شعبة، قال النبي ﷺ: «الإيمان بضع وستون شعبة»، كل أعمال الخير التي أُمر بها أمر إيجاب أو استحباب ترجع إلىٰ هذه الشُّعَب.

وجاء في «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ عدُّها بضعًا وسبعين شعبة، فقال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة»، وجاءت رواية الشك -والراجح أنه من أحد الرواة- أن الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة.

إذن: كل خصال الخير والهدىٰ والعمل الصالح والعبادة راجعة إلىٰ هذه الشُّعَب، وهي تتنوع إلىٰ ما يقوم بالقلب، وما يقوم بالأعضاء، وما يقوم باللسان،

كما قال النبي ﷺ: «**الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة، فأعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**».

من هذه الشُّعَب شُعَبٌ ست، هذه تسمىٰ أركان الإيمان، وهي شُعَب قلبية التي نسميها أركان الإيمان.

إذن السؤال الآن: ما العلاقة بين أركان الإيمان وشُعَبه؟

الجواب: العلاقة العموم والخصوص المطلق، بمعنىٰ: كل ركن من أركان الإيمان فهو من شُعَب الإيمان، وليست كل شُعبة ركنًا، أركان الإيمان بعض شُعَب الإيمان، وهي أعلاها، وهي أرفعها، كما بيَّن هذا حديث جبريل عليه السلام، وسيأتي ذكره إن شاء الله.

هذه الأركان الستة هي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر.

أما الإيمان بالله فقد مضىٰ الكلام عنه تفصيلًا، وأنه يتفرع إلىٰ الإيمان بثلاثة أشياء: الإيمان بربوبية الله، الإيمان بألوهيته -يعني: بعبادته- والإيمان بأسمائه وصفاته، وهذا ما مضىٰ الكلام عنه تفصيلًا.

أما الركن الثاني فإنه الإيمان بالملائكة.

الإيمان بالملائكة ركن ثانٍ في أركان الإيمان، والملائكة خلْق من خلق الله، خلقهم الله سبحانه وتعالى من نور، ولهم صفات ولهم أعمال، ويجب الإيمان بها جميعًا، هؤلاء الملائكة الكرام يدبِّر الله عز وجل بهم شؤون هذا الكون، فالإيمان بهم يتضمن عدة أمور:

أولًا: الإيمان بوجودهم وخلْقهم.

الذي عليه أهل الإسلام قاطبة أن الملائكة عِباد مخلوقون موجودين، وأن الله ﷻ خلقهم من نور بكيفية الله أعلم بها، هم بالنسبة لنا عالم غيبي، لكننا نؤمن بوجودهم لورود الدليل بذلك، ونعتقد معشر المسلمين بوجودهم الوجود الحقيقي، هم مخلوقون وموجودون ولهم صفات، وليس الأمر كما قال الضالون المضلون: إن الملائكة إنما هم أشياء معنوية لا حسية، إنما هي نفوس وأرواح وليس لها وجود حقيقي. وهذا باطل، بل الحق الذي لا شك فيه أن الملائكة موجودون وجودًا حسيًا، وأن الله ﷻ ركَّب فيهم أعضاءً، فإن لهم أيدٍ، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام:٩٣]، ولهم قلوبهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ:٢٣]، ولهم -أيضًا- أحاسيس ومشاعر، فهم يحبون، «إذا أحب الله عبدًا نادىٰ جبريل: إني أحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل وينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبونه»، إلىٰ غير ذلك مما يدل علىٰ أن وجودهم وجود حسي حقيقي.

وكذلك نعتقد ضمن ما نعتقد في هذا الأمر: أنهم عباد لا معبودون، ليس لهم من شأن الربوبية ولا الألوهية شيء، إنما هم عباد لله ﷻ مأمورون، وهم دائبون في عبادة الله ﷻ، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠]، يعبدون الله ﷻ باستمرار.

وهم -أيضًا- بعيدون عن معصية الله ﷻ، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم:٦]، أوقاتهم مشغولة بطاعة الله ﷻ.

هذا هو الأمر الأول.

الأمر الثاني: الإيمان بما علمنا من أسمائهم، وقد جاء في الكتاب والسنة ذِكْر بعض الملائكة بأعيانهم وأسمائهم، **ومن أولئك:** جبريل عليه السلام، **ومن أولئك:** ميكائيل، **ومن أولئك:** إسرافيل، وهؤلاء الثلاثة هم مقدَّموا الملائكة، وهم أعظمهم قدْرًا وشرفًا، ولذا كان النبي ﷺ يدعو الله متوسلًا إليه بربوبيته لهؤلاء الثلاثة.

ومن أولئك -أيضًا-: مالكٌ خازن النار.

ومن أولئك -أيضًا-: الحفظة الملائكة الكاتبون.

ومن أولئك: مَلَك الموت كما بيَّن الله سبحانه وتعالى في كتابه، إلىٰ غير ذلك مما جاء ذِكْرهم في الكتاب والسنة. فنحن نؤمن بهم إجمالًا ونؤمن تفصيلًا بمن عُيِّن لنا في الكتاب والسنة.

وانتبه -يا رعاك الله- إلىٰ أن ثمة أسماء لم تثبت مع كونها منتشرة، من ذلك تسمية مَلَك الموت بعزرائيل، هذا لم يثبت به حديث فضلًا عن أنه لم يَرِد في كتاب الله، إنما سماه الله عز وجل مَلَك الموت، وهكذا جاء عن النبي ﷺ تسميته بملك الموت.

كذلك تسمية خازن الجنة برضوان، هذا -أيضًا- لم يصح فيه حديث عن النبي ﷺ.

ثالثًا: الإيمان بما ثبت عندنا في الكتاب والسنة من صفاتهم، وقد علمت -يا رعاك الله- بعضًا مما بيَّن الله عز وجل من صفاتهم، وأن لهم أعضاء، وأن لهم أيدٍ،

وأن لهم قلوبًا كما أن لهم أجنحة، ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ [فاطر:١].

ورأى النبي ﷺ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على هيئته التي خلقه الله عليها وله ستمائة جناح سد بها الأفق، إلى غير ذلك مما جاء في النصوص.

أيضًا أن الله عَزَّ وَجَلَّ أعطاهم القدرة على التشكل، فإنهم يتشكلون في صور مختلفة، فقد جاء هذا في عدة أحاديث عن النبي ﷺ، ومن ذلك جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه جاء في حديث جبريل المشهور على صفة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، إلى غير ذلك مما جاء في هذا الباب.

الأمر الرابع: الإيمان بما علمنا من أعمالهم. الملائكة عليهم الصلاة والسلام - كما ذكرت- عباد مأمورون يطيعون الله ولا يعصونه، والله عَزَّ وَجَلَّ يدبر بهم شؤون هذا الكون، قال سبحانه: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقٗا ٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرٗا ٥﴾ [النازعات:١-٥]، الصحيح أن هذه الأوصاف الخمسة هي أوصاف للملائكة عليهم الصلاة والسلام.

هم النازعات غرقًا، النازعات في قول أكثر المفسرين: أنهم الذين ينزعون أرواح الناس، النازعات غرقًا يعني: بقوة وشدة.

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطٗا ٢﴾ [النازعات:٢] النشْط الأرجح من كلام المفسرين في هذه الآية: أنه سَلُّ الروح بالرفق، وعليه فتكون الآية الأولى متعلقة بعمل الملائكة الذي هو قبض أرواح الكافرين بقوة، والآية الثانية: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطٗا ٢﴾ [النازعات:٢] متعلقة بقبض أرواح المؤمنين، فإن ذلك يكون برفق وخفة.

ومن أهل التفسير من عكس الأمر، جعل النازعات في قبض المؤمنين، والناشطات في قبض الكافرين.

قال: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣﴾ [النازعات:١-٣]، هم السابحات، فهم يسبحون في الهواء، يصعدون ويهبطون بأمر الله ﷻ، ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَ﴾ [مريم:٦٤].

كذلك: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤﴾ [النازعات:٤] يسابقون إلىٰ الاستجابة لأمر الله ولا يترددون ولا يتأخرون، ثم قال في وصفهم: إنهم المدبرات أمرًا. ولاحظ أن التنكير هاهنا يفيد التعميم، فهم مدبرات أمرًا، هذا العالم عُلْويُّه وسُفليُّه وما في ظاهره وما في داخله كل ذلك قد وكَّل الله عز جل به من الملائكة من يدبِّر أمره، فهم يعملون فيه بأمر الله ﷻ، فالجبال لها ملائكة، والبحار لها ملائكة، والأمطار لها -أيضًا- من الملائكة من يختص بها، وقل مثل هذا في النبات، وقل مثل هذا في بني آدم، فإن لابن آدم معقبات يحفظونه من أمر الله، وهناك -أيضًا- كَتَبَة عن يمينه وشماله يكتبون حسناته وسيئاته، وهناك من هو موكَّل بالأجنّة، إذا تكون الجنين في بطن أمه ومضىٰ عليه أربعون ثم أربعون ثم أربعون يُرسل المَلَك فينفخ فيه الروح ويؤمر بكتب أربع كلمات: رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد.

وكذلك هناك من الملائكة من هو موكَّل بقبض الأرواح، وأعظم ذلك وأشرفه وأرفعه: المَلَك الذي وكِّل بغياث القلوب والأرواح، ألا وهو وحي الله ﷻ الذي وكِّل به رئيس الملائكة وكبيرهم وهو جبريل عليه السلام.

إذن: الملائكة مُدبِّراتٌ أمرًا، يدبرون شؤون هذا الملكوت عُلْويه وسفليّه.

أيضًا الأمر الخامس: نؤمن بأن الملائكة عدد عظيم وكبير جدًا، ولا يحصيهم إلا الله، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

ويكفي في معرفة عددهم: أن النبي ﷺ أخبر عن البيت المعمور الذي هو في السماء الدنيا، قال النبي ﷺ: «**إنه يدخله كل يوم سبعون ألف ملك يعبدون الله** ﷻ **فيه، ثم يخرجون فلا يعودون إليه آخر ما عليهم**»، يعني: لا يعودون إليه أبدًا، تخيل هذا العدد الهائل، كل يوم يدخل سبعون ألف مَلَك، تخيل في المُدَد المتطاولة الماضية والقادمة كم عدد الأيام التي مرت علىٰ هذه الدنيا منذ خلق الله ﷻ هذا البيت .

إذن: عددهم عظيم جدًا لا يعلم مقداره إلا الله ﷻ.

هذا هو الركن الثاني من أركان الإيمان.

الركن الثالث من أركان الإيمان: الإيمان بالكتب، والمقصود بالكتب: الكتب التي أنزلها الله ﷻ علىٰ أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، وقد أخبر الله ﷻ بأنه أنزل علىٰ هؤلاء الرسل: الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط.

هذه الكتب اشتملت علىٰ ما فيه سعادة الناس في معاشهم وفي معادهم، الكتب اشتملت علىٰ بيان صفات الله سبحانه وأسمائه، ومحبوباته ومبغوضاته، وما فيه من معاد الناس ومآلهم، وما يبشرهم وما يحذرهم، إلىٰ غير ذلك مما فيه سعادة البشرية في العاجل والآجل.

وإيماننا -معشر المسلمين بالكتب- يتضمن الآتي:

أولًا: الإيمان بأن هذه الكتب كلام الله ﷻ تكلم بها حقيقة، فالذي تكلم بالقرآن هو الله لا غيره، ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦] وهو القرآن، وقل مثل هذا في التوراة والإنجيل، كل كتب الله سبحانه وتعالى فقد تكلم الله بها حقيقة.

ثانيًا: نؤمن بما علمنا من أسماء هذه الكتب، والذي علمناه مما جاء في النصوص من هذه الكتب: القرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم وصحف موسىٰ، علىٰ خلاف في هذه الأخيرة هل هي التوراة أو هي صحف أخرىٰ مستقلة؟ خلاف بين أهل العلم في ذلك.

إذن: نؤمن بهذه الكتب علىٰ وجه التفصيل، وثمة كتب أخرىٰ الله ﷻ أعلم بها.

الأمر الثالث: أننا نؤمن بما دل عليه الدليل منها، يعني: مما جاء فيها، من ذلك ما أخبر الله سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم:٣٦-٣٩].

إذن: ما دل الدليل في الكتاب والسنة علىٰ أنه موجود في هذه الكتب علينا التصديق به.

الأمر الرابع: علينا أن نؤمن بأن الناسخ المهيمن لهذه الكتب هو القرآن الكريم. انتبه يا رعاك الله! **هذه الكتب تنقسم إلى قسمين:**

١) قسم يجب التصديق به.

٢) قسم يجب التصديق به والعمل به.

القسم الأول هو جميع الكتب، إلا القرآن فهو وحده القسم الثاني، هناك كتب نصدق بها، نؤمن بها، بمعنىٰ: نؤمن أنها كلام الله، وأننا نُعظّمها ونُقدّرها، ولكننا لا نعمل بها، لم؟ لأننا مكلَّفون باتباع القرآن الكريم، فلها مِنَّا التصديق، أما العمل فهذا حظ القرآن منا، واجب علينا أن نعمل بالقرآن، فالقرآن هو الناسخ لهذه الكتب، وتلك الكتب منسوخة به، ناهيك عما دخلها من تحريف وتغيير وتبديل، هذه الكتب الموجودة بين أيدي أهل الكتاب التي يقولون: إنها كتاب الله ﷻ إليهم، ما يسمونه اليوم -مثلًا- بالكتاب المقدس يحتوي علىٰ العهد القديم -وهو التوراة- والعهد الجديد -وهو الإنجيل- نحن لا نستطيع أن نجزم بأن هذه الكلمة المعينة أو هذه الجملة المعينة أنها كلام الله، لأننا نقطع أنه قد دخل هذه الكتب تغيير وتبديل، الله ﷻ ما تكلف بحفظها؛ كالقرآن، إنما جعل حفظها إلىٰ علماء أهل الكتاب، فدخلها ما دخلها من التحريف والتبديل.

وأما القرآن الكريم فإنه محفوظ بحفظ الله ﷻ، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر:٩]، فمن زعم أن هذا القرآن غُيِّر فيه وبُدِّل حتىٰ لم يَعُد كلام الله ﷻ بكماله وتمامه فلا شك في كفره عند جميع المسلمين.

إذن: هذا ما يتعلق بالركن الثالث وهو ركن الإيمان بالكتب.

الركن الرابع: الإيمان بالرسل.

الرسل هم بشرٌ وإن كانوا أفضلَ البشر، ناسٌ وإن كانوا أعظم الناس، هم

صفوة اصطفاهم الله ﷻ من البشر ورفعهم إلىٰ هذه الدرجة العظيمة، فأوحىٰ إليهم وكلَّفهم بالرسالة.

هؤلاء الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام بشر، وتعترضهم الأعراض البشرية، وهم عِباد لا معبودون، ليس لهم من الربوبية ولا من الألوهية شيء ألبتة، إنما هم عابدون خاضعون لله ﷻ وإن كانوا أعظم العابدين لله.

والإيمان بهم يتضمن ما يأتي:

أولًا: الإيمان بأنَّ الله ﷻ قد أوحىٰ إليهم، وأنه قد خصهم بالنبوة والرسالة، والنبوة والرسالة اصطفاء من الله ﷻ، لا يمكن الوصول إلىٰ ذلك ألبتة مهما عمل الإنسان، بخلاف قول الضالين الذين يزعمون أنه يمكن للإنسان أن يكون نبيًا إذا استعمل أنواعًا من الرياضات النفسية والروحية، أو جوَّع نفسه، أو أكثر التأمل، أو أكثر من الذكر، يمكن أن يرتقي إلىٰ درجة النبوة، ولا شك أن هذا ضلال عظيم.

الحق الذي لا ريب فيه أن النبوة والرسالة اصطفاء من الله ﷻ، ولا يمكن لأحد أن يصل إلىٰ ذلك بعمل يعمله.

لا حظ -يا رعاك الله- أن مذهب أهل السنة في هذا المقام يترتب من أمرين:

الأول -ما ذكرت لك-: أن النبوة اصطفاء من الله.

الأمر الثاني: أن الله ﷻ إنما يصطفي للنبوة والرسالة أَمْثَل البشر، فالله يختارهم علىٰ علم، وهذا هو المذهب الذي يرد علىٰ طرفَيِ الضلال، الذين

يقولون: إنه يمكن أن يصل إنسان إلىٰ النبوة والرسالة بجهده ورياضته، والذين يزعمون -في الطرف الآخر- أنه يمكن أن يُصطفىٰ لهذه المرتبة وينال هذه الفضيلة أيُّ أحد ولو كان أخبث الناس وأفجرهم أولًا ثم يجعله الله ﷻ نبيًا. الأمر ليس كذلك، فالله ﷻ حكيم، ومن حكمته أنه يختار هؤلاء الأنبياء والمرسلين علىٰ علم، فهم بشر وإن كانوا أفضل البشر وأرفعهم، فيهم من الصفات الحسنة والأخلاق المرضية ما يجعلهم مؤهلين لوضع هذا الاصطفاء فيهم، قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام:١٢٤].

ولذا لما قال المشركون: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف:٣١] قال الله: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾ [الزخرف:٣٢] الأمر راجع إلىٰ الله سبحانه وتعالى.

الأمر الثاني: أن نؤمن بأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جمٌّ غفير، بل لم تكن أمة إلا ولها نبي ورسول، ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤﴾ [فاطر:٢٤]، ولكننا لا نعلم من أولئك إلا عددًا يسيرًا، إذا كان النبي ﷺ لم يكن يعلم جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين بأعيانهم فكيف بنا نحن؟ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾ [غافر:٧٨].

إذن: الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام جَمٌّ غفير، علينا أن نـؤمن بمـن سُـمِّي لنا منهم.

والذي تحقق النص عليه في الكتاب والسنة عدد معين، جاء في القرآن منهم

بالنص عليهم بأسمائهم: خمسة وعشرون نبيًا رسولًا، جاء في موضع واحد في الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ [الأنعام:٨٣] ذِكْر ثمانية عشر منهم، والبقية السبعة ذُكِروا في مواضع متنوعة في القرآن. كذلك جاء في سنة النبي ﷺ التنصيص علىٰ بعض من لم يُنص عليه في القرآن.

والسؤال الآن: كم عدد الأنبياء وكم عدد المرسلين؟

جاء في بعض الأحاديث كحديث أبي ذر رضي الله عنه عند ابن حبان في «صحيحه»: أن الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفًا، وأن المرسلين منهم -يعني: الرسل من جملة هؤلاء- ثلاثمائة وثلاثة عشر.

وجاء في حديث أبي أمامة: أن المرسلين ثلاثمائة وخمسة عشر.

وجاءت أحاديث أخرىٰ بخلاف هذا العدد، جاء ثمانية آلاف، وجاء ألف.

والصحيح أن هذا كله ليس مما يمكن الاعتماد عليه، فلم يصح في هذا الباب شيء، هذه الأحاديث وإن اعتمدها بعض أهل العلم وأثبتها إلا أن التحقيق خلاف ذلك، فكل ما جاء في تعيين عدد الأنبياء والمرسلين فإنه ليس بالقوي، وإن كان بعض ذلك له شواهد ومتابعات لكن ذلك لا يرتقي إلىٰ درجة الاعتماد أو الصحة أو الحُسْن.

فالأقرب -والله أعلم- أن نقول: إن عددهم إنما يعلمه الله سبحانه وتعالى، لكننا نقطع أنهم عدد كثير، وأنهم جَمٌّ غفير، والله أعلم كم يكونون.

هذا الأمر الثاني.

الأمر الثالث: أننا نؤمن بالتفاضل فيما بينهم، فالأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام بينهم تفاضل؛ لأن الله ﷻ فاضل بينهم، ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة:٢٥٣]، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥].

إذن: الأنبياء والرسل ليسوا في الفضل علىٰ درجة واحدة، كلهم فاضل وبعضهم أفضل من بعض.

والذي عليه إجماع العلماء: أن الرسل أفضل من الأنبياء، من كان له وصف الرسالة فإنه فاز بوصف النبوة والرسالة معًا، فهم درجة أرفع من بقية الأنبياء.

ثم نقول: إن أولي العزم من الرسل أفضل الرسل، وهم الخمسة الذين بيَّن الله ﷻ أسماءهم، كما قال ﷻ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورىٰ:١٣]، هؤلاء الخمسة أولوا العزم من الرسل، وأفضلهم: الخليلان محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأفضل الخليلين: محمد ﷺ بالإجماع.

إذن: يليه إبراهيم، ثم علىٰ المشهور عند العلماء: موسىٰ، ثم بعد ذلك الخلاف حاصل بين أهل العلم: هل يُفضل عيسىٰ علىٰ نوح أو يُجعلا في مرتبة واحدة؟ البحث في هذا أظن أنه مر بنا.

إذن: هذا مما يجب الإيمان به في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ننتقل بعد ذلك إلى الركن الخامس وهو: الإيمان باليوم الآخر.

الإيمان باليوم الآخر يعني: الإيمان بالحياة الأخروية التي تكون بعد هذه الحياة، فإن الشرع والعقل قد تواردا علىٰ إثبات أن ثمة دارًا آخرة بعد هذه الحياة، لا يمكن في مقتضىٰ العقل أن يوجد هذا الكون بما فيه ثم ينتهي ويضمحل ويتلاشىٰ ولا شيء بعد ذلك، بل لابد أن يكون هناك شيء آخر، لابد من دار يكون فيها جزاء ويكون فيها حساب، ويقتص فيها للمظلوم من ظالمه، ويُجازىٰ الإنسان علىٰ عمله.

إذن: هذا مما توارد عليه الدليل النقلي والعقلي، وأجمعت عليه الرسل وأتباعهم.

الإيمان باليوم الآخر يتضمن الإيمان بثلاثة أمور رئيسة:

أولًا: الإيمان بالحياة البرزخية.

وثانيًا: الإيمان بمواقف القيامة.

وثالثًا: الإيمان بالجنة والنار.

أولًا: الإيمان بالحياة البرزخية، ويتضمن هذا شيئين:

الإيمان بفتنة القبر.

ثانيًا: يتضمن الإيمان بعذاب القبر ونعيمه.

أما فتنة القبر فهي امتحانه واختباره، فإن الإنسان إذا أُدرج في قبره أتاه ملكان، سماهما النبي ﷺ -كما عند «الترمذي» بإسناد صحيح-: المنكر والنكير، وجاء وصفهما بأنهما أسودان أزرقان، فيسألانه الأسئلة الثلاثة التي بنىٰ المؤلف رحمه الله هذه الرسالة علىٰ الإجابة عليها: من ربك؟ ما دينك؟ ما تقول في

هذا النبي الذي بُعِث فيكم؟

ثانيًا: الإيمان بعذاب القبر ونعيمه، وأن القبور تنقسم إلىٰ روضة من رياض الجنة أو حُفْرة من حفر النيران.

والأمر كما قال الناظم:

والموت فاذكره وما وراءه ... فمنه ما لأحد براءة
وإنه للفيصل الذي به ... ينكشف الحال فلا يشتبهِ
والقبر روضة من الجنان ... أو حفرة من حفر النيران
إن يك خيرًا فالذي من بعده ... أكرم عند ربنا لعبده
وإن يكن شرًا فما بعد أشد ... ويل لعبد عن سبيل الله صُد

إذن: لابد من الإيمان بعذاب القبر ونعيمه.

وعذاب القبر يكون لصنفين:

الأول: الكفار، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا في شأن فرعون وقومه: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

ثانيًا: العصاة الذين شاء الله عَزَّ وَجَلَّ تعذيبهم ولم يشأ العفو عنهم، فإن ثمة عصاة سيُعذَّبون في قبورهم، نعوذ بالله من عذاب القبر! تعوذ -يا عبد الله- من عذاب القبر، فإن النبي ﷺ كان يتعوذ من عذاب القبر، وأمر أصحابه بالتعوذ من عذاب القبر.

ومن تلك المعاصي التي تستوجب أو تقتضي عذاب القبر:

أولًا: عدم التنزه من النجاسة، قال ﷺ: «**تنزهوا عن البول، فإن عامة عذاب القبر منه**»، أكثر عذاب القبر من عدم التنزه من النجاسة.

كذلك مما دل الدليل علىٰ أنه يقتضي عذاب القبر: النميمة.

كذلك دل الدليل علىٰ أن الزنا يقتضي عذاب القبر.

كذلك دل الدليل علىٰ أن أكل الربا يقتضي عذاب القبر.

كذلك دل الدليل علىٰ أن النوم عن الصلاة المكتوبة يقتضي عذاب القبر.

كذلك دل الدليل علىٰ أن إسبال الثوب من الخيلاء يقتضي عذاب القبر.

في جملة من المعاصي التي دل الدليل علىٰ أنها تقتضي عذاب القبر. فحذارِ يا عبد الله!

أما نعيم القبر فإنه للموفَّقين السعداء، أهل التقوىٰ والصلاح، الذين خصهم الله ﷻ بفضله ورحمته، فهؤلاء يصبح القبر عليهم نعيمًا، يُفتح لهم بابٌ إلىٰ الجنة فيأتيهم من روحها وريحانها ويؤنسون في القبر، يأتي الإنسان عمله الصالح في أحسن صورة يؤنسه بعد أن يُمد له في قبره مد البصر، نسأل الله ﷻ من فضله!

هذا هو الأمر الأول.

أما الأمر الثاني: فالإيمان بمواقف القيامة.

القيامة، الساعة، القارعة، كل تلك الأسماء وغيرها كثير دل علىٰ أن هناك يومًا عظيمًا سيكون، وهذا اليوم يبدأ بالنفخ في الصور، الله ﷻ قد كلَّف بالصور ملكًا وهو إسرافيل عليه السلام بإجماع العلماء، هذا المَلَك وُكِّل بالصور يَنْفُخُ فيه إذا

أمر الله ﷻ بذلك.

فالصور قرن يُنفخ فيه كما بيَّن النبي ﷺ، فإذا نُفخ فيه قام الناس من قبورهم، هذا هو البعث، يُبعثون ويُنشرون، وتعود إليهم أجسادهم وتتكامل في قبورهم، ثم يُنزل الله سبحانه وتعالى مطرًا كالطل أو كالظل فتنبت هذه الأجسام وتتكامل، ثم إذا نُفخ في الصور قام الناس من قبورهم لرب العالمين، وهيئتهم عند قيامهم أنهم حفاة عراة غرل، حفاة بغير نعال، وعراة بغير ثياب، وغرل بمعنى أنهم غير مختونين، ليس معهم شيء من أمور الدنيا، يعودون إلى الله سبحانه وتعالى وهم خالوا الوفاض، ليس لهم شيء من هذه الدنيا فقد تركوا كل شيء خلف ظهورهم في الدنيا.

يُحشرون بعد ذلك إلى أرض المحشر، ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [إبراهيم:٤٨]، وصف النبي ﷺ هذه الأرض فقال: «**إنها أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها معلم لأحد**»، يُجمعون على هذه الأرض ويقفون موقفًا طويلًا جدًا، مع اشتداد الكرب عليهم، حتى إن الشمس لتدنو منهم حتى تصير منهم على مقدار ميل، يقول سُليم بن عامر راوي الحديث عن النبي ﷺ: «**والله ما أدري، أراد ميل المسافة أو أراد ميل المكحلة**».

المقصود: أنه يشتد الكرب، ويغشاهم العرق بحسب أعمالهم، ويطول مقامهم، ويتمنى الناس أن ينفض هذا الموقف ولو كان المآل إلى النار، نسأل الله السلامة والعافية!

ثم تكون الشفاعة، يذهب الناس إلى الأنبياء، إلى أولي العزم من الرسل

وقبلهم إلىٰ أبيهم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وكُلٌّ يعتذر، حتىٰ يؤتىٰ إلىٰ النبي ﷺ فيقول: «أنا لها» فينطلق فيسجد تحت العرش، ثم يأذن الله عَزَّ وَجَلَّ له في الشفاعة.

كذلك من مواقف القيامة: موقف الحساب، فالله عَزَّ وَجَلَّ يخلو بعبده، ليس بينه وبينه ترجمان ويقرره بذنوبه ويذكره ما نسي منها، ويقول: فعلت كذا يوم كذا وكذا، فعلت كذا يوم كذا وكذا، وكل ذلك يعترف به العبد يقول: «أعرف ربي، أعرف ربي».

كذلك من مواقف القيامة: موقف الوزن، توزن أعمال العباد صالحها وسيئها في ميزان عظيم، جاء عند الحاكم في «المستدرك» وحسن هذا الحديث بعض أهل العلم: إنه يوضع الميزان يوم القيامة، فلو وُضعت فيه السماوات والأرض لوزنته، «فتقول الملائكة: يا رب، لمن يَزِن هذا؟ فيقول: لمن شئت من خلقي. فيقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك».

والناس في هذا الميزان ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

١) منهم من تترجح كفة حسناته، هؤلاء أهل السعادة، إلىٰ الجنة مباشرة.

٢) من ترجحت سيئاتهم علىٰ حسناتهم، وهؤلاء أهل الشقاء، ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾﴾ [القارعة:٦-١٠].

٣) من تساوت حسناته وسيئاته، وهؤلاء الصحيح والذي عليه آثار الصحابة أنهم يوقفون علىٰ الأعراف بين الجنة والنار ما شاء الله أن يوقفوا، ثم بعد ذلك يكون مآلهم إلىٰ الجنة.

ومن مواقف القيامة: الحوض، وهو ما أكرم الله ﷻ به نبيه ﷺ في مواقف القيامة، طوله شهر وعرضه شهر وزواياه سواء، وماؤه أبرد من الثلج وأحلىٰ من العسل، وكيزانه وأباريقه كعدد نجوم السماء، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا، ولم يَسْود وجهه أبدًا.

ومن تلك المواقف -أيضًا-: موقف المرور علىٰ الصراط، وهذا حد فاصل بين أهل السعادة والشقاوة، الذين يمرون علىٰ الصراط صنفان من الناس:

١) المظهرون والمبطنون للإسلام.

٢) المظهرون للإسلام المبطنون للكفر.

وأما المظهرون لكفرهم فهؤلاء يؤخذ بهم إلىٰ النار قبل المرور علىٰ الصراط.

هذا الصراط قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: بلغني أن الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف، يمر عليه الناس بحسب أعمالهم. ويتفاوت مرورهم عليه من حيث النور والظلمة، من الناس مَن يعطىٰ نورًا عظيمًا أثناء مروره علىٰ الصراط والناس جميعًا قبل ذلك في ظلمة دون الجسر، ثم يُعطون أنوارهم بقدر أعمالهم، ومن الناس من نوره عند إبهام قدمه، بل قال النبي ﷺ: «**يضيء تارة ويطفأ تارة**»، وفيما بين ذلك الناسُ بحسب أعمالهم.

كذلك يتفاوتون -ثانيًا- من حيث السرعة والبطء، من الناس من يقضي هذه المسافة ويجتازها علىٰ الصراط كلمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كأجاويد الخيل، ومنهم من يمر كأجاويد الركاب،

يعني: الإبل، ومنهم من يجري، يعدو، ومنهم من يمشي، ومنهم من يزحف، وآخرهم من يُسحب سحبًا، نسأل الله السلامة والعافية!

ومِن الناس من يُخدش ولكنه ينجو، فإن علىٰ الصراط كلاليب وشوك يأخذ أو يخدش من أُمر بخدشه، ولكن هؤلاء يَسْلَمون.

والصنف الثالث تأخذهم هذه الكلاليب والخطاطيف فتلقيهم في جهنم، فإن الصراط منصوب علىٰ جهنم، إذا اجتازه الإنسان نجا من النار، نسأل الله السلامة والعافية!

إذن: الناس منهم من هو ناجٍ مُسلَّم، ومنهم من هو ناجٍ مخدوش، ومنهم من هو مكدوس مكروس في نار جهنم، نسأل الله السلامة والعافية!

أما الأمر الثالث فإنه الجنة والنار، والبحث في الجنة والنار طويل، لكن المهم أن تعلم أنه ينبغي الإيمان بأمرين:

أولًا: أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن.

ثانيًا: أنهما باقيتان لا تفنيان.

عندنا أمران:

الأول: موجودتان مخلوقتان، وليس أنهما تُخلقان يوم القيامة كما يقول ذلك من يقوله من أهل البدع.

والأمر الثاني: أنهما باقيتان لا تفنيان، هما ومن كان فيهما من أهلهما الذين هم أهلهما.

هذا ما يتعلق باختصار بالإيمان باليوم الآخر.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَدَلِيلُ القَدَرِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر:٤٩].

الشَّرح

الركن السادس وهو: الإيمان بالقَدَر، وهو الذي استدل عليه المؤلف بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر:٤٩].

والإيمان بالقدر يعني: الإيمان بأن الله ﷻ عَلِم كل شيء أزلًا وأبدًا، وكتب في اللوح المحفوظ كل ما سيكون إلىٰ قيام الساعة، وشاء ذلك وخَلَقه.

إذن: هذه أمور أربعة يتلخص فيها المبحث الأهم في الإيمان بالقدر.

المرتبة الأولى: مرتبة العلم، فيؤمن المسلم بأن الله ﷻ متصف بالعلم الواسع الشامل لكل شيء، فهو قد عَلِم ﷻ بهذا العلم كل شيء مما كان في الماضي، أو هو كائن في الحاضر، أو ما سيكون في المستقبل، بل حتىٰ ما لم يكن لو كان كيف يكون، سواء أكان ذلك من الممكنات أو من المستحيلات، كل ذلك عَلِمَهُ الله ﷻ بعلمه الأزلي الذي هو صفة ذاتية ملازمة لذات الله ﷻ، فيستحيل أن يكون غير عليم ﷻ، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧].

والمرتبة الثانية: أن الله ﷻ كتب في اللوح المحفوظ كل ما سيكون قبل خلْق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وإلىٰ قيام الساعة، كل ما بين هـذين فقد كتبه الله ﷻ في اللوح المحفوظ، سواء أكان شيئًا جليلًا أو شيئًا دقيقًا، كل ذلك

مكتوب، قال النبي ﷺ: «إنَّ الله كتب مقادير كل شيء قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء».

والمرتبة الثالثة: مرتبة المشيئة، بمعنىٰ: أن يؤمن المؤمن بأن الله ﷻ شاء كل ما سيكون، وأن كل ما لم يكن إنما عدم كونه؛ لأن الله ﷻ ما شاءه، ولو شاءه لكان، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فالمشيئة هي الموجبة للأشياء، والله ﷻ يقول: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير:٢٩].

ما شئتَ كان وإن لم أشأ ... وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن

الشيء الذي شاءه الله ﷻ فإنه يقع عقيب مشيئته، لا يمكن أن يتخلف ذلك.

المرتبة الرابعة: مرتبة الخلق، فيؤمن المؤمن بأن الله ﷻ قد خلق كل شيء، سواء أكان من الذوات والأعيان، أو كان من الصفات والأفعال، كل شيء قد خلقه الله ﷻ، وليس ثمة موجود إلا خالق ومخلوق، واللهُ وحده الخالق، **إذن:** كل ما سواه فهو مخلوق، ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [فاطر:٣]، ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ﴾ [الزمر:٦٢].

إذن: هذا هو الأمر الأهم الذي يجب الإيمان به في هذا الركن، وثمة تفصيلات كثيرة ومباحث شتىٰ تتعلق بهذا الموضوع.

المقصود: أنَّه لابد من أن يؤمن الإنسان بهذا القَدْر، وهو أن كل شيء إنما يكون عن علم، وكل شيء سيكون أو هو كائن فإنه إنما كان عن علم الله ﷻ وكتابته ومشيئته وخلْقه، لولا مشيئة الله ﷻ ما كان، والله سبحانه قد يشاء ما

لا يحب، وقد يحب ما لا يشاء، وله الحكمة البالغة في هذا وهذا.

وينبغي علىٰ العبد إذا وصل إلىٰ هذا القَدْر من البحث أن يوغل برفق، وأن لا يخوض الخوض المذموم في هذا الباب، فإن مِن الناس مَن يتعمق بغير هدىٰ من الله ﷻ ويَلِج إلىٰ أبواب كان الذي ينبغي الكف عنها ثم تكون العاقبة غير حميدة، وهذا ما أرشد إليه النبي ﷺ بقوله: «وإذا ذُكِر القدر فأمسكوا»، الإمساك عن غير الوارد في النصوص، فثمة شيء وراء علم الناس حجب الله ﷻ علمه عنهم، يجب عليهم أن يمسكوا عنه، وهذا الذي قال فيه السلف: القَدَر سرُّ الله فلا نكشفه.

ومن ذلك بل من أهم ما ينبغي الإمساك عنه: البحث والتنقير في العلة والحكمة في كل شيء يكون، في كل ما يقدره الله، في كل ما يفعله سبحانه، لِمَ فعل؟ وما الحكمة؟ وما المصلحة من وراء ذلك؟ هذا بحث ينبغي أن يتريث فيه الإنسان كثيرًا، إن ظهرت الحكمة وبانت فالحمد لله، وإلا فالمؤمنون يستدلون علىٰ ما جهلوا بما علموا، علموا علمًا يقينيًا قطعيًا أن الله ﷻ متصف بالحكمة، وعليه؛ فمتىٰ لم تظهر الحكمة لهم في شيء معين فإنهم يستدلون بما علموا من الأمر القطعي والأصل المتقرر علىٰ هذا الجزئي الذي ما عرفوا وجه الحكمة فيه، والأمر كما قال أبو العباس رحمه الله الشيخ تقي الدين:

وأصل ضلال الخلق من كل فرقة ... هو الخوض في فعل الإله بعلة

فإنهمُ لم يفهموا حكمة له ... فصاروا علىٰ نوع من الجاهلية

هذا باختصار ما يتعلق بأركان الإيمان الستة.

وقلنا: إن مراتب الدين ثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان، وهو ما سنتكلم عنه قريبًا إن شاء الله.

يبقىٰ النظر بعد ذلك في البحث في الفرق بين الإسلام والإيمان، وهذا الموضوع فيه بحث طويل، لكن التحقيق والخلاصة فيه:

أن هذا الموضوع يُنظر إليه من جهتين:

١) من جهة الإيمان والإسلام من حيث هما.

٢) من جهة أهلهما.

أما من حيث هما فإن هاتين الكلمتين إذا اجتمعتا افترقتا، وإذا افترقتا اجتمعتا.

إذا افترقتا فيُطلق الإيمان علىٰ الإسلام والإسلام علىٰ الإيمان، وذلك كله هذا الدين ظاهره وباطنه، بكل شُعَبه وأركانه، وبكل ما أمر الله سبحانه وتعالى به أمر إيجاب أو استحباب، كل ذلك داخل في الإسلام أو في الإيمان.

أما إذا ذُكِرا سويًا في سياق واحد فإنهما يفترقان، فيفسر الإيمان بـ: الدين الباطن، ويُفسر الإسلام بـ: الدين الظاهر، وعليه؛ هذا الذي ينبغي اعتماده، وهذا ما دلت عليه الأدلة، وله شواهد كثيرة في النصوص، لكنني أترك الكلام فيها رغبة في الإيجاز.

أما بالنظر إلىٰ أهل كُلٍّ من الإيمان والإسلام فأهل الإيمان وأهل الإسلام إذا نُظِر إليهما من حيث هذا الوصف -الوصف بالإيمان والوصف بالإسلام-

فالإيمان حينئذٍ أخص من الإسلام، والإسلام أعم من الإيمان، بمعنىٰ: أن كل مؤمن فهو مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا، هذا إذا نُظِر إلىٰ الموضوع من زاوية أهل كُلٍّ من الإيمان والإسلام، فمرتبة الإيمان أرفع، ويصل إليها من حقق الإسلام الذي هو أصل الدين ثم ارتقىٰ بعد ذلك إلىٰ فِعْل ما أوجب الله وترك ما حرم الله، فَعَل كل ما أوجب الله وكفَّ عما حرم الله، فهذا هو الذي أتىٰ بمرتبة الإيمان.

وأما مرتبة الإحسان فهي أرفع من ذلك وأرفع، فهي أخص من الإيمان من هذه الجهة، وعليه؛ كل محسن فهو مؤمن وبالتالي أيضًا مسلم، وليس كل مؤمن محسنًا فضلًا عن أن يكون كل مسلم محسنًا.

هذا باختصار فيما يتعلق بهاتين المرتبتين.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحْسَانُ -رُكْنٌ وَاحِدٌ-، وَهُوَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل:١٢٨].

الشَّرح

هذه هي المرتبة الثالثة وهي مرتبة الإحسان، ويا سعادة من نالها!

الإحسان مرتبة أو ركن واحد كما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو ما جاء صريحًا في حديث جبريل المشهور، قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

من بلغ هذه المرتبة بلغ غاية السعادة؛ لأنه ينال معية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أليس هو الذي قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل:١٢٨]، الله عَزَّ وَجَلَّ مع جميع خلقه بعلمه وإحاطته وقدرته، وسمعه وبصره، وما إلىٰ هذه المعاني، لكن هؤلاء لهم شأن آخر، لهم معية أخص، فالله عَزَّ وَجَلَّ معهم -أيضًا- بتأييده ونصره ورعايته وهدايته وتوفيقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فأيُّ توفيق وسعادة أعظم من ذلك؟

مرتبة الإحسان مرتبة سهلة بالكلام والدعوىٰ، لكنَّها من حيث القيام بها لا شك أن المقام صعب إلا علىٰ من يسر الله عَزَّ وَجَلَّ عليه، هذا المقام يحتاج إلىٰ قَدْر كبير من المجاهدة، أن يجاهد الإنسان نفسه.

حقيقة هذه المرتبة هي تكميل مرتبتَيِ الإيمان والإسلام، إذا أردت أن تعرف ما الإحسان فاعلم أن الإسلام هو: الدين الظاهر، والإيمان هو: الدين الباطن، وتكميلهما هو الإحسان، بلوغ الدرجة العليا من الإتقان والقيام بما أمر الله ﷻ به باطنًا وظاهرًا هو الإحسان، وهذا يتفرع إلىٰ مرتبتين كما بيَّن النبي ﷺ، الأولىٰ قال فيها: «أن تعبد الله كأنك تراه»، هذه هي مرتبة المشاهدة، يعني: أن تعبد الله كأنك تنظر إلىٰ الله ﷻ، ومعلوم عندكم أنه لا يمكن لأحد رؤية الله ﷻ في الدنيا، قال ﷺ: «تعلَّموا أنكم لن تروا ربكم حتىٰ تموتوا»، إنما المقصود هاهنا أنه لما قام بهذا المحسن قَدْر عظيم من محبة الله ﷻ وعبوديته فإنه صار عنده من الإيقان بالله ﷻ ما جعله بمثابة الناظر إليه، كأنه ينظر إلىٰ الله ﷻ لعظيم إخلاصه وإنابته وإيقانه بالله ﷻ، فصار يعبد الله ﷻ وهو كأنه ينظر إليه، وحدث ولا حرج عن حال هذا العابد الذي يعبد الله وكأنه ينظر إليه، كيف سيكون عمله وكيف ستكون عبوديته لله ﷻ حينئذٍ؟ لا شك أنها متصفة بغاية الكمال والإتقان والمراقبة والرجاء والخوف من الله ﷻ.

المرتبة الثانية دون الأولىٰ وهي مرتبة المراقبة، قال: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، إن لم تصل إلىٰ هذه المثابة من عظيم التصديق والإيقان والمحبة والشوق إلىٰ الله ﷻ فإن دون ذلك مرتبة وهي: أن تعبد الله ﷻ وأنت تستحضر مراقبته لك، «فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وإذا كان الإنسان علىٰ مرأىٰ ومسمع من إنسان مثله، لكنّ له جلالة وله قَدْر، وهذا يحبه ويجله وهو ينظر إليه، كيف تجد حركاته وسكناته؟ ألا يكون مُتَّئِدًا؟

ألا يكون حريصًا على أن لا يصدر منه إلا كل جميل؟ فكيف إذا كان الإنسان يستحضر مراقبة الله ﷻ؟ وأن الله ﷻ يراه ويسمعه ويعلم حاله في كل لحظة وفي كل حركة وفي كل سَكَنة، أليس ذلك أولى أن يكون العبد حينها على قَدْر من الإتقان والتكميل لعبودية الله ﷻ؟ لا شك أن الأمر كذلك.

إذن: أهل هذه المرتبة متفاوتون، أهل الدرجة العليا منها هم أهل المشاهدة، وأهل الدرجة الدُّون -وليس فيهم دون- أهل درجة المراقبة. نسأل الله ﷻ من فضله!



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء:٢١٧-٢٢٠].

الشَّرْح

تأملوا في هذه الآية، ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء:٢١٨-٢١٩] علىٰ أيِّ الدرجتين دلت هذه الآية؟ دلت علىٰ الدرجة الثانية التي هي درجة المراقبة.

إذن: هذه الآية دليل.. ونوع الدلالة هنا دلالة تضمن، لأنها دلت علىٰ بعض الإحسان الذي هو درجة المراقبة، فصح الاستدلال بها لأنها دلت علىٰ بعض معنىٰ الإحسان، وهذه دلالة التضمن.



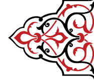
قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ الآية [يونس:٦١].

الشَّرح

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس:٦١] القول في هذه الآية كالقول في سابقتها، هذه وتلك تدلان على درجة المراقبة، «فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس:٦١].



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: 

وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: حَدِيثُ جِبْرِيلَ الْمَشْهُورُ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ، شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لا يُرَىٰ عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّىٰ جَلَسَ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ!

أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ؟

فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الإِسْلامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا اله إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: صَدَقْتَ. -فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ-.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ؟

قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قَالَ: صَدَقْتَ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ؟

قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟

قَالَ: مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟

قَالَ: أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَىٰ الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ، يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ.

قَالَ: ثم انطلق فلبثت مليًا، ثم قال لي: يا عمر! أتدري من السائل؟ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فإنه جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينكُم».

الشَّرْح

هذا حديث عظيم، حديث جبريل عليه السلام مشهور بهذا الوصف: حديث جبريل المشهور، رواه ابن عمر عن أبيه عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أصل عظيم لمسائل كثيرة في الدين، فقد دل على مرتبة الإسلام ومرتبة الإيمان ومرتبة الإحسان، كما دل على جملة من أشراط الساعة التي هي علاماتها التي تدل على قُرْب وقوعها.

والشاهد من إيراد المؤلف رحمه الله هو الاستدلال على المراتب الثلاث التي سبق الكلام عنها.





الأصل الثالث

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

الأَصْلُ الثَّالِثُ

مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ -عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلامِ-.

الشَّرح

انتقل المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ الأصل الثالث، بنىٰ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ -كما قد علمنا- هذه الرسالة علىٰ الجواب عن الامتحان العظيم الذي سيمر به كل واحد منا، امتحان سيكون تحت الأرض لا فوق الأرض، امتحان في القبر، يُسأل الإنسان عن سؤال معروف وجوابه معروف، وأنت فوق الأرض يمكن أن تعرف هذا السؤال ويمكن أن تعرف الجواب، لكن الشأن في النجاح إنما هو القيام بحق هذه الأسئلة علمًا وعملًا، يمكن أن يحفظ الإنسان الأسئلة والأجوبة ويرددها حتىٰ يتقنها، لكن هذا ليس بكافٍ في أن ينجو الإنسان من هذه المحنة العظيمة

التي سيلقاها الإنسان في قبره، إنما إذا أردت النجاح في هذا الابتلاء وفي هذا الامتحان فلابد من القيام بهذه الأجوبة من جهة الاعتقاد ومن جهة العمل.

الأسئلة الثلاثة: من ربك؟ ما دينك؟ ماذا تقول في هذا الرجل الذي بُعِث فيكم؟

والمؤلف ﵀ أراد النصيحة لإخوانه المسلمين، فلخص لهم جُمَلًا تدلك علىٰ الطريق السديد المختصر الذي يوصل إلىٰ الجواب الصحيح، فتعرف من ربك معرفة صحيحة، وتعرف ما دينك معرفة صحيحة، ثم انتقل بعد ذلك إلىٰ معرفة النبي محمد ﷺ.

نبينا ﷺ نبوته، بعثته، رسالته من أعظم النِّعم علىٰ الناس جميعًا، ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران:١٦٤]، نعمة وأيُّ نعمة؛ لأن النفوس كلها مظلمة إلا ما أشرقت عليه شمس النبوة، فالنبي ﷺ نعمة عظيمة، حاجة العباد إلىٰ بعثته أعظم من حاجتهم إلىٰ كل شيء، بل أعظم –واللهِ– من حاجتهم إلىٰ الطعام والشراب بل والنَّفَس، هذه الأمور بها حياة البدن، لكن الشأن في حياة الروح، وحياة الروح محصورة وموقوفة علىٰ الاستجابة لرسول الله ﷺ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤]، هذه هي الحياة الحقيقية التي تنفع صاحبها.

إذن: نبـوة النبـي الكـريم ﷺ نعمـة وأيُّ نعمـة، فالحاجـة ماسـة جـدًا إليهـا، والنجاة معلَّقة بها، لا يمكن أن ينجو إنسان منذ بعثته عليه الصلاة والسلام وإلىٰ قيام الساعة حتىٰ يكـون مـن أتباعـه عليه الصلاة والسلام، وإلا فـوالله الضـلال، وإلا فـوالله الخيبـة، وإلا فـوالله الخسارة، النجاة محصورة فقط في اتباع النبي الكريم محمد ﷺ، هذا فقط الذي ينجو، «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبىٰ» يعني: من أهل النار.

نبوة النبي ﷺ من أظهر الأشياء وأوضحها وأجلاها، والأدلـة عليهـا كثيـرة جدًا، حتىٰ قال بعض أهل العلم: إنه قد دل علىٰ نبـوة النبـي ﷺ أكثـر مـن ألـف دليل. أكثر من ألف دليل دلت علىٰ صحة نبوته، وأنه صادق في كونـه رسـولًا مـن عند الله عز وجل.

والعلماء في هذا المقام يقسمون هذه الأدلة إلىٰ مجموعات تحت أدلة عامة:

الدليل الأول هو: دليل المعجزات، يعنـي: الآيـات والبراهـين الحسـية التـي أجراها الله تبارك وتعالى علىٰ يدي نبيه عليه الصلاة والسلام، وهذه كثيرة جدًا، والعلـم بهـا يضـطر صـاحبه إلىٰ الإقرار بأنه نبي صـادق مرسَـل مـن عنـد الله، لأن حصـول هـذه الأشـياء التـي أعجزت الجن والإنس مع كونه ﷺ يقول: إنه رسول من عند الله؛ هـذا لا يكـون إلا إذا كان حقًا رسولًا من عند الله، لا يمكـن أن يكـون كاذبًا مفتريًا علىٰ الله ثـم تجري علىٰ يديه عليه الصلاة والسلام هذه الآيات المعجزة العظيمة، بل هذا تأييد لكونـه رسـولًا من عند الله.

ولذا لما طلب المشـركون –أعنـي: مشـركي قـريش– مـن الرسـول ﷺ آيـة،

وكانت هذه الآية هي انشقاق القمر، وإذا بالقمر ينشق فيصبح قطعتين، انشقاق حقيقي، قطعة ذهبت هنا وقطعة ذهبت هنا حتىٰ رُئِي الجبل فيما بينهما، ثم قال النبي ﷺ: انظروا، هذا الذي طلبتم من الآيات، ثم يعود القمر فيلتصق مرة أخرىٰ، لا يمكن أن يجري هذا إلا علىٰ يدي رسول صادق، الله ﷻ أيَّده بهذه الآية.

وقل مثل ذلك في الآيات الأخرىٰ أن يسبح طعام بين يديه، أن يسلِّم عليه حجر، أن يحِنَّ إليه جذع، أن يتحرك الشجر بأمره عليه الصلاة والسلام ثم يعود بأمره عليه الصلاة والسلام، إلىٰ آيات كثيرة، يفور الماء بين أصابعه عليه الصلاة والسلام، يُكثَّر الطعام ببركة دعائه عليه الصلاة والسلام، في سلسلة طويلة من هذه المعجزات كلها دليل قاطع علىٰ أنه رسول من عند الله ﷻ حقًا.

ودليل آخر وهو: القرآن الكريم، لو لم يكن للنبي ﷺ من آية تدل علىٰ صدقه إلا هذا القرآن الكريم لكان -واللهِ- كافيًا، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت:٥١] بلىٰ والله كافٍ يا رب.

ماذا يقول الإنسان في هذه الآية العظيمة التي أعجزت البشرية جميعًا، بل الجن والإنس قاطبة، تحداهم الله ﷻ في هذا القرآن أن يأتوا بمثله، أن يأتوا ببعضه، أن يأتوا بسورة من مثله ولو من أقصر السور، ومع ذلك واللهِ هم عاجزون، قرآن أعجز الثقلين، أعجزهم من جهات كثيرة، من جهة البلاغة والفصاحة، من جهة التلاوة والقراءة، من جهة القراءات، من جهة ما تضمنه من

أدوية وإصلاح للقلوب، من جهة ما تضمنه من سعادة الناس في الدنيا والآخرة، من المعاني الجليلة التي اشتمل عليها، أوجهٌ كثيرة تدل علىٰ أنه كلام الله ﷻ حقًا، تحدىٰ الله ﷻ به الخلائق أجمعين، ألا يدل ذلك علىٰ أنه رسول من عند الله حقًا؟ بلىٰ واللهِ.

لا يوجد أحد يقرأ هذا القرآن يريد بذلك الوصول إلىٰ الحق، يتجرد من الأهواء، إلا وإنه واللهِ سيصل إلىٰ أنه كلام الله حقًا، وأن الذي جاء به رسولٌ من عند الله حقًا.

الدليل الثالث: دليل الإخبار بالمغيَّبات. كون النبي ﷺ يخبر بأشياء لم تقع أنها ستقع هذا دليل بيِّن علىٰ أن نبوته حق، وهذا من جهتين:

أولًا: من جهة وقوع ما أخبر به، فهذا دليل علىٰ أن هذا الرسول صادق، وأنه إنما تكلم عن وحي من الله الذي يعلم ما سيكون، فهو إذن صادق عليه الصلاة والسلام.

خذ مثلًا علىٰ هذا: لما كان الاقتتال والحروب التي كانت بين الفرس والروم، كان المسلمون يحبون انتصار الروم؛ لأنهم في الجملة أهل كتاب، وكان المشركون يحبون انتصار الفرس؛ لأنهم وثنيون، أنزل الله ﷻ قوله تعالىٰ: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾﴾ [الروم:٢-٣] ليس هذا فقط، بل مع تحديد المدة التي سيكون فيها هذا الأمر، قال: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الروم:٤]، والبضع عند العرب من الثلاث إلىٰ التسع.

هذا الكلام لو لم يكن الرسول ﷺ صادقًا في كونه رسولًا من عند الله واللهِ

لكان كافيًا في إبطال دعوته ﵇ لو لم يتحقق، ومع ذلك فالنبي ﷺ أخبر به فكان ما أخبر به، بعد تسع سنوات من نزول هذه الآيات ينتصر الروم، ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾ [الروم:٣] استتمت تسع سنوات وإذا بالنصر قد حصل، تحقق ما أخبر به النبي ﷺ.

الأمر الثاني: كونه يخبر بهذا أصلًا هذا كافٍ في كونه رسولاً، يعني: وقوع ما أخبر به دليل، وكونه يخبر بذلك دليل آخر، يعني: كون النبي ﷺ قد أخبر أنه رسول من عند الله ثم يذكر لهم دليل كونه رسولًا فيقول: سيقع كذا، سيقع كذا، لا يوجد عاقل عنده أدنىٰ حدٍ من العقل لا يمكن أن يجرؤ علىٰ ذلك، لو كان كاذبًا لم يجرؤ علىٰ ذلك، لم؟ لأنه سيفتضح؛ لأنه ستسقط دعوته بالكلية لو لم يحصل ذلك، وإذا كان كاذبًا فلا شك أنه طالب لمآرب، وبالتالي ستذهب هذه المآرب والمنافع، فما الذي يلجئه إلىٰ هذا؟ العاقل يُحْجِمُ عن ذلك، لو كان يدَّعي دعوىٰ كاذبة لكان يكفُّ عن هذا، لكن النبي ﷺ كان يخبر بمغيَّبات وربما حدد وقتها، هذا لا يمكن أن يكون إلا إذا كان رسولًا من عند الله ﷻ حقًا.

وقد تكلمنا علىٰ مثل هذا الموضع، تأمل -مثلًا- في قوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٩٤﴾ [البقرة:٩٤] الآية موجهة إلىٰ اليهود، ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٦﴾ [الجمعة:٦].

في البقرة قال ﷻ: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا﴾ [البقرة:٩٥] عجيب! تأبيد، هؤلاء الذين

تحداهم النبي ﷺ، لن يتمنوه، ليس فقط الآن، أبدًا، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة:٩٥].

وفي آية الجمعة قال: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًا﴾ [الجمعة:٧]، عجيب! لو كان هذا الكلام قد تلاه علينا غير نبي ثم جاء أحدٌ من هؤلاء اليهود، واحد فقط وقال: أنا أقول لكم -ولو كذبًا-: أنا أتمنىٰ الموت، ماذا يحصل؟ تسقط دعوة هذا الإنسان تمامًا، ومع ذلك ما تجرأ أحدٌ، واحد فقط والمقام مقام تحدٍ مع اليهود، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ [الجمعة:٦] خطاب تحد لهم، تمنوا الموت إن كنتم صادقين، أنتم تقولون: أنكم أبناء الله وأحباؤه، وأن لكم خاصية عند الله، وأن الدار الآخرة لكم، تمنوا الموت، ألا يستطيعون عقلًا في قدرتهم أن يتمنوا الموت ولو ظاهريًا؟ واللهِ نعم، لكنه ما كان، لم؟ لأن الله علم أنه لن يكون، ولأن قلوبهم بيد من أنزل هذا الكلام سبحانه وتعالىٰ.

فهذه آية عظيمة علىٰ نبوة النبي ﷺ، لا من حيثُ أنه قد وقع ما أخبر به وأنهم لن يتمنوه، ولا من حيث كونه تكلم أصلًا بهذا الكلام.

وقل مثل هذا في قوله تعالىٰ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢﴾ [المسد:١-٢] ماذا؟ ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ٣﴾ [المسد:٣] ما معنىٰ هذا؟ يعني: أنه سيبقىٰ علىٰ كفره إلىٰ الموت ثم يصلىٰ نارًا ذات لهب؟

قد أخبرتُكم بقصة أحد الكفار، وهو رجل دكتور في بعض العلوم العصرية، وجاء هنا إلىٰ المملكة فترة من الفترات بعد إسلامه، كان باحثًا عن الحق، وأخذ

ترجمة معاني القرآن وبدأ يقرأ يقرأ يقرأ، إلىٰ أن وصل إلىٰ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد:١] لما قرأها أغلق المصحف وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

هذه السورة هي التي أثَّرت فيه، ما السبب؟ يقول: هذه الآية نزلت وأبو لهب حي، والتحدي قائم بين النبي ﷺ والمشركين، والمشركون يسعون بكل وسيلة لتكذيبه، كان يستطيع أبو لهب أن يأتي أمام الناس ويقول: انظروا إلي، أنا أبو لهب وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، لو كذبًا ومع ذلك ما فعل، ولو كان غير رسولٍ من عند الله واللهِ ما تجرأ هذه الجرأة ولأبطل دعوته بشيء محتمل، يمكن أنه يُسْلِم ، ما يدري، يعني: لو كان غير رسول لكان يمكن أن يسلم، عقلًا الأمر ممكن، لكن الله ﷻ الذي أوحىٰ بهذا القرآن علم ﷻ أن هذا الرجل لن يسلم.

إذن: الإخبار بالمغيَّبات من أعظم البراهين والدلائل علىٰ صدق نبوة النبي ﷺ.

عندنا دليل رابع وهو الذي يسميه العلماء بدليل الأحوال، أحوال النبي ﷺ من تأملها فإنه سيقطع بأنه رسول من عند الله صادق، فقط لو نظرت إلىٰ حاله وأخلاقه وشمائله وكريم صفاته عليه الصلاة والسلام واللهِ إن في هذا لدليلًا ناصعًا علىٰ أنه رسول من عند الله.

وقد أشار إلىٰ هذا قوله تعالىٰ: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ [يونس:١٦] تعرفونه باسمه ونسبه، ومدخله ومخرجه، تعرفونه في صغره، تعرفونه في شبابه، تعرفون كل أحواله، أنتم تدركون أنه صادق لأنكم ما علمتم عنه كَذِبة

واحدة علىٰ مخلوق، فكيف يكذب علىٰ الخالق؟

قلنا: النبوة لا يدَّعيها إلا أتقىٰ الناس أو أفجر الناس، ما يمكن يأتي شخص إلا أحد هذين: إما أن يكون في غاية السمات الرفيعة، وقلنا سابقًا: النبوة عند أهل السنة والجماعة ينظر إليها أهل السنة والجماعة من جهتين:

أولًا: من كونها اصطفاءً من الله، لا يمكن أن يوصَل إليها بأيِّ حال من جهة الاكتساب والرياضة وما إلىٰ ذلك، هذا مستحيل، هي اصطفاء من الله، ومع ذلك الله يصطفي أمثل الناس لها، ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

إذن: هذه النبوة لا يمكن أن يدَّعيها إلا أحد رجلين: إما أن يكون أصدق الناس، وإما أن يكون أكذب الناس وأفجرهم.

والسؤال: هل التفريق بين أصدق الناس وأبرِّهم وأكذب الناس وأفجرهم أمر عسير؟ نحن في مجتمعنا، أنت فيمن حولك ، هل من الصعوبة أن تعرف أن فلانًا صادق بل هو أصدق ما يكون، وفلان كاذب فاجر خبيث؟ الأمر صعب أو الأمر متيسر؟

إذن: هذه النبوة لا يدَّعيها إلا أصدق الناس فيكون صادقًا، أو أكذب الناس فيكون كاذبًا، والنبي ﷺ بإجماع محبيه ومبغضيه من الكفار يشهدون بأنه كان الصادق البار عليه الصلاة والسلام، فكيف بعد ذلك يُتَّهم في أنه يكذب علىٰ الله عز وجل؟

الأمر الخامس: دليل الشريعة نفسها، الوحي والشريعة والدين الذي جاء به النبي ﷺ وحده كافٍ بأنه صادق عليه الصلاة والسلام، من تأمله وما تضمنه من الدلالة علىٰ

الخير والهدىٰ والرشاد والسعادة في الدنيا والآخرة فإنه يجزم أن هذا مُنْزَلٌ من عند الله، مستحيل أن يكون من لدن بشر، مهما بلغ هذا البشر من الذكاء والعبقرية، مستحيل، هذه الشريعة بهذا التفصيل الدقيق المشتمل علىٰ كل ما فيه خير وسعادة وموافقة للعقل وموافقة للفِطَرِ مستحيل أن تكون من عند بشر.

الناس اليوم إذا أرادوا أن يضعوا قانونًا في جزئية يسيرة تتعلق بأمور بيع وشراء أو تنظيم دراسة وتعليم أو ما يتعلق بالمصارف أو غير ذلك من أمور الناس ماذا يصنعون؟ يشكلون لجنة عليا ولجنة تنفيذية، ويبحثون عن أذكىٰ الناس، ثم لجنة تتلوها لجنة، وتصحيح بعد تنقيح، وهلم جرًا، ثم بعد سنة أو سنتين يكتشفون أن النظام فيه مشكلة أو في مفسدة تترتب علىٰ تطبيقه فيعدلونه، وهو في جزئية يسيرة.

يا أيها العقلاء، هذا الدين نظَّم كل شيء: علاقة الإنسان بربه، علاقة الدول بعضها ببعض، علاقة الراعي بالرعية والرعية بالرعاة، علاقة الإنسان مع نفسه، علاقة الإنسان بغيره، أحكام كل شيء، لا تستثني شيئًا، كل قضية في هذه الحياة فالإسلام نظمها تنظيمًا بديعًا يعود علىٰ الفرد والجماعة بالخير، بيع، شراء، مزارعة، صناعة، نكاح، طلاق، رضاعة، إجارة، جوار، علاقة أبوَّة، علاقة بُنوَّة، كيف يأكل الإنسان ويشرب وينام ويلبس حذاءه ويقضي حاجته، عجيب! كل شيء بهذا التفصيل، ليس فقط كلام مجمل، لا، تفصيل دقيق جدًا، يتعجب الإنسان أمامه، أيمكن أن يكون هذا من بشر؟ واللهِ لا يكون إلا من رب البشر الذي يعلم ما يصلِح الناس، ولذلك كان دينًا عجيبًا يتوافق مع الفِطَر، يتوافق مع

العقول، ليس فيه تناقض، ليس فيه اختلاف، لا يصيبه المعتنق بالتشتت والضياع والاضطراب.

السكينة، الراحة، السعادة، الأخلاق، السمو، الرفعة، كل ذلك موجود في هذا الدين بتفصيل بديع، ألا يدل ذلك علىٰ أنه رسول من عند الله حقًا؟ وأن الذي أنزله هو رب العالمين صدقًا؟

إذن: هذه الرسالة كافية في إثبات أن الذي جاء بها صادق في نبوته.

أقول: هذا الموضوع يستحق أن يُكرَّر فيه الكلام ويُعاد، لأن هذا الزمن، هذه السنوات الأخيرة التي نعيشها فيها حملات تشويش وتلبيس علىٰ الناس فيما يتعلق بصحة الإسلام وفيما يتعلق بصدق النبي ﷺ، وصفحات الشبكية مليئة -مع الأسف الشديد- بهذه المشككات التي ربما يتلقاها الأغمار والصغار فتقع في نفوسهم الشُّبَه، ويصبح مرتابًا، وربما يصبح منافقًا، وربما يرتكس في الردة والعياذ بالله!

إذن: هذا موضوع لابد من إعادة الكلام والتذكير به، عندنا أمران لابد أن نتعلمهما جيدًا، وأن نُعلِّمهما الآخرين -ولا سيما الناشئة- جيدًا:

١) ما يتعلق بسيرة النبي ﷺ وشمائله.

٢) ما يتعلق بدلائل نبوته.

هذا أمران لابد من التركيز عليهما.

أولًا: لأن هذا به يتحقق الجواب المسدد عند السؤال.

وثانيًا: لأن بهذا يتحقق كون الإنسان شاهدًا، حينما يقول: أشهد أن محمدًا رسول الله، قد علمنا معنىٰ الشهادة فما هي؟ إخبار عن علم ويقين. سبحان الله! كيف تشهد برسالة من لا تعرفه؟ إذا وصل الإنسان إلىٰ هذه الدرجة فالأمر مشكل جدًا أن يكون جاهلًا بالنبي ﷺ، وكلما كنت أكثر معرفة به كلما كانت شهادتك أكثر صدقًا.

إذن: أنت بحاجة إلىٰ هذا للجواب عن السؤال، لتحقيق الشهادة، **ثالثًا:** أيضًا لكي تصل إلىٰ أمر عظيم وهو أن ترضىٰ به ﷺ نبيًا، وهذه مرتبة أرفع من مجرد الإيمان به، إذا وصلت إلىٰ ذلك مع أمرين آخرين فإنك تصل إلىٰ طعم الإيمان، قال ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا**»، كيف تصل إلىٰ الرضا به نبيًا؟ هذا لا شك أنه يكون بمقدار علمك وتصديقك بما جاء عنه ﷺ من الشمائل وبما جاء من الدلائل، شمائله، صفاته عليه الصلاة والسلام وكذلك ما يتعلق بدلائل نبوته عليه الصلاة والسلام.

أضف أمرًا رابعًا وهو أنك بمقدار ذلك تزداد محبتك له عليه الصلاة والسلام، وهذا أمر عظيم وأمر مهم، ليس من النوافل، لا تصل إلىٰ درجة الإيمان الواجب إلا بكونه عليه الصلاة والسلام أحب إليك من كل مَن علىٰ وجه الأرض: من أبيك وأمك، من أخيك، من أبنائك، من زوجك، من صديقك، بل من نفسك، «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»، وفي حديث عمر رضي الله عنه: «**حتىٰ أكون أحب إليك من نفسك**».

كيف تكون كذلك إذا كنت جاهلًا بـه ﷺ؟ لا تعـرف عنـه شـيئًا أو لا تعـرف إلا النزر اليسير، ربما لا تصل إلىٰ ذلك، المعرفة طريـق المحبـة، كلمـا كنـت بـالله ﷻ أعرف كلما كنت أشد له حبًا، وقل مثل هـذا في حـق رسـوله ﷺ: كلمـا كنـت بـه أعرف كلما كنت له أشد حبًا ﷺ.

أضف إلى هذا أمرًا خامسًا: كيف ستتجرد للدفاع عنه والدعوة إلىٰ الإيمـان بـه وأنت جاهل به؟ لا تعرف عنه إلا أقل القليل، شيء لا يسمن ولا يغني مـن جـوع في مقام الدعوة أو في مقام دفع الشُّبَه، ولـذا طـلاب العلـم علىٰ وجـه الخصـوص والمسلمون علىٰ وجه العموم في كل وقـت ولا سـيما في هـذه الأوقـات مطـالَبون بأن يعتنوا أشد العناية بهذا الموضوع الجليل وهذا الموضـوع العظـيم، يجعلونـه مادة للدراسة والتعلم والتحقق، يُعاب بعض طلبة العلـم أنـه يبـالغ في التـدقيق في بحث مسائل لا ترقىٰ إلىٰ ما يقرب من هذه المسألة وتجده في هـذا البـاب جـاهلًا لا يعتني به كما ينبغي، هذا في الحقيقة مما لا ينبغي أن يكون من طالب العلم.



هذا هو الأصل الثالث، وهو: معرفة نبينا محمد ﷺ.

والنبي ﷺ نَسَبُه ثابت معروف، نَسَبه أحسن الأنساب وأشرفها وأرفعها ﷺ.

فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بـن قصـي بـن كِلاب بن مُرَّة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نِزار بن مَعَدِّ بن عدنان، وعدنان مـن ولـد إسـماعيل

النبي والرسول الكريم ﷺ الذي هو ابن النبي والرسول والخليل إبراهيم عليه السلام، فعدنان من ذرية إسماعيل باتفاق أهل العلم.

وهذا القَدْر الذي سُقته لك -وفيه ذِكْر واحد وعشرين من آباء النبي ﷺ- هذا قَدْر مقطوع به بالاتفاق، وأما ما بعد ذلك مما يذكره النسَّابون من عدنان وإلىٰ إسماعيل فإنه لا يمكن القطع بصحته، والأمر علىٰ ما قال عروة بن الزبير رحمه الله كما أورد الذهبي في «سيرته»: ما وجدنا من يذكر بعد عدنان وقحطان إلا تَخرُّصًا. فهذا القَدْر إلىٰ عدنان صحيح متفق عليه.

النبي ﷺ هو محمد، هذا أشهر أسمائه، ويليه في الشهرة: أحمد، وهذان أشهر أسمائه عليه الصلاة والسلام، وكلاهما جاء في القرآن. وله أسماء أخرىٰ عليه الصلاة والسلام، من ذلك ما ثبت في الصحيحين من ذِكْر الأسماء الخمسة له عليه الصلاة والسلام، حيث أخبر أنه محمد وأحمد والحاشر والعاقب والماحي. هذه خمسة أسماء للنبي ﷺ ثابتة في «الصحيحين».

والعلماء لا سيما أهل السيرة يذكرون أسماء أخرىٰ كثيرة للنبي ﷺ، والتحقيق أن أكثرها -كما يقول الذهبي- أوصاف له ﷺ. وهذا الاسم مما اختُص به النبي ﷺ وهو محمد، فلا يكاد يُعرف في العرب قبل مولد النبي ﷺ من هو محمد.

وهو محمد؛ لأنه كثير خصال الخير التي يُحمد بها عليه الصلاة والسلام.

وقيل: إن هذا الاسم وُجِد في العرب علىٰ نُدرة، يعني: سُمِّي به نزر قليل.

وقيل: إنه إنما سُمِّي به لأجل أن الأحبار والرهبان الذين كان عندهم علم بمبعث النبي ﷺ وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، كانوا قُبيل ميلاده ﷺ يحرصون علىٰ التسمية بهذا الاسم؛ رغبة في أن ينالوا هذا الشرف وهو أن يكون النبي الموعود من نسلهم ومن أبنائهم وذريتهم.

المقصود: هذا هو النبي محمد ﷺ.

وأما أبوه فعبد الله، وتوفي وعمره خمسة وعشرون عامًا، والنبي ﷺ نشأ يتيمًا باتفاق أهل العلم، فقد توفي أبوه وهو حَمْلٌ في بطن أمه، وقيل: إن أباه قد توفي وهو ابن شهرين، وقيل: إنه كان ابن سنتين، والصحيح الأول أن النبي ﷺ قد توفي أبوه وهو حَمْلٌ في بطن أمه.

كذلك أمُّه توفيت وهو ابن أربع سنين، وقيل: إنه كان ابن ست سنين، وتوفيت بالأبواء بين مكة والمدينة، فتولىٰ رعايته ﷺ بعد أمه: جده عبد المطلب، ولكنَّه -أيضًا- توفي وعُمْر النبي ﷺ ثمان سنين، ثم تولىٰ رعايته عمه أبو طالب. هذا هو أبوه، وهو ﷺ يُسمىٰ بابن الذبيحين؛ لأن أباه هو الذبيح الأقرب، وأبوه إسماعيل هو الذبيح الأبعد، فهو ابن الذبيحين.

وجده عبد المطلب واسمه شيبة، وكان شيخ مكة ورأسها، وجده الثاني هاشم واسمه عمرو، وإنما سمي هاشمًا؛ لأنه كان من أكثر العرب جودًا وكرمًا، فكان يهشم الخبز في المرق، يصنع منه ثريدًا، يعني: يقطع ويكسر الخبز ويصنع الطعام للناس، يطعمهم، ولم تكن رايات موائده تُنكَّس لا في رخاء ولا في قحط.

وهاشم هذا هو الذي ينتسب إليه النبي ﷺ في نَسَبه القريب، فبنو هاشم هم قرابة النبي ﷺ الأدنَوْن، وهم آل بيت النبي ﷺ مع أزواجه عليه الصلاة والسلام، فإن وصْف آل بيت النبي ﷺ التحقيق أنه يشمل ثلاثة أصناف:

ذريته ﷺ وذريتهم، والنبي ﷺ كان له أربع بنات، وكان له ثلاثة من الذكور، فاطمة ورقية وزينب وأم كلثوم والقاسم وعبد الله وإبراهيم، وكلهم من خديجة، إلا إبراهيم فمن مارية، رضي الله عنهم أجمعين.

ولم يكن للنبي ﷺ عَقِبٌ إلا من فاطمة، ولم يكن من فاطمة إلا من الحسن والحسين، وعنهما تفرعت الدوحة المباركة لآل بيت النبي ﷺ.

فالمقصود أن هذا هو الصنف الأول: ذرية النبي ﷺ وذريتهم.

ثم -أيضًا- أزواج النبي ﷺ اللائي هن أمهات المؤمنين، وأمهات المؤمنين التحقيق أنهن إحدىٰ عشرة، توفي النبي ﷺ عن تسع منهن.

توفي رسول الله عن تسع نسوة ... إليهن تُعزىٰ المكرمات وتُنسبُ
فعائشة ميمونة فصفيةُ ... وحفصة تتلوهن هند وزينبُ
جويرية مع رملة ثم سودةُ ... ثلاث وست نظمهن مهذَّبُ

وتوفي في عهده عليه الصلاة والسلام -يعني: في حياته- خديجة بنت خويلد وزينب أم المساكين رضي الله عنهن أجمعين. فهؤلاء من آل بيت النبي ﷺ بنص القرآن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [الأحزاب:٣٣]، فالآية في أمهات المؤمنين بالنص.

والصنف الثالث هم بنو هاشم الذين هـم الأقربـون الأدنَـوْن إلـىٰ النبـي ﷺ، فمن كان من بني هاشم فإنه من آل بيت النبي ﷺ، ولهم الفضل وواجب القيام بالمحبـة، ولهـم أحكـام تختص بهـم وهـم آل علـي وآل جعفـر وآل عقيـل وآل الحارث بن عبد المطلب.

المقصود: أن هذا هو هاشم، والنبي ﷺ هاشمي، فهو محمـد بـن عبـد الله بـن عبد المطلب العربي القرشي الهاشمي. ولاحظ أن عـادة النسـابين أنهـم ينسبـون إلىٰ النسبة العامة ثم إلىٰ النسبة الخاصة، لأجل أن يكون في نسبتهم الخاصة مزيد فائدة، فيقولون: فـلان القرشـي الهاشـمي، ولا يقولـون: الهاشـمي القرشـي؛ لأنَّ ذلك سيكون تحصيل حاصل.

ثم إذا أرادوا أن ينسبوا إلىٰ البلد فإنهم ينسبونه إلىٰ بلده بعد ذِكْر نسبه، فالنبي ﷺ هو محمد بن عبد الله العربي القرشي الهاشمي المكي ثـم المـدني ﷺ؛ لأنـه وُلِد ونشأ بمكة ثم هاجر وتوفي بالمدينة عليه الصلاة والسلام.

هؤلاء هم آباء النبي ﷺ مَنْ ذكرت لك، وقبيلته قريش، وقريش هـو فهـر بـن مالك علىٰ قول الأكثر، وقيل: هو النضر بن كنانة، فكل من كان مـن ذريـة فهـر -علىٰ قول الأكثر- قرشي، أو كل من كان مـن ذريـة النضـر -علـىٰ القـول الآخـر- قرشي.

وقريش هي أفضل قبائل العرب كرمًا ورياسة وقوة.

واختلـف العلمـاء لأيِّ شـيء سـميت قـريش قريشًـا، فقيـل: إنها قـريش مـن

التقرش يعني: التكسب، لأنهم كانوا أهل تجارة، وكان لهم رحلتا الشتاء والصيف، وأول من سنَّها لهم: هاشم، الجد الثاني للنبي ﷺ.

وقيل: إنَّ قريشًا من التقرش الذي هو التجمع، حيث تجمعوا بعد تفرُّق.

وقيل: إن قريشًا قيل لها قريش من القوة والمَنَعة، لأنها كانت تغلِبُ ولا تُغلَب، فنُسبت إلىٰ الدابة التي في البحر التي هي سمك القرش، وفي هذا يذكر العلماء أن معاوية رضي الله عنه سأل ابن عباس رضي الله عنهما: لم سُمِّيت قريش قريشًا؟ قال: من الدابة التي تسكن البحر، أما سمعت قول الشاعر:

وقريش هي التي تسكن البحر ... بها سُميت قريش قريشا
تأكل الغث والسمين ولا تترك ... منه لذي جناحين ريشا
هكذا في البلاد حيُّ قريش ... يأكلون العباد أكلًا كميشا

يعني: أكلًا شديدًا.

المقصود: أن هذه هي قبيلة النبي ﷺ.

وقريش من العرب، يعني: من العرب المستعربة، وهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً.

الشَّرْح

له ﷺ ثلاث وستون سنة، يعني: عُمُره حين توفي عليه الصلاة والسلام ثلاث وستون سنة، وذلك أنه وُلِد عليه الصلاة والسلام عام الفيل، وهو العام الذي يؤرخ بالتاريخ الميلادي بالعام الحادي والسبعين والخمسمائة، وقيل: هو السبعين والخمسمائة، يعني: إما أن يكون خمسمائة وواحد وسبعين ميلادي، وقيل: إنه خمسمائة وسبعين ميلادي. ففي هذا العام وُلِد النبي ﷺ بالاتفاق، هذا واحد.

ثانيًا: وُلِد النبي ﷺ في شهر ربيع الأول بالاتفاق، اللهم إلا قولًا شاذاً لا يُعوَّل عليه يقول: إنه وُلِد في رمضان، والصحيح -كما ذكرت- هو الأول.

الأمر الثالث: أنه وُلِد يوم الاثنين، وهذا بالاتفاق وبالنص، لما ثبت في «صحيح مسلم» أن النبي ﷺ ذكر يوم الاثنين فقال: «ذاك يوم وُلِدت فيه».

الأمر الرابع: في أيِّ يوم من الشهر وُلِد النبي ﷺ؟ اختلف العلماء في هذا، قيل: إنه في اليوم الثاني من ربيع الأول، وقيل: في اليوم الثامن، وقيل: في اليوم العاشر، وقيل غير ذلك.

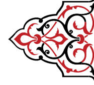
والذي عليه الجمهور -وهو الصحيح إن شاء الله- أنه وُلِد ﷺ في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول.

أما وفاته عليه الصلاة والسلام -بأبي هو وأمي، اللهم صل عليه وسلم- فقد توفي عليه الصلاة والسلام -

أيضًا- سنة إحدىٰ عشرة من الهجرة، وكان ذلك في شهر ربيع الأول وكان ذلك يوم الاثنين، توفي ﷺ يوم الاثنين وغُسِّل يوم الثلاثاء ودُفِن ﷺ سَحَر ليلة الأربعاء، يعني: الثلاثاء في آخر الليل، ﷺ.

وكان ذلك علىٰ الصحيح في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول، وعليه فيكون عمره ﷺ يوم أن توفي يكون عمره ثلاثًا وستين سنة، ﷺ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: 

مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلاثٌ وَعِشْرُون نبيًا رسولًا.

الشَّرْح

(**مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ**) فإن النبي ﷺ نُبِّئ، يعني: أوحي إليه وأنزل عليه وعُمْره أربعون سنة وستة أشهر؛ لأنه أُنزل عليه في رمضان وقد وُلِد في ربيع الأول، فيكون عمره حينما نُبِّي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أربعين سنة وستة أشهر.

ثم كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في بقية عُمره نبيًا رسولًا، يعني: ثلاث وعشرون عامًا بعد الأربعين كان فيها نبيًا رسولًا، هذه هي مدة بعثته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وكانت هذه البعثة منها ثلاث عشرة سنة بمكة، وكان منها عشر سنين بالمدينة كما سيذكر.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

نُبِّئَ بـ(اقْرَأْ)، وَأُرْسِلَ بـ (الْمُدَّثِّرْ)، وَبَلَدُهُ مَكَّةُ.

الشَّرح

نُبِّئَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بـ(اقرأ)، هذا هو الصحيح أن أول ما أُنزل علىٰ النبي ﷺ وبه كان نبيًا: اقرأ، حيث أُنزل عليه أول ما أُنزل الآيات الخمس الأولىٰ من سورة اقرأ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق:١-٥] وذلك ما بينته الصديقة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كما في «الصحيحين» من حديثها في ذِكْر أول نزول الوحي علىٰ النبي ﷺ وقد كان قبل ذلك ثمة تمهيد لهذا الأمر العظيم الذي هو مقبل عليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو الرؤيا الصالحة، فكان لا يرىٰ رؤيا إلا وقعت كفلق الصبح، ﷺ. وهذا تمهيد لما هو مقبل عليه، وكان ﷺ يتحنث بغار حراء، يعني: يتعبد، يمكث الليالي ذوات العدد في هذا الغار الذي هو في مكة يتعبد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وهذا كان منه ﷺ قبل البعثة، وأما بعد البعثة فإنه بقي ﷺ في مكة ثلاث عشرة عامًا، ثم لما هاجر إلىٰ المدينة كان يأتي إلىٰ مكة مرات عديدة في حجه، في عمراته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في فتح مكة ومع ذلك ما ذهب إلىٰ غار حراء ولا تعبَّد فيه، وهذا يبين لنا أنه ليس من الأمر المشروع الذهاب إلىٰ غار حراء كما يفعل الناس.

إن قال: إنني أتابع النبي ﷺ، فيقال: إن الأولىٰ أن تتابعه بعد كونه نبيًا، لأن النبي ﷺ بعد بعثته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما ذهب إلىٰ غار حراء ولا تعبَّد في غار حراء، ولا صلىٰ

ركعتين في غار حراء، فضلًا عن أن يكون ﷺ قد تمسح وتبرك كما يفعل بعض الجهال، حاشا رسولنا ﷺ من ذلك.

المقصود: أن النبي ﷺ كان يتعبد في هذا الغار، يحب الخلوة بنفسه، يدعو ربه ويتأمل، فنزل عليه المَلَك وضمه ضمة شديدة وقال: اقرأ. فقال: ما أنا بقارئ. لم يكن هذا امتناعًا منه عن القراءة، وإنما إخبار بأنه لا يحسنها، لأنه كان أميًا ﷺ، فعاد الثانية فأعاد النبي ﷺ ثانية، فأعاد الثالثة فأوحي إليه ﷺ من الناموس الذي هو المَلَك الموكَّل بالوحي الذي هو جبريل عليه السلام بهذه الآيات التي سمعت: (اقرأ) إلىٰ خمس آيات من مطلعها.

فهذا أول ما أُنزل علىٰ النبي ﷺ وبه كان نبيًا.

أما إرساله فإنه أُرسل، يعني: كان رسولًا بالمدثر، وهذا هو الصحيح أن المدثر نزلت بعد اقرأ، وأن المدثر فيها الأمر بالإنذار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾ [المدثر:١-٢]، فالإنذار كان فيها ولم يكن في (اقرأ)، إنما كان في المدثر.

فالصحيح أن أول ما أُنزل علىٰ النبي ﷺ إنما هو اقرأ، وبها كان نبيًا، وبالمدثر كان رسولًا ﷺ.

فإن قال قائل: فماذا تقول فيما ثبت في «الصحيحين» من حديث يحيىٰ بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن جابر رضي الله عنه: أن أول ما أنزل علىٰ النبي ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾ [المدثر:١] والحديث في الصحيحين؟

فالجواب عن هذا أن يقال: إن حديث عائشة أولىٰ بالأخذ به، والناظر فيما جاء في الصحيحين من حديثها يقطع أن (اقرأ) أول ما أُنزل علىٰ النبي ﷺ.

وأما حديث جابر فليس نصًا، ويمكن حمله على ما يوافق ما سبق، بمعنى: أن يقال: إن الأولية التي ذكرها جابر رضي الله عنه ليست أولية مطلقة، إنما هي أولية نسبية، فأول ما أُنزل على النبي ﷺ بعد فترة الوحي، لأنه بعد أن نزل عليه (اقرأ) فَتَرَ الوحي، ثم بعد ذلك أُنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر:١]، لأن النبي ﷺ قد كان منه -كما قال جابر في هذا الحديث- أنه تحنث في غار حراء شهرًا، ثم إنه لما هبط واستبطن الوادي سمع صوتًا، فالتفت إلى اليمين، إلى الشمال، إلى الخلف، إلى الأمام لم يجد شيئًا فرفع رأسه إلى السماء وإذا بالمَلَك الذي هو جبريل جالس على عرش بين الأرض والسماء، فخاف النبي ﷺ وفزع فزعًا شديدًا، فذهب إلى زوجه خديجة فقال: «دثروني» فدثروه، وفي رواية قال: «زملوني زملوني» فدثروه. والحديث في «الصحيحين».

فقال بعد ذلك: ثم أُنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر:١-٥]، إلى هذا الحد جاء في الصحيحين.

إذن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر:١-٥] هكذا جاءت الرواية في الصحيحين بذكر خمس آيات من أول سورة المدثر.

المقصود: أن توجيه حديث جابر رضي الله عنه بأن نقول: هو أول ما أُنزل بعد فترة الوحي، وهذا أقرب ما يُقال في هذه المسألة، وإلا فثمة أجوبة أخرى.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

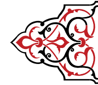
وَبَلَدُهُ مَكَّةُ.

الشَّرْح

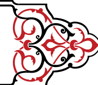
وُلِد النبي ﷺ بمكة ونشأ بها، وكانت البلدة الحبيبة له عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، لكنه لما هاجر إلىٰ المدينة دعا الله عَزَّ وَجَلَّ أن يحبب إليه المدينة كَحُبِّه مكة أو أشد.

فولد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذن في مكة ونشأ بها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وبُعِث بها، ثم هاجر بعد ذلك إلىٰ المدينة وتوفي بها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: 

بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَىٰ التَّوْحِيدِ.

 الشَّرْح 

(**بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ وَيَدْعُو إِلَىٰ التَّوْحِيدِ**) هذا كلام دقيق يلخص دعوة النبي ﷺ وأنها قائمة علىٰ بيان التوحيد، وذكر هاهنا ما هو هذا التوحيد، فالتوحيد الحق، التوحيد الصحيح هو ما جمع بين النفي والإثبات، وهو ما ترجمت عنه كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، فإن النِّذارة -يعني: الإنذار- عن الشرك هو في معنىٰ (لا إله)، والدعوة إلىٰ التوحيد هو الإثبات في معنىٰ (إلا الله)، فلا توحيد إلا باجتماع التجريد والتفريد، إلا باجتماع التخلية والتحلية، فكان النبي ﷺ قد شدَّ من همته واجتهد اجتهادًا عظيمًا، وشمر عن ساعد الجد في الدعوة إلىٰ التوحيد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

من مبدأ دعوته وإلىٰ ختام حياته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهو داعية إلىٰ التوحيد، يعلِّم التوحيد ويحذر من الشرك في كل وقت، في الصباح وفي المساء وفي كل وقت يعلِّم هذه الأمة التوحيد.

ومن تأمل حاله وسيرته وسنته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أدرك ذلك، الناس في وقته، العرب في مكة وفي جزيرة العرب وفي غيرها وغير العرب كانوا يعيشون مشكلات كثيرة تتعلق بالأخلاق، تتعلق بالمعاملات، تتعلق بالأنكحة، تتعلق بالاقتصاد، تتعلق بأشياء كثيرة في الحياة، لكن المشكلة الكبرىٰ كانت هي المتعلقة بالعقيدة، فهي

التي اهتم بها ﷺ وشمَّر في الدعوة إلىٰ تصحيح هذا الوضع، إلىٰ إعادة الناس إلىٰ الفطرة التي فطرهم الله عليها وهي التوحيد الخالص ونبذ الشرك، وهذه هي سنة الأنبياء قبله ﷺ، ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل:٣٦]، كل الأنبياء كانوا ينادون في أقوامهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، ينذرون عن الشرك، ويأمرون ويعلمون التوحيد.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ٧﴾ [المدثر:١-٧].

وَمَعْنَىٰ: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾ يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ.

الشَّرْح

أيضًا كرر الجملة رَحِمَهُ اللَّهُ مرة ثانية، وقد ذكرها قبل قليل، وها هو يعيدها لترسخ هذه المعلومة في أذهان طلبة العلم والدعاة إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، هذه هي القضية الأهم في دعوته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أما في مكة فثلاث عشرة سنة خالصة في الدعوة إلىٰ التوحيد، في آخرها فقط أُمِر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالصلاة فأمر أمته بالصلاة، وإلا قبل ذلك كان الأمر متعلقًا في الدعوة بالتوحيد، ثم لما هاجر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ المدينة ومكث عشر سنين كان يعلِّم الشرائع والآداب ومع ذلك كانت دعوة التوحيد -أيضًا- هي القضية الأهم في دعوته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فالابتداء كان بالتوحيد، «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»، والخاتمة كانت بالتوحيد، فإنه إلىٰ اللحظات الأخيرة عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من حياته ما غفل عن الدعوة إلىٰ التوحيد، ولذا في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في آخر اللحظات: «لعنة الله علىٰ اليهود والنصارىٰ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» قالت عائشة: يحذر ما صنعوا.

وفيما بين البداية والختام كانت دعوة التوحيد هي القضية الأهم، هي الركيزة الكبرىٰ في دعوته ﷺ.

ويا ليت أن الدعاة إلىٰ الله ﷻ ممن يقولون: إنهم متبعون له ﷺ أن يسلكوا هذا المنهج، ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف:١٠٨]، إن كنت متبعًا للنبي ﷺ فادعُ كما دعا النبي ﷺ، وادعُ إلىٰ ما دعا إليه ﷺ.

وقال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ①﴾ [المدثر:١] (ٱلْمُدَّثِّرُ) أصلها المتدثر، ثم أُدغمت التاء في الدال، والمتدثر يعني: الذي غُطِّي بالدِّثار، يعني: غُطِّي بكساء أو نحوه؛ لأنه أتىٰ إلىٰ خديجة رضي الله عنها وهو في غاية الفزع، ولأجل ذلك كان يطلب شيئًا يُغطىٰ به، فقال: «دثروني»، فسمي المدثر، وفي رواية -أيضًا- في الصحيحين قال: «زملوني زملوني» وهي قريبة في المعنىٰ من (دثروني).

إذن: سُمِّي أو قيل له ﷺ المدثِّر لهذا السبب أنه جاء فقال: «دثروني» فدُثِّر ﷺ، قال: «وصبوا علي ماء باردًا» أيضًا حتىٰ يخف ما أصابه ﷺ.

قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ①﴾ [المدثر:١].

﴿قُمْ فَأَنذِرْ ②﴾ [المدثر:٢] النذارة بمعنىٰ: الإنذار، قال: (يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَىٰ التَّوْحِيدِ).

الإنذار الأصل فيه أنه إعلام بمواقع الخيفة.

وقيل: إن الإنذار هو الزجر عن القبيح، وهذا بخلاف البشارة، البشارة يقابلها النذارة، فالنبي ﷺ كان ينذر عن الشرك، ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر:٢]، يُعلّم الناس التوحيد ويبين لهم خطر ضده، ويبين لهم مغبة الإعراض عن التوحيد، لأن الذين بُعِث فيهم النبي ﷺ كانوا قومًا مشركين، إضافة إلىٰ من كانوا من الوثنيين أو كانوا من أهل الكتاب الذين وقعوا -أيضًا- في الشرك، فكان النبي ﷺ ينذرهم عن الشرك ويأمرهم بالتوحيد ويعلمهم إياه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾ أَيْ: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ.

الشَّرح

(﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾ أَيْ: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ) يكبِّر الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا تعظيم بالتوحيد، والتكبير شعار المسلم، يكبر الله عَزَّ وَجَلَّ في أحوال كثيرة: في أذانه، في إقامته، في صلاته، في عيده، في غير ذلك، يكبر الله عَزَّ وَجَلَّ.

والتكبير -كما قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ- تعظيم بالتوحيد، (يكبر) يعني: يعظمه بالتوحيد، سواء كان هذا متعلقًا بتوحيد الربوبية، فهو يعظم الله عَزَّ وَجَلَّ في ربوبيته، فيعتقد أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أكبر من كل شيء، هو المدبر لكل شيء، وكل ما سواه فإنه لا يملك من الأمر شيئًا، هذا هو تكبير الله عَزَّ وَجَلَّ في ربوبيته.

كذلك تكبيره في ألوهيته، فيُكبَّر الله عَزَّ وَجَلَّ في الألوهية، حيث يُعتقد أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المستحق للعبادة دون ما سواه، يُعظَّم بهذا، وأما ما سواه فإنه ليس له من هذه الألوهية شيء، فهذا تعظيم له في الألوهية.

كذلك تعظيمٌ له في الأسماء والصفات، فأسماؤه أعظم الأسماء، وأسماؤه أحسن الأسماء، وله جَلَّ وَعَلَا المثل الأعلىٰ، يعني: الوصف الأعلىٰ، فصفاته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الصفات المثلىٰ العظيمة التي لا نظير لها، فالله عَزَّ وَجَلَّ في ذاته أكبر من كل شيء، وفي صفاته هو أعظم من كل شيء.

كذلك يُعظَّم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قَدَره، فإن قَدَر الله عَزَّ وَجَلَّ عدلٌ كله وحكمة كله،

والله ﷻ منزَّه عن العبث، له الحكمة البالغة سبحانه وتعالى، منزَّه عن الظلم، بل قد حرم الظلم علىٰ نفسه سبحانه وتعالى.

كما أنه يُعظَّم في شرعه، حيث إنَّ شرعه الذي شَرَعه وأنزله علىٰ رسله وبيَّنه في كتبه هو أعظم الشرائع، وأفضل ما يعيش الإنسان عليه في هذه الدنيا، فالسعادة بحذافيرها مكفولة لمن سار علىٰ شريعة الله ﷻ، يجب تكبير الله ﷻ في شرعه، ويجب تعظيمه سبحانه وتعالى في شرعه، إذا قال الإنسان: الله أكبر، عليه أن يستحضر ذلك كله.

أيضًا -وهو الأمر السادس- أن يُكبَّر الله سبحانه وتعالى بأن يُنزَّه عن كل ما لا يليق به سبحانه وتعالى، يُنزَّه عن العيب والنقص والسوء، فالشر ليس إليه سبحانه وتعالى بوجه من الوجوه، ويُنزَّه -أيضًا- ويُكبَّر عن أن يكون له شريك، أو أن يكون له مثيل، أو أن يكون له مساوٍ، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم:٦٥]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورىٰ:١١]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة:٢٢].

إذن: هذه المعاني الستة ينبغي استحضارها إذا كبَّرت الله يا عبد الله، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [المدثر:٣].



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤﴾ أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ.

الشَّرح

قال: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤﴾ اختلف العلماء في المراد بالثياب، قيل: إن الثياب بمعنىٰ: النفْس؛ لأن الإنسان يلبس الثياب علىٰ ذاته وجسده ونفسه، فُعبِّر عن النفْس بالثياب، ومن هذا قول عنترة:

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم علىٰ القنا بمحرم

يعني: نفسه، طعنته هو في ذاته في جسده.

فعلىٰ هذا يكون معنىٰ قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤﴾ يعني: نزِّه نفسك عن الذنوب والمعاصي، وأعظم الذنوب والمعاصي: الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقيل: إن الثياب هي الأعمال، كما بيَّن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والمعنىٰ قريب إلىٰ الأول.

وقيل: إن الثياب هاهنا هي الثياب الحسية، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤﴾ لأنَّ أهل الجاهلية ما كان لهم عناية بالتنزه عن النجاسة، ما كانوا يبالون بذلك، فجاء الإسلام بالطهارة والنقاء والنزاهة، فأُمر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ -والأمر له أمر لأمته- بضرورة الرعاية لهذا الأمر وهو النزاهة وتنظيف الثياب من النجاسة، وهذا مما استدل به الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره علىٰ اشتراط إزالة النجاسة في الصلاة، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤﴾.

وقيل: إن الثياب هي الثياب -أيضًا- المعتادة، وتطهيرها برفعها وتشميرها، يعني: أن لا تسبل ثيابك، أن لا تمس الأرض، لأن هذا فيه تنزيه لهذه الثياب، لأنها إذا نزلت فإنه لا يُؤمَن أن تلاقي شيئًا من الوسخ أو النجاسة، فكان هدي الشريعة رفع الثياب ثياب الرجال، أمَّا النساء فالمصلحة بإرخاء الذيول أرجح، فأُمرت المرأة بأن ترخي ثيابها، أما الرجل فإن هذه المصلحة التي هي التنزيه لا يعارضها مفسدة وبالتالي أُمر بها، وبالتالي فإن علىٰ الإنسان أن يرفع ثيابه، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾.

ولذا في «صحيح البخاري» لما طُعِن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دخل عليه شاب يعوده، فلما أراد الخروج لحظ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن ثيابه تكاد تمس الأرض، فدعاه. سبحان الله! عمر خليفة المسلمين والوضع في غاية الحَرَج، يُطعن -عليه رضوان الله- ويُدرك أنه قد دنا أجله، والمسلمون في حالة عصيبة، والبلاد الإسلامية أحوالها ما تعلمون من تربص الأعداء، فالخطب جلل، في تلك اللحظة ما غفل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن التنبيه علىٰ هذه المعصية وهي الإسبال، قال: ردوه. طلب أن يعود إليه وقال: يا ابن أخي، ارفع ثوبك، فإنه أتقىٰ لربك وأنقىٰ لثوبك. في بعض نسخ البخاري: أنقىٰ، وفي بعضها: أبقىٰ، لأن هذا الإسبال ربما يكون سببًا ليهترئ هذا الثوب، فهو أنقىٰ وهو -أيضًا- أتقىٰ، وتلاحظ أنه ما سأله: هل أنت تفعل هذا من الخيلاء أو بغير خيلاء؟ وإنما أمر -عليه رضوان الله- أمرًا مطلقًا، قال: ارفع ثوبك، فإنه أتقىٰ لربك.

إذن: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾.

المقصود: أنه لا حرج -والله أعلم- أن تُحمل هذه الآية علىٰ تلك المعاني جميعًا، فإذا أمكن حمْل الآية علىٰ أكثر من معنىٰ والآية تحتمل ذلك وهذه المعاني معاني ترجع إلىٰ شيء صحيح وحق؛ فلا حرج في أن تُحمل الآية علىٰ هذه المعاني جميعًا.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ٥﴾ [المدثر:٥] **الرُّجْزَ: الأَصْنَامُ، وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا وَالْبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلُهَا.**

الشرح

قال: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ٥﴾ [المدثر:٥]، وهاهنا قراءتان سبعيتان: (الرُّجز والرِّجز)، وكلاهما بمعنىً واحد، لا فرق بين الرُّجز والرِّجز.

واختلف العلماء -أيضًا- في معنى قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ٥﴾؟

ذهب طائفة من السلف -وهذا مروي عن ابن عباس وجماعة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ورحمة الله على هؤلاء السلف- **أن الرُّجز يعني:** الأصنام والأوثان كما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، **فيكون المراد:** الكف عن الشرك والنأي عنه، الابتعاد عنه، تهجرها، لا تعبدوا إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أما كل ما يُعبد من دون الله فيجب أن تكفر به، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٥٦] آية عظيمة في التوحيد. الرُّجز فاهجر.

وقيل: إن الرُّجز: الذنوب والمعاصي، يجب على الإنسان أن يجتنبها وأن يبتعد عنها، وهذا قريب من الماضي، لأن الشرك أحد أفراد المعاصي، الأصل في المعاصي أنها كل ما عُصي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به، والشرك أعظم ذلك، فهذه -أيضًا- لا تخالف التفسير الأول.

وقيل: إن الرُّجْز عذاب الله، فكأنه قال: دع السبب الذي يؤدي إلى أن يقع عليك عذاب الله، ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ٥﴾ [المدثر:٥] لا تفعل الأسباب المقتضية للعذاب. نسأل الله أن يعافيني وإياكم من عذابه!

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

أَخَذَ عَلَىٰ هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَصَلَّىٰ فِي مَكَّةَ ثَلَاثَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ.

الشَّرح

مكث علىٰ هذا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في مكة ثلاث عشرة سنة، ثم إنه ﷺ هاجر إلىٰ المدينة ومكث بها عشر سنين كما قلنا: إنه مكث بمكة لا يدعو إلا إلىٰ التوحيد، حتىٰ الوقت الأخير من بقائه بمكة فُرِضت عليه الصلاة، والصلاة فُرِضت ليلة الإسراء والمعراج بالاتفاق.

والعلماء مختلفون اختلافًا طويلًا متىٰ كان ذلك، والمؤلف -كما سمعت- جعلها قبل الهجرة بثلاث سنين، وهذا أحد الأقوال، والمسألة فيها أقوال كثيرة، عشرة أو أكثر.

قيل: إن ذلك كان قبل الهجرة بثلاث سنين، كما ذكر المؤلف.

وقيل: إن ذلك كان قبل الهجرة بخمس سنين.

وقيل: إن ذلك كان قبل الهجرة بسنة. ابن حزم ينقل الإجماع علىٰ هذا، واختار هذا جمع من العلماء.

وقيل: إن ذلك كان قبل الهجرة بستة عشر شهرًا.

وقيل: إن ذلك كان قبل الهجرة بغير ذلك.

المهم أن في المسألة اختلافًا طويلًا، والعلماء رحمهم الله كُلٌّ استدل بشيء، والمؤلف رجح ذلك.

المقصود: أن النبي ﷺ قبل الهجرة -علىٰ ما ذكر المؤلف بثلاث سنين- أُمِرَ بالصلاة، لما أُسري به ﵇ من مكة إلىٰ بيت المقدس ثم بعد ذلك عُرِج به إلىٰ السماء، وهذه من أعظم الآيات ومن عجيب البراهين علىٰ نبوة النبي ﷺ، آية عجيبة.

الحق الذي لا شك فيه والمقطوع به وما عليه جماهير العلماء: أن الإسراء والمعراج كان بجسد النبي ﷺ وروحه، بمعنىٰ: أنه في ليلة واحدة ﵇ أُسري به علىٰ البراق إلىٰ بيت المقدس، هذه المسافة التي تُقطع في نحو شهر، في ليلة واحدة ﵇ وصل إلىٰ بيت المقدس وربط هذا البراق ثمة، وصلىٰ بالأنبياء، ثم عُرِج به بالمعراج إلىٰ ما فوق السماء السابعة، إلىٰ محل رفيع جدًا حتىٰ إنه سمع صريف الأقلام، حتىٰ إنه رأىٰ النور الذي هو الحجاب الذي جعله الله ﷻ حاجبًا له ﷻ، فلا يُرىٰ ﷻ، ولذلك لما سئل عن رؤيته لربه قال: «نور أنَّىٰ أراه»، يعني: ثمة نورٌ فكيف أراه؟

المقصود: أنه بلغ إلىٰ هذا القَدْر العظيم، ومعلوم أن كِثَفَ السماء الواحدة خمسمائة عام يقضيها الذي يقطعها حتىٰ ينتقل من سماء إلىٰ سماء، يحتاج إلىٰ خمسمائة عام من المسافة الشاهقة والبعيدة، ومع ذلك عُرِج به إلىٰ هذا القَدْر العظيم، وكلَّمه الله ﷯، وسمع النبي ﷺ كلام ربه، وأُمر بالصلاة.

ثم نزل من هذه المسافة الشاهقة، ثم عاد من بيت المقدس إلىٰ مكة، كل ذلك كان في ليلة واحدة، وهذا يدلك علىٰ عظيم قدرة الله ﷻ، وأنه علىٰ كل شيء قدير، وأنه لا يعجزه شيء ﷻ.

وأنبه هنا إلىٰ أن بعض الناس يزعم أن الإسراء والمعراج إنما كان رؤية منامية، وهذا قول باطل من أقوال أهل البدع، وبعض الناس يزعم أن ذلك كان بروحه، وهذا قول مختلف عن سابقه، وهذا خطأ من قائله، والحق الذي لا شك فيه أنه أُسري به وعُرِج به عليه الصلاة والسلام بجسده وروحه ﷺ.

المقصود: أن النبي ﷺ أُمر بالصلاة في تلك الليلة بالاتفاق، فصلىٰ في مكة المدة من تلك الليلة وإلىٰ هجرته علىٰ الخلاف أهي سنة أو ثلاث سنين، أو سنة وأربعة شهور، أو أكثر من ذلك أو أقل من ذلك، المقصود أن هذه المدة مكثها النبي ﷺ وكان يصلي خلالها إلىٰ بيت المقدس.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما كما عند الحاكم في «المستدرك»: أنه كان يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس، ما استقبل النبي ﷺ في صلواته الخمس، يعني: ما أمره الله ﷻ باستقبال بيته المحرم أثناء صلاته بمكة، بل ولا في المدينة إلا بعد مرور ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، يعني: مكث النبي ﷺ وأصحابه يصلون إلىٰ بيت المقدس المدة من ليلة الإسراء وإلىٰ الهجرة ثم بعد الهجرة إلىٰ ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، ثم بعد ذلك نُسِخ ذلك وأُمر ﷺ أن يتوجه إلىٰ الكعبة.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَبَعْدَهَا أُمِرَ بالْهِجْرَةِ إِلَىٰ الْمَدِينَة.

والْهِجْرَةُ: الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَىٰ بَلَدِ الإسْلامِ.

وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَىٰ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَىٰ بلد الإِسْلامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَىٰ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء:٩٧-٩٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت:٥٦].

قَالَ الْبُغَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سَبَبُ نُزُوْلِ هَذِهِ الآيَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ لَمْ يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ».

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ الْهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ: قَوْلُهُ ﷺ: «لا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّىٰ تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا».

الشَّرح

فإن المؤلف رحمه الله بعد أن ذكر هجرة النبي ﷺ من مكة إلىٰ المدينة فرَّع علىٰ هذا الكلامَ عن الهجرة وحكمها.

والهجرة نوعان:

الأول: هجرة قلوب.

والثاني: هجرة أبدان.

أما هجرة القلوب والأبدان لها تَبَع فإنها تعني: هجرة كل ما حرم الله سبحانه وتعالىٰ، والانتقال منه إلىٰ ما يحبه الله، وهذا ما دل عليه قول النبي ﷺ فيما خرج الإمام البخاري وغيره: «والمهاجر من هجر ما نهىٰ الله عنه».

هذه هي هجرة القلوب، وهي فرض عين علىٰ كل مسلم ومسلمة إلىٰ أن يتوفىٰ الله العبد.

هذه وظيفة العُمُر التي لا يجوز التواني فيها ولا التخلي عنها، أن يسعىٰ المسلم في كل وقت إلىٰ أن يهجر ما حرم الله عز وجل، وأن يعوِّض ذلك بفعل ما يحبه الله سبحانه وتعالىٰ من واجب أو مستحب.

وأما النوع الثاني فهو هجرة الأبدان، وتعريف هذه الهجرة هي ما ذكر المؤلف رحمه الله: الانتقال من بلد الشرك إلىٰ بلد الإسلام.

وعامة النصوص التي جاءت في الهجرة أمْرًا بها أو نهيًا عن تركها فإنها تتعلق

بهذه الهجرة، وهي التي ذكر المؤلف ﷺ: الانتقال من بلد الشرك إلىٰ بلد الإسلام، وذلك لأن هذه الهجرة شأنها عظيم في الإسلام، فهي من الواجبات المؤكدات.

وأورد المؤلف ﷺ الدليل علىٰ ذلك، فكون الله ﷻ يتوعد تارك هذه الهجرة بعذاب النار هذا دليل علىٰ وجوبها، وعلىٰ أن تركها مع القدرة أنه معصية بل كبيرة، لأن كل معصية تُوعِّد عليها بدخول النار فهي كبيرة، والله ﷻ وصف التاركين لها بأنهم ظالمون لأنفسهم، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ ﴾ [النساء:٩٧] يعني: الملائكة ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ ﴾ [النساء:٩٧]، ثم قال الله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء:٩٧]، فدل هذا علىٰ وجوب الهجرة، وأن علىٰ كل مسلم أن ينتقل من مساكنة الكفار إلىٰ مساكنة المسلمين. وفي هذا بعض أحاديث عن رسول الله ﷺ أيضًا.

وإنما يُستثنى من هذا الوجوب اثنان:

الأول: من لم يكن له قدرة علىٰ الهجرة، والدليل علىٰ هذا الاستثناء ما جاء في هذه الآية: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ [النساء:٩٨] قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كنت أنا وأمي ممن استثنىٰ الله ﷻ»، وهؤلاء كان النبي ﷺ يدعو لهم في قنوته أن يُنجّيَهم الله ﷻ، كان يدعو الله أن ينجي المستضعفين من المؤمنين.

فمن لم يكن قادرًا علىٰ الهجرة بسبب تسلط الكفار، أو بسبب بعض الأمور المتعلقة بالسفر، أو ما يتعلق ببعض الأمور النازلة، كالتأشيرات والحدود وما إلىٰ ذلك؛ فإنَّ هذا معذور، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، كل أوامر الشريعة مقيدة بقوله تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

الرجل الثاني المستثنى من هذا الحكم: مَن كان قادرًا علىٰ إظهار دينه في بلد الكفر، فمثل هذا الهجرةُ في حقه مستحبة لا واجبة؛ لأن المقصود من الهجرة تمكُّن العبد من إظهار دينه، وكونه يعبد الله ﷻ ويُبيِّنُ شرائعه ويدعو إليه دون أن يكون عليه مكروه في ذلك، فإذا كان ذلك كذلك في بلد الكفر فإن هذا يكون قرينة علىٰ إخراج الحكم في حقه من الوجوب إلىٰ الاستحباب، وهذا ظاهر في قوله: ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [النحل:٢٨] وهؤلاء لم يكونوا ظالمين أنفسهم.

ويتبع هذه الهجرة هجرات أقل منها، ثمة هجرات صغرىٰ بعد الهجرة الكبرىٰ، ومنها: الهجرة من بلاد البدع والمعاصي إلىٰ بلاد السنة والطاعة، فإن هذه الهجرة وإن كانت دون الهجرة السابقة في الوجوب إلا أنها تتأكد في حال كون الإنسان يعيش بين ظهراني أناس يظهرون المعاصي ولا يقدر علىٰ الإنكار عليهم، أو يقعون في البدع والمحدثات، وهي من أشنع المعاصي، وقد أفتىٰ مالكٌ رحمه الله بالهجرة من بلد يُسب فيها السلف الصالح، فإن هذه بدعة شنيعة، والآثار في هذا عن السلف معروفة.

وأيضًا هجرة أخرىٰ وهي الهجرة من بلد الخوف إلىٰ بلد الأمن، متىٰ ما كان الإنسان مستضعفًا في بلده، خائفًا، لا يتمكن من أن يعيش في أمن وطمأنينة، آمنًا

علىٰ دينه، آمنًا علىٰ دنياه؛ فإن الهجرة تتأكد في حقه إلىٰ بلد يأمن فيها علىٰ نفسه، ويأمن فيها علىٰ ماله، ويأمن فيها علىٰ ولده.

والدليل علىٰ هذا ما كان من الهجرة الأولىٰ إلىٰ الحبشة، الحبشة لم تكن أرض إسلام، لكنها كانت أرض أمن وعدل، فالشريعة جاءت بجلب المصالح وتكثيرها ودرء المفاسد وتقليلها، فمتىٰ لم تتوفر بلاد إسلامية يأمن الإنسان فيها علىٰ نفسه ودينه فإنه ينتقل ولا حرج إلىٰ بلدِ كفر يأمن فيها متىٰ ما كان مستطيعًا إقامة دينه فيها، كما كان من أصحاب النبي ﷺ الذين هاجروا بإذن النبي ﷺ إلىٰ الحبشة، فَأَمِنوا فيها.

فهاتان هجرتان تابعتان للهجرة الأولىٰ وهي الهجرة من بلد الكفر إلىٰ بلد الإسلام.

ومعلوم الحكمة من هذه الهجرة، كون الإنسان يهاجر من بلاد الكفر لا شك أن هذا الحكمة فيه بيِّنة واضحة، فإن مساكنة الكفار يترتب عليها مفاسد كثيرة تعود علىٰ الإنسان وعلىٰ أهله وعلىٰ ولده بالضرر، والواقع أكبر شاهد.

كم من أناس ذهبوا إلىٰ بلاد الكفر لأجل تحصيل دنيا، يريدون شيئًا من زهرة الحياة الدنيا، لكن الضريبة كانت غالية، كانت الضريبة عائدة علىٰ دينهم وعائدة علىٰ أبنائهم، حيث نشأوا في غير طاعة الله ﷻ، يرون الصلبان ويسمعون النواقيس، تمتلئ أعينهم وآذانهم مما حرم الله ﷻ، وذلك لا شك أنه من الأمر المحرم الذي لا يجوز، متىٰ ما توفر للمسلم أن يعيش بين المسلمين آمنًا مؤديًا شرع الله ﷻ علىٰ ما يحب، ما الذي يلجئه إلىٰ أن يساكن الكفار مع قدرته علىٰ عدم ذلك؟ فالأمر لا شك في هذا الباب عظيم.

وإن الواقع يشهد بأن جملة من هؤلاء الذين هاجروا إلىٰ بلاد الكفر تاركين بلاد الإسلام قد عاد الأمر عليهم في أديانهم أو في أولادهم بشر عظيم، وكم من أولئك من ارتد عن دين الله ﷻ، الأمر عظيم، وما يُعرض في بلاد الكفر من الشهوات والشبهات شيء كبير جدًا، مكر كُبَّار، يُدْخِلُ الإنسان نفسه وأهله وولده في غماره ولا يعمل حسابًا لهذه المغامرة الخطيرة، هذا أمر لا يجوز، فعلىٰ الإنسان أن يتنبه لهذا، الله ﷻ خلقك لعبادته، ما خلقك لغاية اكتساب المال ولا لتحصيل شيء من لعاعات الدنيا، إنما خلقك الله ﷻ لعبادته، وتحصيل المال والدنيا شيء تَبَعي، إن لم يكن معينًا علىٰ طاعة الله ﷻ كان وبالًا علىٰ صاحبه، والله المستعان!

بقيت مسألة وهي: أنَّ المؤلف ﵀ استدل -أيضًا- علىٰ وجوب هذه الهجرة بقول النبي ﷺ: «لا تنقطع الهجرة حتىٰ تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتىٰ تطلع الشمس من مغربها»، قد يقول قائل: كيف نجمع بين هذا الحديث وقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح الآخَر، وهو ما خرجاه في «الصحيحين»: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية»، فالحديث الثاني فيه نفي للهجرة، والحديث الأول فيه إثبات لها، فكيف نجمع بين الحديثين؟

الجواب عن هذا أن يُقال: إن الجمع بين الحديثين متيسر ولله الحمد، فمن أمعن النظر فيهما تبين له وجه الصواب، فإن النفي في الحديث الثاني «لا هجرة بعد الفتح» تعلَّق بالهجرة الخاصة، وإثباتُ الهجرة في الحديث الذي بين أيدينا وكونها باقية لا تنقطع إلىٰ قرب قيام الساعة هذا في الهجرة العامة.

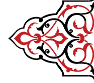
إذن: الحديثان يتعلقان بأمرين ولم يتواردا علىٰ أمر واحد، فقوله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح» أي: الهجرة الخاصة من مكة إلىٰ المدينة، هذه الهجرة انقطعت بفتح مكة، أيُّ هجرة هذه من مكة إلىٰ المدينة وقد أضحت مكة بلد إسلام؟

إذن: ذهب أهل الهجرة بأجرها، فمن سافر بعد ذلك من مكة إلىٰ المدينة لا يقال عنه: إنه مهاجر، انتهت الهجرة وفاز أصحابها بها وانتهىٰ الأمر.

أما قوله: «لا تنقطع الهجرة حتىٰ تنقطع التوبة»، وجاء عند «النسائي» و«أحمد» وغيره: «لا تنقطع الهجرة ما قوتل العدو»، فهذه الهجرة العامة التي هي باقية في كل زمان ومكان متىٰ ما وُجِد سببها، وهي الانتقال من أيِّ بلد من بلاد الكفر إلىٰ أيِّ بلد من بلاد المسلمين علىٰ ما مضىٰ تفصيله.

إذن: الإثبات تعلَّق بالهجرة العامة، والنفي بالهجرة الخاصة.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: 

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء:٩٧].

الشَّـرح

عندنا هنا مبحث يتعلق بمنهج أهل السنة في فهم نصوص الوعيد، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء:٩٧] هل هذا من الظلم الأكبر أم من الظلم الأصغر؟ هذا من الظلم الأصغر لا الظلم الأكبر، وذلك أن الظلم جاء في النصوص على ضربين:

جاء ظلمًا أكبر، ومنه قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣].

وأما الظلم الأصغر فإنه الذنوب والمعاصي، وهذه الآية تعلقت بذلك، بدليل أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية الثانية خاطب من لم يهاجر بوصف الإيمان، قال: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ [العنكبوت:٥٦] فالخطاب توجه إليهم باسم الإيمان، فدل هذا على أنهم ما خرجوا، والآية صريحة في مخاطبة من توجبت عليه الهجرة ولم يهاجر، سياق الآية ظاهر في أنها توجهت إلىٰ من وجبت عليه الهجرة ولم يهاجر بعد، هل في هذه الحال كونه وجبت عليه الهجرة ولم يهاجر بعد كان كافرًا؟ الجواب: لا، لأن الله قال: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [العنكبوت:٥٦] فدل هذا على أن الظلم في الآية الأخرىٰ هو الظلم الأصغر الذي هو بمعنىٰ:

الفسق، بمعنىٰ: ارتكاب الكبيرة وليس هو الكفر بالله ﷻ، والقاعدة التي تعلمون: أن النصوص يجب التأليف بينها، ولا يجوز ضرب بعضها ببعض.

وماذا عن قوله تعالىٰ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء:٩٧]؟ توعدهم الله ﷻ بدخول النار، وأنهم يكونون من أهل النار؟

الجواب عن هذا: أن مأواهم النار فيدخلونها الدخول المؤقت لا الدخول المؤبد، فإن دخول النار جاء في النصوص علىٰ ضربين، ويجب تنزيل كُلٍّ في محله، دخول النار قد يكون دخولًا مؤقتًا كما في هذه الآية وكما جاء في نصوص كثيرة تعلقت بالمعاصي، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾ [النساء:١٠]، قال ﷺ: «دخلت النارَ امرأةٌ في هرة»، فدل هذا علىٰ أن المعاصي توعد الله ﷻ علىٰ أصحابها بدخول النار، ولكن هذا الدخول دخول مؤقت وليس دخولًا مؤبدًا، بدليل أن النصوص قد تواترت علىٰ إخراج طائفة من المؤمنين الموحدين، المؤمنين الذين معهم أصل الإيمان وبقي فيهم شيء من الإيمان ولو كان مثقال ذرة من إيمان، إذا كان معهم أصل الإيمان فهؤلاء معهم أصل التوحيد الذي يقتضي إخراجهم من النار، أقول: تواترت النصوص علىٰ إخراج كل من دخل النار من العصاة، وأنه لا يبقىٰ فيها إلا مَن تأبّد دخوله وأولئك هم الكفار الذين ليس معهم من الإيمان شيء.

إذن: دخول النار قد يكون دخولًا مؤقتًا، وقد يكون دخولًا مؤبدًا، وذلك في حق الكفار.

إذن: هذه الآية ينبغي أن تُحمل علىٰ وجهها، وأن مرتكب المعاصي متوعَّد بالنار، وهذا الدخول دخول مؤقت، وحينما نقول: إنه دخول مؤقت لا يعني هذا

التهوين من شأن هذا العقاب، أسأل الله أن يعافيني وإياكم! فإن أجسادنا لا تقوىٰ علىٰ النار -واللهِ- ولا لحظة واحدة، والله أعلم كم يكون هذا الدخول الذي نقول: إنه مؤقت، والله ﷻ قد خوَّفنا من عذاب عظيم، والعظيم إذا قال: إن عذابه عظيم فهو عظيم، فعلىٰ الإنسان أن يخاف ويحذر، لكن -أيضًا- عليه أن يحمل النصوص علىٰ الوجه الصحيح دون إجحاف، دون غلو أو تقصير.

ثُمَّ إنَّه يقال -أيضًا-: إن كل وعيد تعلَّق بالعصاة فإنه مقيَّد بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

إذن: ننظر إلى النصوص التي تعلق بها وعيد في حق العصاة من جهتين:

أولًا: ننظر إلىٰ النص فنفهمه علىٰ وجهه دون غلوٍّ وعيدية ودون إفراطِ مرجئة.

ثم نقول: هذا الوعيد الذي فهمناه فهمًا صحيحًا نقول: إنه وعيد إن شاء الله ﷻ أمضاه، وإن شاء عفا عن صاحبه، والله ﷻ لا معقب لحكمه، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨]، فالله ﷻ إذا شاء العفو عن هذه العقوبة فالله ﷻ لا يمكن أن يُدافَع سبحانه وتعالى فيما يشاء، فالله ﷻ إذا شاء العفو عفا.

إذن: نفهم النص أولًا ما معناه، ثم نفهم أن هذا الوعيد تحت مشيئة الله سبحانه وتعالى، إن شاء سبحانه وتعالى أمضاه في حق هذا العاصي المعين، وإن شاء سبحانه وتعالى عفا عنه فدخل الجنة من أول وهلة، نسأل الله ﷻ أن نكون ممن يدخل الجنة من أول وهلة، إن ربنا جواد كريم.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قَالَ الْبُغَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سَبَبُ نُزُوْلِ هَذِهِ الآيَةِ فِي المُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ لَمْ يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ.

الشَّرْح

كلمة البغوي هذه حرصت على معرفة مرجعها فما وجدتها لا في التفسير ولا في شرح السنة، لا عند كلامه عن الآية الأولىٰ ولا عند كلامه عن الآية الثانية، أعني قوله: (ناداهم باسم الإيمان) فلا أدري هل هي في نسخة ما وصلتنا من التفسير، أو في كتاب آخر سوىٰ هذين، أو حصل وهم في نسبة هذا الكلام إلىٰ البغوي، الله أعلم.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَالدَّلِيلُ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ؛ قَوْلُهُ ﷺ: «لا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّىٰ تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا».

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِالْمَدِينَةِ؛ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ، -مِثْلِ: الزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، وَالأَذَانِ، وَالْجِهَادِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ- أَخَذَ عَلَىٰ هَذَا عَشْرَ سِنِينَ.

الشَّرْح

عاد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ ما ابتدأ الكلام به وهو التعريف بالنبي ﷺ؛ لأن الأصل الثالث هو معرفة النبي ﷺ، فأراد المؤلف أن يُكمِل ما ابتدأه من الكلام عن هذا النبي الكريم ﷺ، يقول: إنه هاجر إلىٰ المدينة وبيَّن شرائع الإسلام ولم يكن شيء من هذا قد كان بمكة، اللهم إلا الصلاة في آخر وقته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بمكة علىٰ ما مضىٰ بيانه وتفصيله، أما في المدينة حيث الأمن والاستقرار، وحيث توطدت الدولة الإسلامية الناشئة في هذه المدينة المباركة شرع النبي ﷺ ببيان أحكام الإسلام، ومع ذلك ما كان النبي ﷺ متخليًا عن بيان التوحيد والدعوة إليه والتحذير من ضده، حاشا وكلا! بل لم يزل النبي ﷺ يبين التوحيد، ويعظم شأنه، ويحذر من ضده جنبًا إلىٰ جنب مع بيانه الشرائع، ومع بيانه المعاملات، ومع بيانه الأخلاق، ما ترك الدعوة إلىٰ التوحيد، الدعوة إلىٰ التوحيد لا تتعلق فقط بحال من كان عنده مخالفات أو عنده نواقض لهذا التوحيد، الدعوة إلىٰ

التوحيد ينبغي أن تكون في كل حال ولكل أحد أن يُدعىٰ إلىٰ التوحيد، وأن يُذكَّر بالتوحيد من كان مخالفًا أو كان موافقًا.

هذا النبي ﷺ يأخذ العهد علىٰ أصحابه علىٰ التوحيد، كما في «الصحيحين» من حديث عبادة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «بايعوني علىٰ أن لا تشركوا بالله شيئًا»، كانوا جمعًا من الصحابة الذين هم أهل التوحيد وأئمة التوحيد ومع ذلك يأخذ النبي ﷺ العهد عليهم بعدم الإشراك بالله سبحانه وتعالى، وهذا يدل علىٰ أن التوحيد ينبغي أن تكون دَيْدَنَ الداعية إلىٰ الله عز وجل، في كل وقت يذكر بالتوحيد؛ لأن القلوب ربما يعتريها ما يعتريها من الخلل، من الضعف، من استيلاء شبهة، من تأثر هذا القلب بشيء من الأمور التي تضعف هذا التوحيد.

فعلىٰ الإنسان أن يكون دائم التذكير ودائم التذكر لهذا التوحيد، استمر النبي ﷺ يدعو إلىٰ التوحيد في مكة وفي المدينة وإلىٰ آخر لحظاته عليه الصلاة والسلام، في آخر اللحظات في حياته ينبه علىٰ موضوع التوحيد ويحذر من ضده ويقول: «لعنة الله علىٰ اليهود والنصارىٰ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، كان يحذر ما صنعوا عليه الصلاة والسلام.

إذن: مكث النبي ﷺ علىٰ هذا عشر سنين، ومُجمل دعوته العهد النبوي ثلاث وعشرون سنة، ثلاث عشرة سنة كانت بمكة، وعشر كانت بالمدينة.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَتُوُفِّيَ ﷺ وَدِينُهُ بَاقٍ، وَهَذَا دِينُهُ، لا خَيْرَ إِلا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرَّ إِلا حَذَّرَهَا مِنْهُ.

وَالْخَيْرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ: التَّوْحِيدُ وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ.

وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَهَا مِنْهُ: الشِّرْكُ وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ وَيَأْبَاهُ.

الشَّرْح

لما أكمل الله ﷻ دينه وأتم نعمته قَبَضَ خليله ونبيه محمدًا ﷺ إليه، وما عند الله كان خيرًا لنبيه مما ترك ﷺ، ترك النبي ﷺ هذه الدنيا ورحل عنها ودينه قد كمُل، ودينه باقٍ، والله ﷻ قد وعد بحفظه، ونبينا ﷺ قد أخبرنا بأنه باقٍ، وأن الأمر سيستمر خيرًا ودعوة وتوحيدًا، وأن الله سبحانه وتعالى سيمكن لهذا الدين، وأنه لا يبقىٰ بيت مدر ولا حجر إلا دخله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل.

وقد كان ما كان مما أخبر النبي ﷺ، توسعت رقعة البلاد الإسلامية، كثرت الفتوح، دخل الناس في دين الله أفواجًا، والحمد والمِنَّة لربنا جل في علاه.

دينه ﷺ باقٍ إلىٰ قيام الساعة، فقُبيل قيام الساعة يُرسِلُ الله ﷻ ريحًا طيبة يكون بها قبض كل مؤمن علىٰ وجه الأرض، ولا يبقىٰ بعد ذلك إلا شرار الخلق الذين لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا، ولا يعرفون الله سبحانه وتعالى، لا يبقىٰ في الأرض من يقول: الله الله، ولا يبقىٰ في الأرض من يقول: لا إله إلا الله، كما أخبر النبي ﷺ بذلك.

والدين الذي بيَّنه ﷺ هو الخير والهدىٰ والسعادة، التوحيد وفروعه، التوحيد وما تحته مما يحبه الله ﷻ وأَمَرَ به أمْر إيجاب أو استحباب، دينه باقٍ عليه الصلاة والسلام فيه الخير وفيه الهدىٰ وفيه السعادة، الذي جاء به النبي ﷺ دينٌ عام شامل لكل مناحي الحياة، ينظم كل شيء، ويعود علىٰ صاحبه وعلىٰ مجتمعه وعلىٰ الناس جميعًا بالخير والسعادة في كل شيء، في دين الناس وفي دنياهم أيضًا.

دين النبي ﷺ لم يكن محصورًا بتنظيم أحوال الناس وأمورهم فيما بينهم وبين ربهم، في العبادات المحضة، كلا! بل إن هذا الدين لا يَدَع شيئًا من مناحي الحياة إلا وله فيه توجيه، إلا وله فيه تنظيم يدرك ذلك من يعلم هذا الدين.

وأما أولئك الذين يقولون: ما دخل الدين بالسياسة، بالاقتصاد، بالإعلام، بالتجارة ، هؤلاء بين جاهل وحاقد، إما أنهم جاهلون بهذا الدين، ما عرفوا الدين، ولا أدركوا عظمة هذا الدين، وإما إن قلوبهم حاقدة، مليئة بالغل لهذا الدين ولحملته.

المقصود: أنه لا توجد مشكلة في أيِّ باب من الأبواب، في أيِّ منحىً من مناحي الحياة إلا وفي الإسلام حَلُّها، لا يوجد باب إلا وفي الإسلام تنظيمه، لا يوجد شيء علىٰ الإطلاق.. وهذا شيء يتحدىٰ به المسلمون غير المسلمين أن يأتوا بشيء واحد في هذه الحياة لم يكن للإسلام فيه توجيه، ولم يكن للإسلام فيه تنظيم، ولم يكن للإسلام فيه بيان، لا يمكن، دين كامل، دين شامل، دين دقيق، ليست التوجيهات في الإسلام توجيهات عامة، بل توجيهات دقيقة مفصلة في كثير من الأشياء، وما عدا ذلك فثمة قواعد عامة وأصول جامعة تجمع بيان الحكم في كل ما عدا ذلك من كل الحوادث لا متناهية التي تكون في دنيا الناس.

المقصود: أن هذا الدين دين عام ودين شامل ودين يعود على أهله بالخير والسعادة، دين ميسَّر، دين سهل، دين سمح ولله الحمد! ما أتى النبي ﷺ بقيود ولا أغلال ولا تضييق، إنما أتى النبي ﷺ بحنيفية سمحة فيها السعة وفيها التيسير، وفيها كل خير يعود على الإنسان في دينه ودنياه وآخرته بالخير والسعادة.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَعَثَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَافْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨].

الشَّرْح

هذه كلمة تتعلق بعموم رسالة النبي ﷺ، وهذا ما مضىٰ الكلام فيه.

وقد عُلِم من الدين بالضرورة أن النبي ﷺ كان مرسلًا إلىٰ جميع الإنس والجن كافة من كل لون، ومن كل عرق وفي كل مكان، وفي كل زمان منذ أن أُرسل عليه الصلاة والسلام وإلىٰ انتهاء هذه الدنيا، لا يقبل الله دينًا إلا الدين الذي جاء به محمد بن عبد الله ﷺ، قال عليه الصلاة والسلام: «بُعثت إلىٰ كل أحمر وأسود»، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨].

فكلُ أحدٍ واجب عليه أن يتبع النبي ﷺ الذي يقول: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بالذي أُرسلت به إلا كان من أصحاب النار»، وإذا كان هذا في حق يهودي أو نصراني فكيف بالمشرك والملحد والبوذي والهندوسي وغيره ممن لا كتاب لهم أصلًا، فدل هذا علىٰ عموم بعثة النبي ﷺ، وكل من تردد أو توقف أو أنكر فلا شك أنه كافر بالله العظيم، مآله إلىٰ النار، ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ١٣﴾ [الفتح:١٣].

كذلك الجن عليهم أن يؤمنوا بهذا النبي الكريم ﷺ ويتبعوا شِرْعَتَهُ، ولا يجوز لأحد منهم أن يتدين بغير ما جاء به النبي ﷺ، ومر بنا الأدلة علىٰ هذا وقلنا: هذا هو إجماع المسلمين، والله ﷻ قد بيَّن هذا في كتابه حينما أخبرنا في قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف:٢٩]، هؤلاء الجن أراد الله بهم خيرًا، سمعوا القرآن فآمنوا ثم بعد ذلك ولَّوا إلىٰ قومهم منذرين، ماذا قالوا لهم؟ قالوا: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف:٣١] من هو؟ الذي سمعوا إخباره بالقرآن وهو محمد ﷺ.

﴿أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف:٣١] ثم قالوا: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف:٣٢].

إذن: كان من الواجب عليهم أن يؤمنوا بالنبي ﷺ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَأَكْمَلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة:٣].

الشَّرح

أكمل الله ﷻ الدين به، هذا النبي الكريم ﷺ النعمة والمِنَّة به على الناس جميعًا أمر عظيم تفوق كل مِنَّة ونعمة، ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٦٤] هذه مِنَّة وهي أن بعث فيهم هذا النبي الكريم ﷺ.

﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٤] يعرفونه، يعرفون نَسَبه، يعرفون خُلُقَه، يعرفون صدقه ﷺ.

فالله ﷻ هدىٰ به من الضلالة، وأنقذ به من الغواية، وأعز به من الذلة، وأغنىٰ به من العَيْلة، وجمع به من الفُرقة، ﷺ.

الله أكمل دينه قبل أن ينتقل نبيه إليه ﷻ وصلىٰ الله علىٰ نبينا وسلم، فما مات النبي ﷺ إلا والدين كامل، كل ما يحبه الله ﷻ وشرعه قد بيَّنه النبي ﷺ البيان التام، ونحن نشهِد الله علىٰ أن النبي ﷺ قد بلَّغ الرسالة وأدىٰ الأمانة ونصح الأمة، ما ترك شيئًا يقرِّبنا إلىٰ الله إلا بيَّنه، ولا شيئًا يبعدنا عنه وعن رحمته ورضوانه إلا حذرنا منه.

كان ما أخبر به ﷺ فيما خرج الإمام «مسلم»، قال عليه الصلاة والسلام: «ما بعث الله من نبي إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته علىٰ خير ما يعلمه لهم، وأن يحذرهم من شر ما

يعلمه لهم»، فكيف بسيدهم وإمامهم ﷺ؟

إذن: بلغ البلاغ المبين وكَمُلَ الدين قُبيل وفاته عليه الصلاة والسلام، فكان دينًا كاملًا تامًا، وهذا فيه فائدة عظيمة لنا، إذا علمنا أن الدين كامل فإننا حينها نستفيد أنه لا يقبل الزيادة، الكامل لا يقبل الزيادة؛ لأنه كامل، الزيادة يُكْمَل بها الناقص، هذا الذي يعرفه العقلاء، حينما يكون هذا الكأس ناقصًا أقول لك: أكمله، ضع فيه ماء حتىٰ يصبح كاملًا، هذا الكأس كامل يقبل الزيادة؟ ما يقبل الزيادة، لو زدت عليه حصل فساد، انسكب وصارت مشكلة.

الدين كامل فلا يقبل الزيادة، والزيادة هي الإحداث فيه والابتداع فيه، فكل بدعة وكل محدثة فإنها تُحطَّم بهذا السيف الصقيل وهذا المهند القاطع الذي هو قاعدة كمال الدين، قاعدةٌ راسخة رسوخ الجبال، لا شك فيها ولا ريب، وبالتالي يُقطع بها عنق كل بدعة وكل إحداث في هذا الدين.

لماذا نزيد؟ ولماذا نبتدع؟ أهناك شيء يقرِّب إلىٰ الله ليس موجودًا فيه؟ ألا فليعلم كل من أضاف شيئًا إلىٰ الدين وقال: إنه يقرِّب إلىٰ الله، هذا خير يوصل إلىٰ جنة الله، كل من قال هذا يلزمه أحد لازمين ولابد، شاء أم أبىٰ:

أولًا: أن يكون قائلًا بلسان مقاله أو بلسان حاله: إنَّ هذا خير يقرِّب الله ما عَلِمَهُ النبي ﷺ، كان جاهلًا به وأنا المُحْدِثُ له علمته.

إذن: هذا المحدث أعلم بالخير وبالدين من الرسول ﷺ، أفيجرؤ مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقول هذا؟ لا واللهِ، من قال هذا صريحًا لا شك في كفره؛ لأنه مكذب لقوله ﷺ: «**أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية**».

اللازم الثاني: اتهام النبي ﷺ بالكتمان وعدم البلاغ، فلسان مقاله أو لسان حاله يقول: هذا خير عَلِمَهُ النبي ﷺ ولكنَّه كتمه وما بيَّنه ولا أذاعه، وأنا أقوم بهذا الواجب. ومن قال بهذا فقد كفر، اتهم النبي ﷺ بالخيانة، وحاشاه عليه الصلاة والسلام.

إذن: علىٰ كل مسلم أن يوقن يقينًا تامًا أنه لا تمكن الإضافة إلىٰ هذا الدين، ولا يجوز الإحداث فيه، ومن فعل هذا فقد ركب مركبًا ذا خطر، يورده الموارد، النبي ﷺ كان يكرر علىٰ أصحابه كثيرًا، هذه حقيقة يجب أن تدخل إلىٰ سويداء القلوب، «**أما بعد، فإن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار**»، هذا الكلام حق أو هزل؟ قاله النبي ﷺ مازحًا؟ حاشاه عليه الصلاة والسلام، هذا حق، واللهِ إنه لحق.

إذن: من أحدث في الدين وأضاف إليه ويزعم أنه يقربه إلىٰ الله، أضاف صلاة، ذكرًا، هيئة في العبادة، عددًا لم يَرِد، كل ذلك إحداث في الدين، سواء كانت بدعة محدثة في أصلها أو بدعة محدثة في وصفها، كل ذلك لا شك أنه داخل في الإحداث في الدين وصاحبه متوعَّد بهذا، هذا الذي أراد أن يقرِّبه إلىٰ الله سيبعده عنه، هذا الذي أراد أن يدخله إلىٰ الجنة توعد النبي ﷺ أنه يدخله النار.

قال الإمام مالك رحمه الله: (من ابتدع بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا ﷺ خان الرسالة، فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة:٣]، فما لم يكن بالأمس دينًا لا يكون اليوم دينًا).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ مَوْتِهِ ﷺ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الزمر:٣٠-٣١].

الشَّرح

بعد أن أتم الله النعمة وكَمُلَ الدين قبض الله ﷻ خليله وصفيه محمدًا ﷺ إليه، توفي النبي ﷺ وكانت تلك الفاجعة الكبرىٰ والمصيبة العظمىٰ التي لا مصيبة في الدنيا تعدلها، حتىٰ إن النبي ﷺ أوصىٰ أن يتسلىٰ المؤمن في المصائب التي تنزل به بما كان من المصيبة بفقده عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

هذا دليل علىٰ أنها مصيبة وأيُّ مصيبة، لما قَدِمَ النبي ﷺ أشرق منها كل شيء، ولما توفي النبي ﷺ أظلم من المدينة كل شيء، هكذا يقول أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأرضاه.

توفي النبي ﷺ في السنة الحادي عشرة من الهجرة، وتوفي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في شهر ربيع الأول من هذه السنة، وتوفي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول علىٰ الصحيح من كلام أهل العلم، وكان ذلك في وقت الزوال أو قُبيل الزوال، لما اشتد الضحىٰ قُبِض النبي ﷺ وكان ذلك يوم الاثنين، بأبي وأمي ﷺ.

ثم إنه غُسِّل في يوم الثلاثاء، ثم دُفِن عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في ليلة الأربعاء، يعني: من السَّحر، ليلة الأربعاء، ﷺ.

وقام على غسله: علي، والعباس، والفضل بن العباس، وقُثَمُ بن العباس، وشُقْران مولى النبي ﷺ، وأسامة بن زيد رضي الله عنهم أجمعين.

والذين أنزلوه في قبره عليه الصلاة والسلام هم من سبق سوى أسامة رضي الله عنه.

وتوفي عليه الصلاة والسلام وقد أتم ثلاثًا وستين سنة عليه الصلاة والسلام، لأنه وُلِد على الصحيح في الثاني عشر من ربيع الأول وتوفي عليه الصلاة والسلام في الثاني عشر من ربيع الأول، وهكذا قُبض أبو بكر وعمر، كلهم هؤلاء الثلاثة الأصحاب صلى الله على نبينا وسلم ورضي الله عنهما، تُوفُّوا وأعمارهم في الثالثة والستين كما قال معاوية رضي الله عنه فيما خرج الإمام مسلم في «صحيحه».

المقصود: أن النبي ﷺ قُبِض في يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول في السنة الحادية عشرة، وأُزيح السرير الذي كان عليه في حُجرة عائشة ودُفِن محله عليه الصلاة والسلام، لأن النبي لا يُقبر إلا حيث يُدفن، كما عند «الترمذي» وغيره بإسناد لا بأس به. فدُفن النبي ﷺ في حجرة عائشة لهذا السبب.

ولسبب آخر وهو ما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها: ولأجل ذلك لم يُبرز قبره، ما أُبرز، يعني: جُعل في البَراز، جُعل في العراء، في البقيع كبقية القبور، وذلك خشية أن يُتخذ مسجدًا. لهذين السببين دفنه الصحابة رضي الله عنهم في المكان الذي توفي فيه وهو حجرة عائشة رضي الله عنها، وهي في الموضع المعلوم عندكم في الجهة الشرقية من مسجد النبي ﷺ.

ولما توفي عليه الصلاة والسلام أصاب المسلمين الشيء المقيم المقعِد، فاختلفت أحوالهم

بين من كان يبكي بكاءً، وبين كان مندهشًا، وبين من أقعده الخَطْب حتىٰ ما استطاع أن يقوم، وكان أبو بكر ﵁ وهو مُقَدَّم الصحابة وخيرهم ﵁ كان بمنزلٍ له في العالية، فأتىٰ إلىٰ هذا المسجد والناس فيه في اضطراب عظيم، وكلهم تشرئِبُّ أعناقهم إليه، فما كلم أحدًا حتىٰ دخل إلىٰ حجرة عائشة ﵂ وكشف عن وجهه ﵇ وقد غُطِّي وقبَّله وبكىٰ ﵁ وقال: «**طبت حيًا وميتًا، واللهِ لا يجمع الله عليك بين موتتين، أما الموتة التي كتبها الله عليك فقد ذقتها**» ثم إنه خرج إلىٰ الصحابة، وكان عمر ﵁ يتكلم فيهم، فقال: علىٰ رسلك يا أيها المتكلم. في حديث ابن عباس أنه أكمل كلامه -وهو في البخاري- فبدأ أبو بكر في الكلام فانحاز الناس إليه.

وفي حديث عائشة وأيضًا عند البخاري تقول: لما قال: علىٰ رسلك، جلس عمر ﵁. والجمع ممكن وهو أنه جلس بعد أن بدأ أبو بكر ﵁ بالكلام.

ثم قال تلك الخطبة العظيمة الجليلة، التي كان فيها سبب الثبات لمن أصابه ذلك الهم العظيم، وناله ذلك الخطب الفاجع من الصحابة ﵃، فإن الأمر قد بلغ مبلغًا عظيمًا، حتىٰ إن عمر ﵁ أنكر موت النبي ﷺ وقال: واللهِ ما مات، وإنه سيقطع الله ﷻ به أعناق قوم وأيديهم. فقام أبو بكر ﵁ وقال: من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر:٣٠]، وتلا قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ

عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٤٤]، هكذا جاء في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنه تلا الآيتين، وأما في حديث ابن عباس فقد اقتصر علىٰ ذِكْر الآية الثانية.

يقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فوالله لكأن الناس ما ظنت أن هذه الآية نزلت حتىٰ سمعوها من أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولا أجد بشرًا إلا وهو يتلو هذه الآية، كل الناس صاروا يتلون هذه الآية ويرددونها: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٤٤].

إذن: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد مات، وموته أراد الله عَزَّ وَجَلَّ به الخير له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما عند الله خير وأبقىٰ لنبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

المقصود: أن موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثابت بالنص والإجماع، لا شك في ذلك ولا ريب، وكأني بالمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ قد أشار هذه الإشارة إلىٰ موته وبيان الدليل عليه للرد علىٰ أناسٍ من الغلاة الذين جاءوا بقول يخالف العقل ويخالف الفطرة ويخالف الشرع ويخالف الإجماع وهو زعمهم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حي الحياة الدنيوية في قبره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثم أسسوا علىٰ هذا أن من دعاه وطلبه وسأله فإنما هو يدعو حيًا ويسأل حيًا، كالشأن في سؤال الحي للحي، فلا يُعَدُّ هذا من الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قالوا: هل تنكرون أن الشهداء أحياء في قبورهم؟ قال أهل السنة: لا، بل هذا نص كتاب الله: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ

﴿يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩]، والنبي ﷺ أكملُ حالًا وحياة من الشهداء، بل كل ميت مسلمًا كان أو كافرًا فإنه ستُرد إليه روحه بعد موته وهو في قبره، والأدلة على هذا متضافرة.

قالوا: إذا كان الأمر كذلك، فمن جاء إلى قبر النبي ﷺ فدعاه فإنه في الحقيقة إنما دعا حيًا، وعليه فلا وجه للإنكار على من يدعو النبي ﷺ أو يستغيث به!

ولا شك أن هذه شبهة داحضة، وهذا الكلام مخالف للمعقول والمنقول.

أما من جهة المنقول فإن المقطوع به أن النبي ﷺ قد مات، والله ﷻ قد بيَّن هذا في كتابه وأن النبي ﷺ سيموت، وهذا ما جاء في كلام الصحابة رضي الله عنهم، والحديث كما رأيت في «صحيح البخاري»، وأبو بكر رضي الله عنه يقول: ومن كان يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا قد مات. الصحابة يسمعون هذا الكلام وما أنكر أحد، وعليه؛ فالنبي ﷺ بالنقل قد مات.

ثم لو كان النبي ﷺ -كما زعموا- حيًا الحياة الدنيوية في قبره فهو في قبره كما هو فوق الأرض لا فرق، وعليه؛ فإن الأحكام المترتبة في مخاطبته وسؤاله هي هي، ما تغيرت، لو كان ذلك كذلك لكان أصحاب النبي ﷺ كلهم كفارًا، بل صارت هذه الأمة كلها كافرة من لدن الصحابة وابتداءً من أبي بكر إلى ساعة الناس هذه، لم؟ لأن وضع النبي ﷺ في القبر وإهالة التراب عليه وهو حي أليست إهانة له عليه السلام؟ إهانة عظيمة، وإذا رضي المسلمون ابتداءً من الصحابة بهذا ثم استداموه مع علمهم بكونه حيًا في قبره فهذه إهانة وأيُّ إهانة، لو كان

النبي ﷺ حيًا فجاء شخص ووضع حفنة من تراب على رأسه أما كان مهينًا له؟ وأدنى إهانة للنبي ﷺ كفر بالإجماع، فواجب تعزيره، وواجب توقيره، وواجب تعظيمه، فكيف يُترك النبي ﷺ حيًا في قبره ويُمنع من الخروج إلى هذه الدنيا؟ هذا لا شك أنه يقتضي كفر هذه الأمة، بل كفر من كان متكلمًا بهذا الكلام، إذا كان يعتقد أن النبي ﷺ حيٌّ الحياة الدنيوية في قبره فإنه يكفر بهذا؛ لأنه رضي بذلك وما سعى في إزالة هذا المنكر. وهذا لا يقول به عاقل.

وعليه؛ فالحق الذي لا شك فيه أن النبي ﷺ قد مات، شأنه شأن الأنبياء قبله، بل شأنه شأن البشر؛ لأنه من البشر عليه السلام وإن كان أفضل البشر ﷺ.

ماذا نقول فيما جاء في هذه الحياة؟ نقول: حياته ﷺ وحياة الشهداء وحياة الناس في قبورهم حياةٌ برزخيةٌ الله أعلم بحقيقتها، لأنها غيب بالنسبة لنا، ما ذهب أحد إلى تلك الحياة ثم عاد ووصف لنا كيف هي، لكنها ليست هي هذه الحياة الدنيوية، حياة من جنس آخر الله أعلم كيف هي، **ولا تترتب عليها أحكام هذه الدنيا، وقد علمنا فيما مضى أن للروح بالبدن تعلقات خمسة:**

أولًا: تعلُّقُ الروح بالبدن حال كون الإنسان جنينًا في بطن أمه، فإنه إذا مضى عليه مائة وعشرون يومًا يُرسل الملك إليه فينفخ فيه الروح.

التعلق الثاني: تعلُّقُ الروح بالبدن بعد خروج الإنسان وولادته، بعد خروجه من بطن أمه وولادته، وهذا هو التعلق الذي أُنيط به التكليف.

التعلق الثالث: تعلقُ الروح بالبدن حال النوم، فإنها متصلة بالبدن من وجه منفصلة من وجه آخر، ولذا كان النوم موتًا ووفاة صغرى.

التعلق الرابع: تعلقُ الروح بالبدن في البرزخ، يعني: في القبر، لقول النبي ﷺ في حديث البراء بن مالك في الحديث المشهور بحديث البراء الطويل قال: «**فتُعاد روحه في بدنه**» بعد أن يُقبر ويتولىٰ أصحابه قال النبي ﷺ: «**فتُعاد روحه في بدنه**» ولكنَّه عَوْدٌ آخر، ليس التعلق الأول بدليل عقلي: لو كانت هذه الحياة وكان هذا العوْد للروح في البدن هو الذي كان في السابق هل يمكن أن تستمر هذه الحياة؟ إذا كانت الحياة جنسًا واحدًا فوق الأرض وتحت الأرض فينبغي أن نقول: إنه عادت روحه ثم مات مرة أخرىٰ، لماذا؟ ولا يستمر شيء لا نعيم ولا عذاب في البرزخ؛ لأنه في الدنيا لابد أن يعيش الإنسان بالأكسجين، لابد من هواء، ومعلوم أنه في تحت الأرض لو أُعيدت روحه ربما يكون هناك ثواني معدودة ثم بعد ذلك ينتهي الهواء، وبالتالي يكون الموت فلا نعيم ولا عذاب، والأدلة متواترة بثبوت النعيم أو العذاب في القبر، فدل هذا علىٰ أن هذه الحياة من جنسٍ آخر، ليست هي الحياة التي نعهدها، وهذا ظاهر، يُفتح له باب إلىٰ الجنة أو يُفتح له باب إلىٰ النار، نسأل الله العافية! يُمد له في قبره مد البصر، أو يُضيَّق عليه حتىٰ تختلف أضلاعه، كل ذلك متعلق بحياة ليست من جنس هذه الحياة التي نعهدها.

التعلق الخامس: تعلق الروح بالبدن عند البعث، كما جاء في حديث كعب بن مالك، وهو قوله ﷺ: «**إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتىٰ يرجعه الله ﷻ إلىٰ جسده يوم القيامة**»، فهذا أكمل التعلقات، وهو الذي تتعلق به الحياة الخالدة: إما في نعيم لأهل الإيمان، وإما في عذاب لأهل الكفر. نسأل الله السلامة والعافية!

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ [طه:٥٥].

الشَّرح

فإن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ذكر وفاة النبي الكريم محمد ﷺ عقَّب علىٰ هذا بإثبات البعث، وأن الناس إذا ماتوا يُبعثون، وهذا من الأصول العظيمة التي يجب الإيمان بها، وقد علمنا أن الإيمان باليوم الآخر يتضمن فيما يتضمن الإيمان بالبعث وما يكون بعده من الحشر، وما يكون في مواقف القيامة، ثم دخول الجنة والنار، والإيمان بما فيهما من أنواع النعيم أو أنواع العذاب. نسأل الله فضله، ونعوذ بالله من عذابه!

وهذا الأمر قد وقع شيء من إنكاره إبَّان زمان المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنَّ من البادية والجهلة في ذلك الوقت الذي انتشر فيه الجهل فيما حول الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقبل قيام دعوته كان هناك شيء من الإنكار لمسألة البعث، ولذا كان المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُكْثِرُ من الكلام عن هذه المسألة في رسائله؛ لشدة الحاجة إلىٰ بيانها.

المقصود: أن الناس إذا ماتوا يُبعثون، وهذا من الأمر الواجب أن يعتقده كل إنسان.

والبعث: هو إحياء الله عَزَّوَجَلَّ الموتىٰ وإخراجهم من قبورهم للجزاء والحساب. وهذا الأمر أمر قطعي توارد عليه النقل والعقل.

أما ما جاء في النقل فإنَّه كثيرٌ جدًا، والمؤلف ﷺ أورد من ذلك ما سنتكلم عنه إن شاء الله.

وكذلك دل العقل على ذلك، فإن العقل السليم سوف يسلِّم ويذعن بأنه لابد أن تكون بعد هذه الحياة حياة أخرى، لا يمكن أن يوجد هذا الكون بما فيه من إبداع وإتقان ووجود هذه المخلوقات الكثيرة والعجيبة وما يكون من حوادث، وما يكون من أعمال، وما يكون من ظلم، ثم ينتهي كل ذلك ولا شيء وراء ذلك، هذا أمر يتنافى والحكمةَ عند كل عاقل.

وهذا الكون خلقه حكيم قطعًا، كل ما في الكون ينادي بأن الخالق حكيم ﷻ، إذن لابد أن يكون هناك حياة بعد هذه الحياة يكون فيها حساب ويكون فيها جزاء، وينال كل إنسان ثواب ما عمل إن صالحًا وإن سيئًا.

ويتبع البعثَ الحشرُ، والحشر هو: سَوْقُ الناس إلى أرض المحشر، ثم قيامهم في أرض المحشر ينتظرون أن يأذن الله ﷻ بفصل القضاء.

والله ﷻ قد بيَّن في كتابه في آيات كثيرة ثبوتَ الحشر، يعني: بعد أن يقوم الناس من قبورهم وأول من تنشق عنه الأرض هو نبينا محمد ﷺ كما ثبت هذا في «الصحيح»، ثم يقوم الناس من قبورهم وهيئتهم كما أخبر النبي ﷺ، سيكونون حفاة عراة غرلًا، حفاة بلا نعال، وعراة بلا ثياب، ثم يُكسَوْن، وأول من يُكسى -كما في «الصحيح» عنه ﷺ- إبراهيم عليه السلام، وقال علي رضي الله عنه: «**أول من يُكسى إبراهيم ثم محمد صلى الله عليهما وسلم**».

والصفة الثانية: أنهم يكونون غرلًا، (غرلًا) جمع أغرل، والأغرل هو غير المختون، ليتحقق قوله ﷻ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

يقوم الناس من قبورهم وقد تركوا كل شيء كانوا يملكونه في هذه الحياة، ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام:٩٤]، كل ما كان عند الإنسان من أموال ومن مكاسب ومن ذهب ومن فضة ومن ثياب كل ذلك سيتركه الإنسان وراء ظهره، ويلقىٰ الله ﷻ وهو خالي الوفاض ليس معه شيء.

ويُحشرون إلىٰ أرض المحشر، وأرض المحشر وصفها النبي ﷺ بقوله: «يُحشر الناس علىٰ أرض بيضاء عفراء كقُرْصة النّقِيِّ ليس فيها معلَم لأحد».

(بيضاء عفراء) يعني: البياض ليس ناصعًا، إنما هو بياض يضرب إلىٰ الحمرة.

(كقرصة النقي) كالخبزة المصنوعة من الدقيق الصافي.

(ليس فيها معلَم لأحد) والمقصود أن ما يعرف الناس به الأماكن ويهتدون به في الدنيا سوف يزول، فلا توجد معالم، الأرض كلها شيء واحد، شيء مستوٍ، وثبت عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه أخبر عن هذه الأرض التي يُحشر الناس عليها وهي التي قال الله ﷻ عنها: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:٤٨]، أخبر أنها بيضاء كالفضة، لم يُسفك عليها دم، ولم يُعصَ الله ﷻ فيها، هذه هي الأرض التي يُحشر الناس عليها يوم القيامة.

فإذا حُشِروا طال المقام، وعَظُمَ الكرب، واشتد الأمر، حتىٰ إن الناس

يصيبهم الغم الشديد، وينالهم العَرَق، فالشمس تدنو منهم حتىٰ تكون منهم علىٰ قدر ميل، والله أعلم أهو ميل المسافة أم ميل المكحلة.

والناس يتفاوت حالهم في العَرَق، منهم من يبلغ عرَقُه كعبيه، ومنهم من يبلغ عرَقُه ركبتيه، ومنهم من يبلغ عرَقُه حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا.

وثمة طائفة يجعلهم الله ﷻ في منأىٰ من هذه الشدة، هؤلاء هم المتقون، هؤلاء هم المحسنون، ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ٨٥﴾ [مريم:٨٥] يعني: مُكْرَمِين. وجاءت حالة أخص في شأن هؤلاء المتقين وهم السبعة الذين يظلهم الله ﷻ في ظله يوم لا ظل إلا ظله، نسأل الله ﷻ من فضله .

فإذا اشتد الكرب تنادىٰ الناس فيما بينهم: هلموا نستشفع إلىٰ ربنا، فيذهبون إلىٰ آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسىٰ ثم عيسىٰ، وكُلٌّ يعتذر، وكُلٌّ يقول: نفسي نفسي، وكُلٌّ يذكر ذنبًا أذنبه إلا عيسىٰ عليه السلام، وكُلٌّ يقول: إن الله غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وكُلٌّ يرشِد إلىٰ الآخَر، حتىٰ تَصِل النوبة إلىٰ سيد الأنبياء وإمامهم إلىٰ نبينا محمد ﷺ فيقول: «**أنا لها**» فينطلق فيسجد تحت العرش ويحمد الله ﷻ بمحامد يفتحها عليه، ثم يأذن الله ﷻ بالشفاعة، يقول سبحانه: «**يا محمد، ارفع رأسك، وسل تعط، وقل يُسمع، واشفع تُشفَّع**»، ثم يكون بعد ذلك ما سيذكره المؤلف رحمه الله من الحساب والجزاء.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ۝٥٥﴾ [طه:٥٥]، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾ [نوح:١٧-١٨].

الشَّرح

هاتان الآيتان تدلان علىٰ أن مبدأ الخلق للناس ومبدأ خلقهم كان أباهم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان من الأرض، يعني: من ترابها، ثم ستكون العودة إلىٰ هذا الأصل، ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه:٥٥]، أصل بني آدم ، أبوهم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ خلقه الله عَزَّ وَجَلَّ من تراب، ثم يعود الناس إلىٰ الأصل الذي خُلِقوا منه، ثم يأذن الله عَزَّ وَجَلَّ بخروج الناس مرة أخرىٰ إذا تحللوا، وهذا شأن عامة الناس إلا من خصهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والنص جاء في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فالأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، ومن عدا ذلك فالأمر في حقه جائز، يجوز أن يخص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من شاء من خلقه بهذه النعمة والكرامة.

المقصود: أن الأرض تأكل أجساد الناس، فتعود أجسادهم مرة أخرىٰ ترابًا، اللهم إلا قطعة صغيرة كحبة الخردلة هي عَجْب الذَّنَب، وجاء في رواية: عجْم الذَّنَب، هذه القطعة من العظم صغيرة هي رأس ما يُسمىٰ بالعُصْعُص، هذه لا تأكلها الأرض ومنها يُركَّب الخلق، إذا شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قيام الساعة فقُبَيْلَ ذلك يرسل الله عَزَّ وَجَلَّ ماءً كالطلِّ أو كالظل منه تنبت أجساد بني آدم، فيتكاملون في

الأرض ثم إنهم يخرجون إذا أذن الله ﷻ، والبعث إنما يكون بسبب وهو النفخ في الصور، إذا نُفِخ في الصور أذن الله ﷻ بحياة هؤلاء الناس وخروجهم من قبورهم.

المقصود أنَّ ابتداء الخلق كان من هذا التراب، والأدلة دلت علىٰ أن آدم عليه السلام مادة خَلْقِهِ كانت ترابًا، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾[آل عمران:٥٩]، ثم إن هذا التراب بُلَّ فصار طينًا، وهذا الطين جاء وصْفه بأنه حمأٌ مسنون، الحمأ هو: الطين الذي يضرب إلىٰ السواد، والمسنون قيل: إنه الأملس، وقيل: إنه المُنتن، وقيل: إنه المُصوَّر، وقيل غير ذلك.

ثم إن هذا الطين يكون لازبًا، لازبًا يعني: لزجًا، الطين اللازب أو اللزج هو الذي إذا خلطته فإنه يلصق بيدك، هذا هو الطين اللازب، ثم إنه يَيْبَسُ فيكون صلصالًا، والصلصال هو الطين الذي يصير يابسًا، فسمي صلصالًا؛ لأنه إذا ضُرِب أصدر صوتًا هو الصلصلة، إذا ضربته صار له صوت، هذا ابتداء خلْق آدم عليه الصلاة والسلام وقد خلقه الله ﷻ بيده، كما دل علىٰ هذا الدليل من الكتاب والسنة.

المقصود: أن الله ﷻ خلق الخلق ، ابتداؤهم ومبدأ نشأتهم كانت من هذه الأرض من ترابها، ثم إن الله ﷻ يعيد الخلق إلىٰ هذه الأرض، ثم إنه يكون النشأة الأخرىٰ -أيضًا- من هذه الأرض، فيخرجون منها ويقومون لرب العالمين ﷻ، ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ [نوح:١٧-١٨] ثم ماذا يكون؟ ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح:١٨].



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ۝٣١﴾ [النجم:٣١].

الشرح

ثم بعد ذلك يكون الحساب فالجزاء، إذا أذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالحساب فإن هذا المقام مقامٌ عظيم.

والحساب ينقسم إلىٰ قسمين كما دل علىٰ هذا سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قال كما في «الصحيحين»: «ليس أحد يُحاسب يوم القيامة إلا هلك»، قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: يا رسول الله، أليس الله تعالىٰ يقول: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق:٨]، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنما ذلكِ العرض، وليس أحد يُحاسب يوم القيامة إلا عُذِّب».

إذن: هذا الحديث يدلنا على أن الحساب يوم القيامة نوعان:

النوع الأول: العرض، وهذا هو الحساب اليسير الذي بيَّن الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه فقال: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق:٨]، نسأل الله من فضله! وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو في صلاته أن يحاسبه الله حسابًا يسيرًا، فكان يقول: «اللهم حاسبني حسابًا يسيرًا»، وهذا من السنة أن يدعو الإنسان به في صلاته لعل الله سبحانه أن يمنَّ علىٰ هذا الداعي، وأسأله أن يمن عليه وعلينا بهذا الحساب

اليسير، وهذا الحساب اليسير هو: أن تُعرض الأعمال علىٰ ابن آدم ثم يُسامَح ويعفىٰ عنه، أن تُعرض عليه أعماله ثم تكون المسامحة ويكون العفو.

ومِن مثال ذلك، مما يدل علىٰ هذا ويوضحه ويبينه حديث النجوىٰ، حديث ابن عمر رضي الله عنهما الثابت في «الصحيحين»، وفيه أن النبي ﷺ أخبر أن الله عز وجل يدني عبده يوم القيامة إليه ويضع عليه كَنَفه ويقرره بذنوبه فيقول: «**عملت كذا يوم كذا وكذا، عملت كذا يوم كذا وكذا**»، يقرره الله بذنوبه ويذكره ما نسي من ذلك، والعبد لا يملك إلا أن يقول: أعرف ربي، أعرف ربي، ثم يقول الله عز وجل: «**قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**»، نسأل الله من فضله! هذا العرض، هذا الحساب اليسير.

وأما النوع الثاني فهو المناقشة، -**إذن:** عندنا حساب عرض وحساب مناقشة-، وهذا النوع بمعنىٰ التدقيق وعدم المسامحة، حساب فيه تدقيق وتشديد مع عدم المسامحة، ومَن الذي ينجو إذا حوسب هذا الحساب؟ من الذي يسلم من تَبِعة حساب كهذا؟ إذا دقق الله سبحانه علىٰ ابن آدم وشدد عليه في حسابه وحاسبه علىٰ كل صغير وكبير، علىٰ كل الواجبات هل أداها علىٰ الوجه المطلوب، علىٰ كل المنهيات هل انكفَّ عنها تمامًا، علىٰ نِعَم الله عز وجل هل أدىٰ شكرها؟ **إذن:** علىٰ الصغير والكبير يُدقَّق عليه ولا مسامحة، يأخذ الإنسان حقه، لكن من الذي يسلم مِن حسابٍ هذا شأنه؟ فإن التقصير هو الغالب علىٰ بني آدم، فلا أحد يُحاسب هذا الحساب إلا كانت النتيجة الهلاك ولابد؛ لأن حق الله عز وجل عظيم، وابن آدم مقصِّر في حق الله عز وجل.

ومن مثال هذه المناقشة: ما ثبت في «الصحيح» من حديث الثلاثة الذين هم أول من تُسعَّر بهم النار يوم القيامة -نسأل الله السلامة والعافية- وهم: القارئ، والثاني: المنفق، والثالث: المجاهد، إذا عرَّفهم الله ﷻ نعمته عليهم في مقام الحساب كل واحد يدلي بحجته، لكن الله ﷻ يكذِّبه في ذلك ويقول سبحانه: كذبت، وإنما فعلت لكذا وكذا، يبين له الغرض، المجاهد ليقال جريء، والمنفق ليقال منفق، والقارئ ليقال قارئ، ثم لا تكون مسامحة، يُسحب إلىٰ النار، نسأل الله السلامة والعافية! هذا حساب مناقشة، من دُقِّق عليه وشُدِّد عليه في الحساب فالنتيجة أنه يهلك، والعياذ بالله!



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم:٣١].

الشَّرح

بعد الحساب: الجزاء، والجزاء من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ وعدله جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له ميزانًا يتجلىٰ به عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ميزان عظيم لو وُزِنت في السماوات والأرض لوزنت كما جاء في «مستدرك الحاكم».

والميزان له كفتان توضع في إحداهما الحسنات وفي الكفة الأخرىٰ السيئات وتثقل أو تخف، هذه الكِفَّة تثقل أو تخف بحسب ما يوضع فيها، والجزاء بحسب ذلك، **والناس منقسمون في هذا إلى ثلاثة أقسام:**

القسم الأول: من ترجحت حسناته علىٰ سيئاته، فمن ترجحت حسناته علىٰ سيئاته ولو بواحدة فهو إلىٰ الجنة مباشرة، هؤلاء أهل السعادة، نسأل الله من فضله .

القسم الثاني: من ترجحت سيئاته علىٰ حسناته فهؤلاء أهل البليَّة والمحنة، فمن ترجحت سيئاته علىٰ حسناته فإنه متوعَّد بالنار.

القسم الثالث: من تساوت حسناته وسيئاته، وهذا ما أفتىٰ في شأنه أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورضي الله عنهم بأنهم يكونون من أصحاب الأعراف، يمكثون علىٰ الأعراف مرتَفع بين الجنة والنار مدة يشاؤها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثم يكون مآلهم إلىٰ الجنة.

إذن: الناس يحاسَبون ثم هم مجزيون، **والجزاء ينقسم فيه الناس إلى قسمين:**

١. منهم من يخصه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ برحمته.

٢. ومنهم من يخصه الله عَزَّ وَجَلَّ بعدله.

إذن: الناس في الجزاء بين مَن يعامَل بالعفو والرحمة، ومنهم من يعامَل بالعدل، وأهل السعادة هم الذين عاملهم الله عَزَّ وَجَلَّ برحمته، وأهل الشقاء سواء كان لهم الشقاء المطلق أو كان لهم مطلق الشقاء هؤلاء عاملهم الله عَزَّ وَجَلَّ بعدله، ثم إن كانوا من أهل الإيمان فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -وهؤلاء هم أهل مطلق الشقاء الذين شاء الله عَزَّ وَجَلَّ تعذيبهم ولم يعفُ عنهم- هؤلاء تدركهم رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعد ذلك، فيكون مآلهم -إذا بقوا في النار ما شاء الله أن يبقوا- بعد ذلك إلى الجنة، إما بسبب شفاعة لشافع، وإما بمحض رحمة أرحم الراحمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ٣١﴾ [النجم:٣١].

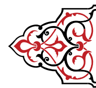
مر بنا الكلام عن الحكمة من خلق الخلق، **وقلنا: إن الحكمة ترجع إلى أمرين:**

١) إلىٰ مرادٍ من العباد.

٢) ومُرادٍ بالعباد.

هذه الآية دلت علىٰ المراد بالعباد، ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ٣١﴾ [النجم:٣١]، هذا ما أراد الله عَزَّ وَجَلَّ بالخلق، وأما ما أراده الله من الخلق فهو عبادته، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات:٥٦].



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: 

وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن:٧].

الشَّرح

من كذَّب بالبعث فقد كفر، وهذا إجماع معلوم من الدين بالضرورة، من كذَّب بالبعث أو ما يتبعه من الحشر والحساب والميزان والجنة والنار فلا شك في كفره، لأنه قد كذَّب الله وكذَّب رسول الله ﷺ.

وإنكار البعث أعظم ما أنكره المشركون بعد التوحيد، ليس ثمة شيء أنكره المشركون بعد البعث كالتوحيد، حتىٰ إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أخبر عنهم أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم، أعظم الأيمان والحلف والأقسام كانت منهم علىٰ ماذا؟ ﴿لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ [النحل:٣٨]، يا لله العجب! انظر إلىٰ السُّخْف وضعف العقل، من أين لهم؟ أين العلم الذي بنوا عليه هذا الحكم المؤكد؟ هل أحد مات ثم عاد إليهم فأخبرهم أنه لا يوجد شيء ليس هناك بعث وليس هناك حشر وليس هناك حساب وليس هناك جزاء؟ **إذن:** هذا من سُخْف عقلهم أن أنكروا شيئًا ليس لهم علم به، بل العلم يدل علىٰ ضد ما أقسموا عليه من هذا الإنكار، أقسموا علىٰ هذا الإنكار ولا شك أن العلم علىٰ ضد ذلك، العلم الذي دل عليه الخبر الصادق، والعلم الذي أرشد إليه العقل الصحيح.

أما الخبر الصادق: فإن كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وسنة رسوله ﷺ مشحونة ببيان أن ثمة بعثًا وحشرًا وحسابًا وجزاءً، وليس هناك ما يعارض هذا أصلًا، إذا كان خبرٌ من

صادق ليس له معارض وجب التسليم والإذعان عند جميع العقلاء، هذا كتاب الله، هذه سنة رسول الله ﷺ وفيها مئات أو آلاف الأخبار التي ما تخلّف منها خبر واحد عن الصدق، كل خبر جاء في الكتاب والسنة وامتحنه هؤلاء أعداء الله والله لا يجدون، ما وجدوا ولن يجدوا شيئًا كاذبًا.

إذن: ما الذي يحملهم على أن يقطعوا بأن هذا الخبر كذب؟ ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ [التغابن:٧]، حَكَمَ الله بكفر من نفى وأنكر البعث، ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفرُوا﴾ [التغابن:٧]، **إذن:** من أنكر البعث فقد كفر.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ [التغابن:٧] قال الله: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧]، بيَّن الله ﷻ ثبوت البعث في قوله: ﴿بَلَىٰ﴾ وأكَّدَ ذلك بالقسم، أقسم سبحانه بأعظم ما يُقسم به وهو ذاته العليَّة ﷻ، ﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧] أُكِّدَ هذا -أيضًا- باللام الموطئة للقسم، وأُكِّد هذا -أيضًا- بالنون، انظر هذه المؤكدات المتواليات، ﴿لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ [التغابن:٧]، واعلموا أن هذا شيءٌ يسير، ﴿وَذَلِكَ عَلَىٰ اللهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧] ليس شيئًا صعبًا.

كذلك العقل قد أرشد إلىٰ هذا، وفي القرآن مسالك ثلاثةٌ تدل علىٰ أنَّ البعث ممكن عقلًا، وهذا مما ألزم الله ﷻ به المشركين في كتابه، فتوارد إذن علىٰ البعث: دليل النقل، ودليل العقل.

أما النقل فإن الله ﷻ أرشد العقول إلىٰ أن تتأمل في ثلاثة أمور تدل علىٰ أن البعث ممكن وليس بأمر مستحيل، وليس بأمر معجز علىٰ الله ﷻ.

أما الأمر الأول: فهي دلالة عقلية قطعية وهي: أن مَن قَدِرَ علىٰ الابتداء فهو علىٰ الإعادة أقدر. أنتم يا معشر المنكرين، يا أيها المشركون الذين تقولون: لا بعث، تسلِّمون بأن الله أوجد الإنسان من عدم، خلقه ﷻ بعد أن كان عدمًا ليس موجودًا، فإذا كان ذلك يسيرًا علىٰ الله ﷻ فلأن يكون إعادته بعد أن كان موجودًا وتركيبه من جسد كان موجودًا أو ما بقي من جسد كان موجودًا لا شك أنه أسهل علىٰ الله ﷻ وأيسر علىٰ الله ﷻ، ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾ [التغابن:٧] والله ﷻ ليس هناك شيء يصعب عليه أو علىٰ قدرته جل ربنا، ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾ [التغابن:٧].

هذا هو الأمر الأول.

الأمر الثاني: أنتم يا معشر المنكرين، يا معشر المشركين الذين أنكرتم البعث تسلِّمون بأن الله خلق السماوات والأرض، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ [لقمان:٢٥]، والعقل يُذْعِنُ ويسلِّم بأن من قَدِرَ علىٰ خلق العظيم فهو علىٰ خلق ما دونه أقدر، ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]، فأين الإنسان وأين خلْقه من خلق هذا الكون العظيم وهذه السماوات وهذه الأرض، هذه المجرات وهذه الشمس وهذا القمر وما في ذلك من الإتقان والإبداع، ما في هذه المخلوقات من السعة وأنواع الخلْق العجيب، أين هذا من خلْق الإنسان؟ فمن قَدِرَ علىٰ خلق العظيم فهو علىٰ خلْق ما دونه أقدر.

الأمر الثالث: أن الله ﷻ أنبت من الأرض النبات، وإذا كان ذلك يسيرًا عليه فإن إخراج الناس وإنباتهم من الأرض -أيضًا- يسير عليه، هذا شأنه كهذا، ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧﴾ [نوح:١٧]، وقد جمع الله ﷻ هذه الدَّلالات الثلاث في كتابه في سياق واحد، قال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨] انظر إلىٰ هذا الاستفهام الذي ساقوه مقام السخرية، استفهام أنكروا به ويسخرون ويستهزئون: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨﴾ [يس:٧٨]، قال سبحانه: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩]، هذه الدلالة الأولىٰ. ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ٨٠﴾ [يس:٨٠] هذه الدلالة الثالثة. ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [يس:٨١] هذه الدلالة الثانية.

إذن: دل النقل ودل العقل علىٰ إمكان البعث، فكيف إذا أضفنا إلىٰ هذا دليل الحس وهو أن الله ﷻ قد أمات من أمات من خلقه ثم أحياهم وأرجعهم إلىٰ هذه الحياة، وفي سورة البقرة فقط خمس قصص في هذا الباب فيها إعادة الحياة للناس، من كان فردًا ومن كانوا جماعة، فيها إعادة لحيوان وهو الحمار، فيها إعادة الحياة لطيور، ناهيك عما سوىٰ ذلك في كتاب الله ﷻ كل ذلك يدل علىٰ أن هذا الأمر إذا أمكن في هذه الحياة فما الذي يجعله مستحيلًا بعد الموت؟ وهذه القصص مما تناقلته الأمم، والعرب كانت عندهم عناية بالأخبار

والقصص، ومثلُ هذه الأحداث العظيمة العجيبة الغريبة مما تقوم الدواعي وتتوافر الدواعي على تناقله وبثِّه بين الأمم وما ثبت عن واحد قط من المشركين أنه كذَّب القرآن أو ادعى أن النبي ﷺ كاذب في هذه الأخبار، فدل هذا على توارد النقل والعقل والحس على إثبات البعث بعد الموت، والله أعلم.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾ [النساء:١٦٥].

الشَّرح

أرسل الله ﷻ الرسل مبشرين ومنذرين، أرسل الرسل ومن حكمة إرسالهم أن يكونوا مبشرين، أرسلهم بالبشارة، وأن يكونوا منذرين، أرسلهم بالنذارة.

والبِشارة: إعلامٌ بما يسر.

والنذارة: إعلام بما لا يسر.

والأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام أرسلهم الله ﷻ ومن حكمة إرسالهم: أن يبشروا الناس بفضله ﷻ على الذين يوحِّدون ويؤمنون ويطيعون، ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأحزاب:٤٧] هذا خطاب للنبي ﷺ، ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأحزاب:٤٧]، فهذا مما أمر الله ﷻ به المرسلين أن يكونوا مبشرين.

كذلك أمرهم الله ﷻ أن يكونوا منذرين، يقومون بواجب النصيحة فيبينون للناس أن من عصى الله ﷻ وخالف أمره وصد عن سبيله فإن مآله إلى شر، وإن مآله إلى عذاب، وهذا من الله ﷻ دليل على عدله ﷻ، وأن الله سبحانه يحب الإعذار، قال النبي ﷺ كما في «الصحيحين» من حديث المغيرة رضي الله عنه: «لا أحدَ أحبَّ إليه العذر من الله، ولأجل ذلك بعث المرسلين مبشرين ومنذرين»،

الله يحب الإعذار، يحب أن تقوم الحجة علىٰ الناس حتىٰ لا يدَّعيَ أحد أنه قد ظُلم، وأنه ما أتاه من نذير، وأنه ما قامت عليه الحجة، الله ﷻ يحب هذا الإعذار، بل لا أحد أحب إليه العذر منه ﷻ.

وثبت في «مسلم» -وأظنه من حديث ابن مسعود- أنه قال: «لا أحد أحب إليه العذر من الله ولأجل ذلك أنزل الكتب وأرسل الرسل».

المقصود: أن الله ﷻ أقام الحجة وأزال العذر، ليس لأحد عذر في أن لا يستجيب لأمر الله ﷻ، أنزل الكتب، أرسل الرسل، أعطىٰ العقول والأسماع والأبصار، مكَّن من الهداية، جعل أسبابها يسيرة سهلة.

إذن: باب الخير مفتوح لمن أراده، فإذا أعرض الإنسان بعد كل ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه، هو الذي يتحمل تبعات ما عمل، ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فصلت:١٧] الله ﷻ بصَّرهم وأعلمهم، جاءتهم البشارة، جاءتهم النذارة لكنهم أعرضوا، ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فصلت:١٧]، هذه هي هداية الدلالة والإرشاد، ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧] غلبت شقوتهم عليهم، نسأل الله السلامة والعافية! فأعرضوا عما أمر الله ﷻ به، فكانت خاتمة أمرهم سوءًا، والعياذ بالله!

إذن: الله ﷻ من حبه للإعذار أرسل الرسل مبشرين ومنذرين.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَأَولُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لا نَبِيَّ بَعْدَهُ، والدليل قوله تعالىٰ:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠].

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣].

الشَّـرح

بيَّن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هاهنا أن أول المرسلين نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، واستدل علىٰ هذا بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣]، وثبت في «الصحيحين» دليل صريح علىٰ هذا وهو: أن الأنبياء -في حديث الشفاعة إذا جاءوا إلىٰ نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقولون له: أنت أول رسول بعثه الله إلىٰ أهل الأرض.

إذن: هذا دليل علىٰ أنه أول المرسلين، ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ [النساء:١٦٣] ذكر الله جَلَّ وَعَلَا في هذه الآية أول المرسلين وذكر آخرهم، نوح أول المرسلين وآخرهم نبينا ﷺ، ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ فالخطاب موجَّه إلىٰ آخرهم وهو نبينا ﷺ.

فالنبي ﷺ آخر المرسلين، ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠]، ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ يعني: خاتِم النبيين، وخاتَمُ النبين وخاتِم النبيين ﷺ، قراءتان سبعيتان: خاتَم النبيين وخاتِم النبيين ﷺ. فهو آخِر الأنبياء والمرسلين ومن خُتِمت الرسالة به ﷺ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا رَسُولًا -مِنْ نُوحٍ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ- يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

الشَّرْح

كل الأمم، لا توجد أمة إلا بعث الله عَزَّ وَجَلَّ فيها رسولًا، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل:٣٦]، وقد علمنا في أصول الفقه أن كلمة (كل) من أدوات العموم. وقل مثل هذا في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر:٢٤].



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَىٰ جَمِيعِ الْعِبَادِ: الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ، وَالإِيمَانَ بِاللهِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «مَعْنَىٰ الطَّاغُوتِ: مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ -مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ-».

الشَّرح

لما بيَّن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الله عَزَّ وَجَلَّ بعث المرسلين وأمرهم بأن يأمروا الناس بعبادة الله عَزَّ وَجَلَّ، وأن يكفروا بالطاغوت، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يبين ما هو هذا الطاغوت، ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] قلنا: هذه الآية فيها دليل علىٰ أمر مهم وهو: أن التوحيد لا يكون توحيدًا إلا باجتماع أمرين: النفي والإثبات، البراء والولاء، البغض والمحبة، التجريد والتفريد، التخلية والتحلية.

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ هذا الإثبات، ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ هذا النفي، لابد من اجتماع الأمرين حتىٰ يكون التوحيد توحيدًا، نفي فقط لا ينفع، وإثبات فقط لا ينفع، الإثبات فقط، من اعتقد أن الله عَزَّ وَجَلَّ إله وما زاد علىٰ هذا ما انتفع، لأن هذه العقيدة تعني أن الله إله لكنها لا تنفي أن يكون غيره -أيضًا- إله، **إذن:** لابد من اجتماع الأمرين: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ وهذا هو ما بيَّنته كلمة التوحيد التي هي مفتاح الإسلام ومفتاح دار السلام: لا إله إلا الله.

قال ﵀ في تعريف الطاغوت: إنه ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود أو متبوع أو مطاع.

هذا التعريف تعريف ابن القيم ﵀ في كتابه «إعلام الموقعين»، نقله المؤلف ﵀ عنه.

الطاغوت مأخوذ من الطغيان، هو علىٰ وزن فَعَلوت، مثلما تقول: ملكوت، رحموت، هذه الصيغة صيغة تدل علىٰ التكثير والمبالغة، فالطاغوت: من كان كثير الطغيان، والطغيان في اللغة: مجاوزة الحد، ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة:١١] (طَغَا) زاد وخرج عن حدوده، ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة:١١].

إذن: الطاغوت يدل علىٰ مبالغة في مجاوزة الحد.

الطاغوت هو أكثر الكافرين كفرًا، سُمِّي الطاغوت طاغوتًا؛ لأن كفره ليس كفرًا كغيره، هو مبالغة في الكفر، تجاوز الحد في الكفر حتىٰ صح وصْفه بأنه طاغوت، بلغ حدًا عظيمًا من الكفر، ليس كغيره، هناك من يشرك بالله ﷻ فيكفر، لكن هناك من يكون طاغوتًا، يكون كفره فيه مبالغة، نسأل الله السلامة والعافية!

قال: (**مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ**) يعني: ما جُعِل فوق حدِّه في أمور معينة، هذا هو الطاغوت، الله ﷻ حد حدودًا وأمر بعدم تعدِّيها، ومن ذلك: أن ما سوىٰ الله ﷻ يجب أن يُعتقد أنه عابد لا معبود، فإذا جاء إنسان فجعل غير الله ﷻ معبودًا إذن نقول: هو تجاوز بهذا الشيء الحد الذي حدَّه الله ﷻ، تجاوز العبدُ حدَّه في هذا الإنسان أو في هذا الشيء حتىٰ جعله معبودًا لا عابدًا، كذلك في باب الاتباع، كذلك في باب الطاعة.

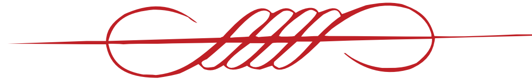
(**مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ**) الحدُّ الذي حدَّه الله ﷻ أن يكون الاتباع للعلماء في حدود ما أمر الله ﷻ، يُتْبَعون أو يُتَّبعون في ما يبينون من أحكام الله ﷻ، فيكون اتباعهم تبعًا لطاعة الله ورسوله ﷺ، فإذا تجاوز العبد حده في عالِم فاتبعه في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله نقول: تجاوز العبد حدَّه في هذا العالِم فكان في حقه طاغوتًا.

كذلك في شأن الطاعة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء:٥٩]، الطاعة للحكام وللأمراء يجب أن تكون في حدود ما بيَّن الله ﷻ، الحدود التي حدَّها الله ﷻ للطاعة أن تكون في غير معصية الله ﷻ، فإذا جاء إنسان فجعل مُطَاعَه، جعل هذا الحاكم مرفوعًا عن هذه الدرجة بحيث أنه يطيعه في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله يكون قد تجاوز حده به، فيكون طاغوتًا في حقه.

إذن: نستطيع أن نعيد هذا التعريف فنقول: الطاغوت: هو مَن عُبِد مع الله، أو اتُّبِع. قال: (معبود أو متبوع أو مُطاع) (متبوع) قال العلماء: في شأن العلماء، (مطاع) في شأن الحكام والأمراء.

إذن: نستطيع أن نعيد هذا التعريف، نصوغه بصيغة أخرىٰ فنقول: هو الذي يُعبد من دون الله، وهذا له قَيْدٌ سيأتي في كلام المؤلف ؒ: إذا كان عُبِد مع الله ﷻ برضًا منه أو دعوة منه، ترشح للعبادة وقال للناس: اعبدوني، أو كان راضيًا بهذا ولو لم يكن قد دعاهم إلىٰ ذلك.

إذن: من عُبِد مع الله -بالقيد الذي ذكرنا وسنتكلم عنه- أو اتُّبِع في تحليل ما حرم الله أو تحليل ما حرم الله وكذلك أُطيع في هذا الأمر وهو تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله، هذا هو الطاغوت، وهذا اسمُ جنس يندرج تحته أشياء كثيرة، لكن هناك رؤوس لهؤلاء الطاغوت سيذكرهم المؤلف رحمه الله.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرَةٌ، وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ.

الشَّرح

أولًا: إبليس رأس الطواغيت وأكبر الطواغيت، هو كافر بالله ﷻ لكن كفره ليس كفرًا كغيره، هو كفر مبالَغ فيه، كفر عظيم، ومعلوم أن إبليس قد عُبِد مع الله ﷻ وهو راضٍ، وهو الذي زيَّن عبادة غير الله ﷻ.

أولًا: عُبِد بشكل مباشَر، هناك من عبد الشيطان في القديم والحديث، واليوم هناك فرقة تسمىٰ عبدة الشياطين، يعبدون الشيطان، والعياذ بالله! يقدسونه ويسجدون له في خزعبلات وترهات هم عليها، نسأل الله السلامة والعافية!

إذن: الشيطان قد يُعبد بصورة مباشرة، وقد تكون عبادته بطاعته فيما يزيِّنه من معصية الله سبحانه وتعالى ومن الكفر بالله ﷻ، ما وقع كفرٌ ولا شرك ولا معصية إلا والشيطان هو الذي زيَّن ذلك للناس، ولأجل هذا يقول الله سبحانه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس:٦٠]، **إذن:** الشيطان يُعبد من خلال هاتين الصورتين:

إما بأن يُعبد مباشرة.

وإما أن تكون عبادته بطاعته في معصية الله ﷻ، لأنه هو الذي زيَّن كل ذلك، كل من كفر بالله، كل من سب الله، كل من تمرد علىٰ الله، ولاحظ أن إبليس نفسه ربما لم يبلغ في حال قوله مع الله سبحانه وتعالى لما كلم الله ﷻ قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ [ص:٨٢]

﴿قَالَ رَبِّ﴾ [الحجر:٣٩]، لاحظ أنه عنده حد، هو كفر بالله ﷻ بالاستكبار، لكن ما بلغ الحد الذي بلغ إليه في تزيينه التمرد علىٰ الله، فهو الذي زيَّن لبعض الكفار أن يسب الله، أو أن ينكر وجود الله ﷻ وهو في نفسه ما كان منه ذلك، كان يخاطب الله ﷻ بقوله: بعزتك، كان يخاطبه بقوله: رب، لكنه زيَّن لبعض بني آدم أن ينكروا وجود الله، أو أن يقدحوا في الله، أو أن يسبوه، تعالىٰ الله عن ذلك علوًا كبيرًا!.

إذن: إبليس أول الطواغيت.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ.

الشَّرْح

(مَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ) يعني: أن الناس قاموا بين يديه عابدين يسجدون ويركعون، يتوجهون إليه بأنواع العبادة من خوف السر وغير ذلك، أو يحبون هذا المعبود محبة عظيمة لا تكون إلا لله ووافق هذا منه رضًا وسرورًا، وافق وأعجبه ذلك، هذا -والعياذ بالله- يكون طاغوتًا.

وعليه؛ فالذي عُبِد وهو غير راض لا يسمىٰ طاغوتًا، فالملائكة قد عُبِدوا وهم كارهون، الأنبياء والمرسلون عُبِدوا وهم كارهون، كثير من الأولياء والصالحين عُبِدوا وهم كارهون، فهؤلاء ليسوا طواغيتًا، إنما الطاغوت هو الذي يُعبد وهو راض.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

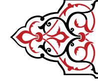
وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَىٰ عِبَادَةِ نَفْسِهِ.

الشَّرْح

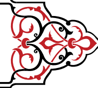
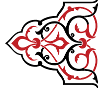
(وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَىٰ عِبَادَةِ نَفْسِهِ) يعني: ترشح للعبادة وقال للناس: أنا أهلٌ أن أُعبد، اعبدوني كما كان من فرعون قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النازعات:٢٤]، واشتد غضبه أن يُتخذ إله غيره، قبحه الله! فهذا -أيضًا- طاغوت.

إذن: من عُبِد وهو راض فهو طاغوت ولو لم يدْعُ إلىٰ عبادة نفسه، ومن دعا إلىٰ عبادة نفسه فهو طاغوت ولو لم يُعبد، لو فرضنا أنه تقدم للناس وقال: أنا أهلٌ للعبادة فاعبدوني وما التفت إليه أحد، نقول: هو طاغوت.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: 

وَمَنْ ادَّعَىٰ شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ.

 الشَّرْح 

(وَمَنْ ادَّعَىٰ شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ) الرأس الرابع للطواغيت: من ادعىٰ علم الغيب، والغيب -كما قد علمنا- هو ما غاب عنك من أمرٍ ماض أو أمر مستقبل، وهذا الموضوع البلية به عظيمة، وذلك أن هؤلاء الطواغيت الذين يدَّعون علم الغيب كثيرون لا كثَّرهم الله، هؤلاء قد يُخبرون عن ادِّعاءٍ بالغيب بأمور ماضية أو بأمور مستقبلة، يدَّعون أنهم يعرفون الذي مضىٰ، يقولون: أنت في صِغَرك كنت كذا وكذا، وفعلت كذا وكذا، أو يخبرون بأماكن الأمور التي ضاعت وهي أمور قد مضت، يقولون: الضائع أو الشيء المسروق تجدونه في المكان الفلاني، وهم يستعينون علىٰ هذا بالجن والشياطين، أو يخبرون بما يُستَقْبَل، يقولون: أنت سيكون لك كذا، أنت ستحصل علىٰ كذا، ستفوز بجائزة.. إلىٰ آخره.

إذن: هذا هو ادِّعاء علم الغيب، وله صور تتنوع باختلاف الأزمنة واختلاف الأمكنة، هناك صور قديمة، من ذلك: أن يُذهب إلىٰ الكهنة والعرافين فيجعلون نارًا أو شيئًا من الأدخنة ثم ينظرون في هذا الدخان إلىٰ أيِّ شيء ينتهي، ثم يتصورون ويتهيؤون أشياء ثم يقولون: سيكون كذا وكذا من أمور السُّعود أو أمور النحوس.

وربما يكون ذلك بشيء آخر كالخط في الأرض، يدَّعون أنهم يعلمون الغيب بهذه الوسيلة، يخطون خطوط في التراب عشوائية كثيرة، ثم يأتون يمسحون

خطين خطين خطين، ثم ينظرون ما بقي، إن بقي خط واحد فهذا دليل على النحوس، وإن بقي خطان فهذا دليل على السعادة.

أو يكون هذا بقراءة الكف، يأتي يضرب على اليد ثم يقول متأملًا: واللهِ أنت سيكون لك كذا وسيكون منك كذا، رجم بالغيب.

أو بالضرب بالحصى، يأتي بمجموعة من الحصا ويضرب عليها ثم بعد ذلك ينظر ويتكلم بهذه الترهات التي يزعم أنها غيب مستقبلي.

وقد يكون هذا بما يتعارف عليه بعض الناس اليوم بأنه قراءة الفنجان، يعطيك كأس قهوة إذا شربته فإنه يميله، ثم بعد ذلك ينظر في الشكل الذي يتشكل ويقول: إنه سيكون كذا وسيكون كذا، وقد يكون هذا من خلال ما يزعمونه من أنه الأبراج، من وُلِد في برج الجدي أو وُلِد في برج الثور أو وُلِد في برج السنبلة أو ما شاكل ذلك فإنه سيكون له كذا وكذا كما هو واقع في بعض المجلات، واليوم هناك مواقع بالعشرات أو المئات أو الآلاف تذكر هذه الأبراج، وكل واحد ينظر يقول: أنا مولود في برج الفلاني، ماذا سيكون عليه حالي هذا الأسبوع؟ فيقرأ، يقول: أنت ستلتقي بصديق جديد، أو ستخسر، ستُصْدَم سيارتك.

أو ربما يكون هذا عن طريق الحروف الأبجدية، وهذا أمر معروف في القديم وفي الحديث، يقول: ما اسمك؟ وما اسم أبيك؟ وما اسم أمك؟ ثم يأتي يقارن كل حرف بالأرقام الذي هو حساب الجُمَّل، تعرفون حساب الجُمَّل، الألف يقابلها واحد، والباء يقابلها اثنان، ثم بعد ذلك ينظر ما الذي يخرج، ثم بعد ذلك

عندهم قاعدة حسابية، يقسمون ويضربون ويحسبون حسابًا معين، ثم إذا خرجت النتيجة ينظرون في الرقم الذي يخرج وينظرون إلىٰ جدول مكتوب عندهم فيقولون: سيكون كذا أو سيكون كذا.

هذا كله من ادِّعاء علم الغيب الذي استأثر الله ﷻ به، ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾ [النمل:٦٥]، وقلنا: إن النفي والإثبات أبلغ أدوات الحصر، **إذن:** علم الغيب حصر وقصر ، شيء اختص الله ﷻ به لا يشركه فيه غيره، وهذا الطاغوت جعل نفسه عديلًا لله ونظيرًا لله ومشابهًا لله، تعالىٰ الله عن ذلك علوًا كبيرًا .

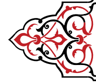
إذن: هؤلاء الذين يذهبون إلىٰ هؤلاء الطواغيت عليهم أن يعلموا أنهم يلعبون بالنار، فالمسألة إيمان وكفر. هذا الذي يدَّعي علم الغيب قلنا: هو طاغوت. ماذا عن الذي يصدِّقه فيما ادعاه؟ إذا كان من يأتيهم مصدقًا لما يقولون، وأنهم يعلمون الغيب الذي استأثر الله به فلا شك أن هذا كافر بالله ﷻ، وقد ثبت في «مسند الإمام أحمد» أن النبي ﷺ قال: «**من أتىٰ كاهنًا أو عرَّافًا فسأله فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل علىٰ محمد ﷺ**».

إذن: حذار من التلاعب بالدين الذي يورد صاحبه الهلاك.

كذلك حذار من درجة أقل ولكنها خطرة، وصاحبها آثم وعرَّض إيمانه - أيضًا- للحبوط، لأنه قد يوقع الشيطانُ في نفسه شيئًا وإن كان في ابتداء أمره لا يصدق، لكن الشيطان حريص وينفث ويوسوس، بعض الناس يقول:

دعونا نتفرج، نسأل هؤلاء، نمزح، نضحك، نتفكه، بعضهم يدخل هذه المواقع ويكتب معلومات عن نفسه ويقول: دعني أنظر ماذا يقولون عني، ماذا سيكون عليه الأمر الأسبوع أو الشهر القادم، من باب المزاح، من باب التفكه، من باب الضحك، يقول: أنظر، ولا يدري هذا المسكين أنه قد باء بإثم عظيم، فإنه قد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «من أتىٰ عرافًا أو كاهنًا فسأله لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا»، بئس الحال التي وصلت إليها يا هذا المسكين! أن تصلي ومع ذلك لا يُثيبك الله ﷻ علىٰ هذه الصلاة التي تصليها مدة أربعين يومًا؛ عقوبة علىٰ هذا الفعل الذي فعلته، هذا دليل علىٰ أن صاحب هذا الفعل قد ارتكب أمرًا محرمًا، وربما تبدأ المسألة بمزاح وتنتهي بكفر، نسأل الله السلامة والعافية!



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: 

وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ.



الشَّرح

(وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ) وهذا المقام فيه تفصيل:

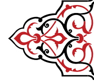
إذا قال الحاكم أو القاضي: أنا أحكم بغير ما أنزل الله، ما أنزل الله: أن السارق تقطع يده، ويقول: لا، تكفي سنتان، هذا الذي أحكم به لأن هذا الذي يناسب هذا العصر، هذا الحكم يناسب ما قبل ألف وأربعمائة سنة، يوم كان الناس في بداوة وبسطاء، اليوم ما يصلح، هذا الذي أحكم به اليوم هو الذي تقرر في القانون الإنجليزي أو القانون الفرنسي، وهذا الذي يناسب هذا العصر، أما قطع الأيدي إيش قطع الأيدي؟ هذا لا يصلح. نقول: هذا كفر أكبر، والعياذ بالله! ومن كان كذلك فإنه طاغوت.

كذلك الذي يحكم، يأتي القاضي فيحكم بما في القانون ويزعم أنه أحسن من حكم الله، حكم الله لا بأس، جيد، لو قطعنا يده لا بأس لكن هذا أحسن وأفضل وأنسب، أيضًا هذا كافر وطاغوت، كافر كفرًا أكبر.

أو يأتي هذا الحاكم ويقول: أنا أحكم بالسجن لا بالقطع، وأرىٰ أن هذا جيد ولا بأس به، والحكم بالشريعة جيد ولا بأس به، كلهم علىٰ حد سواء، لا فرق: إن شئت أن تحكم بهذا وإن شئت أن تحكم بهذا، لكن أنا أختار هذا، نقول: هذا -أيضًا- كافر كفرًا أكبر وطاغوت.

أما إذا كان يحكم بغير ما أنزل الله كما هو واقع في القديم وربما يكون واقعًا -أيضًا- في الحديث، أن يحكم بغير ما أنزل الله لهوىٰ، يُرشىٰ بشيء من المال، أو يكون الذي يُحكم عليه قريبًا أو حبيبًا له فيحكم بغير ما أنزل الله ﷻ ممالأة له، فهذا كافر الكفر الأصغر، هذا الذي جاء في حقه أنه كفر دون كفر كما قال ابن عباس وغيره من أهل العلم في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة:٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة:٤٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة:٤٧].



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: 

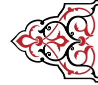
وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦].

الشَّرح

قال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ [البقرة:٢٥٦] يريد أن يبين المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما هي حقيقة هذا التوحيد، وما التفسير الصحيح لـ(لا إله إلا الله) فبيَّن أنه يجتمع كل الكلام في تفسير التوحيد وفي لا إله إلا الله في هاتين الكلمتين: أن يكفر بالطاغوت وأن يؤمن بالله، فإنه حينئذٍ سيكون مستمسكًا بالعروة الوثقىٰ، والعروة الوثقىٰ كما قال سعيد بن جبير وكما قال الضحاك وغيرهما من أهل العلم: إنها لا إله إلا الله. الذي يجمع بين كفره بالطاغوت وإيمانه بالله هو الذي قام بحق لا إله إلا الله وحقق لا إله إلا الله، استمسك بالعروة الوثقىٰ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:



وَهَذَا هُوَ مَعْنَىٰ لا اله إِلا اللهُ. وَفِي الْحَدِيثِ: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامِ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ».

وَاللهُ أَعْلَمُ.

الشَّرْح

هذا حديث الترمذي حديث معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حينما جاء يسأل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عمل يدخله الجنة ويباعده من النار، والحديث مشهور، وهو أحد الأحاديث الأربعين النووية المشهورة والمحفوظة عند كثير من طلبة العلم، وهو حديث صحيح، وفيه: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لمعاذ: «ألا أدلك علىٰ رأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟» قال: بلىٰ يا رسول الله. قال: «رأس الأمر: الإسلام، وعموده: الصلاة، وذروة سنامه: الجهاد».

عجيب! الحديث كان عن لا إله إلا الله والكفر بالطاغوت والإيمان بالله وإذا بنا يستدل لنا المؤلف بحديث فيه الإسلام والصلاة والجهاد، فما وجه الجمع بين هذا وما قبله؟

الجواب: أن الشاهد من إيراد المؤلف هذا الحديث الجملة الأولىٰ وهي قوله: (رأس الأمر: الإسلام)، الأمر يعني: الدين الذي خلقك الله عَزَّ وَجَلَّ لأجله، أو رأس الأمر الذي سألت عنه هو الإسلام.

وما الإسلام؟ ماذا عرَّف المؤلف الإسلام قبل ذلك؟ قال: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله.

إذن: هذا هو الإسلام الذي هو رأس الأمر، وهذا ما ترجمت عنه كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) التي جمعت بين الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، والإسلام هو -أيضًا- الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، (الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة) هذا الإيمان بالله، (والبراءة من الشرك وأهله) هذا هو الكفر بالطاغوت.

إذن: أراد المؤلف هذه الجملة، وأن هذا رأس الأمر، كما أن الإنسان بلا رأس لا يعيش، كذلك الدين بلا رأس لا يكون، كذلك الحيوان إذا زال رأسه فإنه يموت، كذلك إذا ذهب التوحيد الذي هو رأس الأمر فإنه لا يبقىٰ توحيدًا ولا يبقىٰ دين، لا يبقىٰ للإنسان دين ولا يبقىٰ له إيمان.

وجاء في هذا الحديث في «مسند أحمد» من رواية فيها شَهْرُ بنُ حوشب قال: «**رأس الأمر: أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله**»، وهذا تفسير لكلمة الإسلام، هذه الرواية إن صحت تفسير لكلمة (الإسلام).



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعلىٰ آله وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

الشَّرْح

المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ختم هذه الرسالة الجليلة بإرجاع العلم إلىٰ العليم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وصلىٰ وسلم علىٰ نبينا محمد، اللهم صل وسلم علىٰ محمد وآل محمد كما صليت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد كما باركت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

أوصي نفسي وإخواني في ختام هذه الرسالة بالعناية بالتوحيد والاهتمام به، والإكثار من مراجعته ومذاكرته، ولا سيما هذه الرسالة، فإنك أظن أنك قد اقتنعت بأنها رسالة لا يستغني عنها أحد، لا عالم ولا طالب علم ولا عامي ولا صغير ولا كبير، الكل بحاجة إلىٰ أن يتأملها لأنها احتوت اللُّب واحتوت الخلاصة.

فأسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يحيينا علىٰ التوحيد والسنة، وأن يميتنا عليهما، وأن يجعل آخر كلامنا من الدنيا لا إله إلا الله، وأن لا يتوفانا إلا وهو راضٍ عنا، إن ربنا لسميع الدعاء.

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

